RACHAEL LIPPINCOTT

FIVE FEET APART

على بُعد خمس خطوات

رايتشل ليبينكوت

رواية

ترجمة: تسنيم المنجد

عصير الكتب

مكتبة ياسمين

FIVE FEET APART

على بُعد خمس خطوات

هل يمكن أن تحب شخصًا ما لن تتمكن من لمسه أبدًا؟

ستيلا جرانت، فتاة مهووسة بالسيطرة، رغم أن رئتيها -الخارجتين تمامًا عن سيطرتها- تتسببان في دخولها المستشفى مرارًا وتكرارًا معظم حياتها. في هذه المرحلة، أكثر ما تحتاج إليه ستيلا هو أن تنأى بنفسها عن أي شخص أو أي شيء قد يسبب لها العدوى أو يضيع إمكانية حصولها على فرصة زرع رئة. الجميع على بُعد ست خطوات. لا استثناءات.

ويل نيومان، أكثر شيء يسيطر على تفكيره هو خروجه من هذا المستشفى. لا يكترث بتلقي علاجاته، أو بأي تجربة علاجية سريرية جديدة. ففي وقت قريب، سيبلغ الثامنة عشرة وسيتمكن من التخلص من كل هذه الأجهزة وينطلق ليرى العالم على حقيقته، لا مستشفياته فحسب.

ويل بالتحديد هو من تحتاج ستيلا إلى البقاء بعيدة عنه. فإذا تنفس على مقربة منها قد يُشطب اسمها من قائمة الزرع. وقد يموت أيٌّ منهما. الطريقة الوحيدة للبقاء على قيد الحياة هي أن يبتعدا عن بعضهما. لكن على حين غرة، لا تبدو الخطوات الست بينهما أمانًا، وإنما عذابٌ .

ماذا لو استطاعا استعادة بعض المسافة التي سلبتها رئاتهما المريضة؟ هل يمكن أن تكون مسافة خمس خطوات فحسب بينهما خطيرة حقًّا إذا حمت قلبيهما من الانفطار؟

غلاف: عبد الرحمن الصواف

9789779922744

عصير الكتب

aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com
AseerAlkotb
AseerAlkotb
AseerAlkotb

telegram @
yasmeenbook

FIVE FEET APART

على بُعد خمس خطوات

عصير الكتب

telegram @
yasmeenbook

- العنوان الأصلي: Five Feet Apart
- العنوان العربي: على بُعد خمس خُطُواتٍ
- طُبِع بواسطة:
Simon & Schuster Children's
Publishing Division

- حُقوق النشر:
copyright © 2023 by CBS Films, Inc
- حقوق الترجمة: محفوظة لدار عصير الكتب

- ترجمة: تسنيم المنجد
- تحرير: محمد المتيم
- تدقيق لغوي: مريم عبد الجليل
- تنسيق داخلي: معتز حسنين علي
- الطبعة الأولى: يناير/ 2024م
- رقم الإيداع: 13040/2023م
- الترقيم الدولي: 978-977-992-274-4

RACHAEL LIPPINCOTT

FIVE FEET APART

telegram @
yasmeenbook

على بُعد خمس خطوات

رايتشل ليبينكوت

رواية

ترجمة: تسنيم المنجد

عصير الكتب

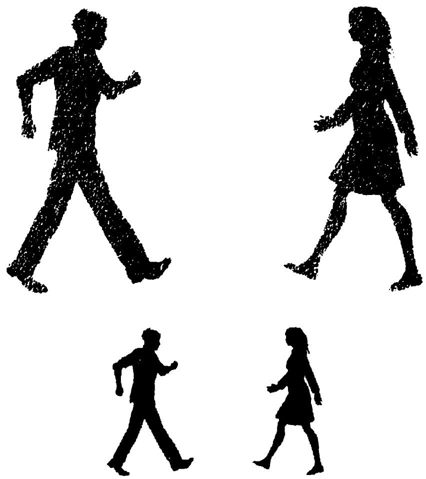

الفصل الأول

مكتبة ياسمين
telegram @
yasmeenbook

ستيلا

أتتبعُ ما رسمت أختي، رئتين تشكَّلتا من بحرٍ من الزهور.

تفيضُ البتلاتُ من حوافِّ الشكلين البيضاويين باللون الورديِّ الناعم والأبيض العميق والأزرق الهادئ المتوازن، لكنَّ كلَّ شكلٍ منهما متفرِّدٌ بطريقةٍ ما بذاته. حيويةٌ تبدو وكأنها ستزهر إلى الأبد، بعض الزهور لم تتفتح بعد، أستطيع أن أشعرَ بوعد الحياة يتجلَّى في انتظار أن تتفتح البراعم الصغيرة تحت وطأة أصابعي.. تلك هي الأقرب إلى قلبي.

أتساءل في كثير من الأحيان عمَّا يبدو عليه الأمر عند امتلاك رئتين تعملان بهذه الكفاءة، رئتين تنبضان بالحياة. آخذ نفسًا عميقًا وأشعر بالهواء يشق طريقه داخل جسدي ثم يخرج منه.

بانزلاق يدي من آخر بتلةٍ في آخر زهرة، تغوص أصابعي في خلفية من النجوم، كلُّ نقطةٍ من الضوء رسمَتْهَا آبي فيها كانت محاولة منفصلة لنيل اللا نهاية، أبتلع ريقي وأسحب يدي بعيدًا وأنحني لألتقط صورةً تجمعنا من على سريري، ابتساماتٌ متماثلة تتسلل من تحت الأوشحة الصوفية السميكة، وأضواءُ الاحتفال بالعطلة في الحديقة أسفل الشارع تتلألأ فوق رؤوسنا كحال النجوم في رسمتها.

كان في ذلك شيءٌ سحريٌّ، الضوء الخافت المنبعث من أعمدة الإنارة في الحديقة.. والثلج الناصع المتشبث بأغصان الأشجار.. والسكون المطبق لذلك كله. لقد كادت تتجمد مؤخراتنا في أثناء التقاط تلك الصورة العام الفائت، لكن ذلك كان من عاداتنا أن نكافحَ أنا وآبي البرد لنخرج ونشهد أضواء العطلة معًا.

دائمًا ما تذكرني هذه الصورة بذلك الشعور، عندما أخوض أنا وأختي مغامرة معًا، لوحدنا فقط، يتوسع العالم أمامنا ككتاب مفتوح.

ألتقط دبوسًا وأعلق الصورة إلى جانب الرسمة قبل أن أجلسَ على سريري وأمسك بدفتر ملاحظاتي وبقلم من على طاولة سريري، تتفحص عيناي قائمة المهام الطويلة التي وضعتها لنفسي هذا الصباح والتي تبدأ بـ «1#: وضع خطة لإنجاز المهام» التي سبق وأعددتها في سطر مستوفٍ مُتمم، نزولًا للوصول إلى المهمة «22#: التفكير في الحياة الآخرة».

كانت المهمة رقم 22# في الغالب مجرد طموح صغير لفترة ما بعد الظهيرة من يوم الجمعة، لكن على الأقل يمكنني الآن شطب المهمة رقم «17#: تزيين الجدران». أنظر إلى أرجاء الغرفة التي كانت خالية تمامًا سابقًا، وقد قضيت الجزء الأفضل من صباحي بجعل جدرانها -مرة أخرى- مملوءة بأعمال آبي الفنية التي أعطتني إيَّاها على مرِّ السنين، أجزاء من الألوان والحياة تقفز من الجدران البيضاء الهادئة، كلٌّ منها يحكي رحلة مختلفة إلى المستشفى.

يتصل بذراعي محلول الحقن الوريدي، وحقيبة تعجُّ بالفراشات من مختلف الأشكال والألوان والأحجام، مع قنيِّة أنفيَّة تلتف حزمة قنواتها لتشكل علامة اللا نهاية، أضع جهاز الرَّذاذ الذي يتصاعد منه البخار مشكِّلًا هالة غائمة، ثم هناك الشيء الأكثر حساسية، إعصارٌ باهت من النجوم رسمته لأول مرة هنا، لم تكن متقنة كالأشياء التي رسمتها فيما بعد، ولكن بطريقة ما جعلني هذا أحبها أكثر.

ومباشرةً تحت كلِّ تلك الأشياء المفعمة بالحيوية.. كومة أجهزتي الطبية إلى جانب كرسي المستشفى الجلديِّ بلون أخضر بغيض يأتي بشكل قياسي لكلِّ غرفة هنا في مستشفى القديس جريس، أنظر إلى حامل الحقن الوريدي بحذر، وأعرف أن أولى جولاتي من جرعات المضادات الحيوية للشهر التالي تبقَّى عليها بالضبط ساعة وتسع دقائق.. لحسن حظي.

أسمع صوتًا من خارج غرفتي يقول: «ها هي ذي!»، أنظر إلى الباب بينما يُفتح ببطء ثم يظهر وجهان مألوفان من شق الباب، لقد زارتني كاميليا وميا هنا مليون مرة خلال العقد الماضي، ولا تزالان لا تستطيعان الوصول إلى ردهة غرفتي من دون أن تسألا كلَّ شخصٍ في المبنى عن الاتجاهات.

أقول متبسمة: «غرفة خاطئة»، مع نظرة ارتياحٍ إليهما.

تضحك ميا وتفتح الباب وتقول: «بصراحة كان من الممكن أن يكون كذلك، لا يزال هذا المكان متاهة لعينة».

أقول وأنا أنهض لأعانقهما: «هل أنتما متحمستان يا رفاق؟».

تتراجع كاميليا لتنظر إليَّ عابسة وشعرها البني يتدلى معها وتقول: «إنها الرحلة الثانية على التوالي من دونك».

هذا صحيح، إنَّها ليست المرة الأولى التي يبعدني فيها مرضي بالتليف الكيسي عن المشاركة في بعض الرحلات الصفية أو قضاء عطلة مشمسة، أو حضور حدث مدرسيٍّ، بنسبة 70% من الوقت تكون الأشياء عادية جدًّا بالنسبة إليَّ، أذهب إلى المدرسة وأتسكع مع كاميليا وميا وأعمل على تطبيقي، أفعل كلَّ ذلك مع الأداء المنخفض لرئتيَّ، لكن بما نسبته 30% من وقتي، يتحكم التليف الكيسي في حياتي، يعني ذلك أنه عندما أحتاج أن أعودَ للمستشفى لإجراء فحص خاص تفوتني أشياء مثل رحلة صفية إلى متحف الفن أو الآن رحلتنا الأولى إلى كابو.

يتمحور هذا الفحص الخاص حول حقيقة حاجتي إلى ضخِّ المضادات الحيوية لأتخلص من التهاب الحلق والحمى التي لا تزول، هذا بالإضافة إلى انخفاض وظيفة رئتيَّ.

ترتمي ميا على سريري وتتنهَّد بعمق وهي مستلقية، وتقول: «إنها أسبوعان فقط، هل أنت متأكدة أنك لا تستطيعين المجيء؟ إنها رحلتنا الأخيرة، ستيلا».

أقول بحزم: «أنا متأكدة» وهم يعرفون أنني أعني ذلك، نحن أصدقاء منذ المرحلة الإعدادية، وهم يعرفون الآن أنه عندما يتعلق الأمر بالخطط، فإنَّ لمرضي كلمةَ الفصل.

لا يبدو الأمر كما لو أنني لا أريد الذهاب، إنها فقط -بالمعنى الحرفي للكلمة- مسألة حياة أو موت. لا يمكنني الذهاب إلى كابو أو نحو ذلك، والمجازفة بالعودة، لا أستطيع فِعل ذلك مع والديَّ، ليس الآن.

تقول كاميليا وهي تشير إلى غرفة المستشفى التي زيّنتُها بعناية: «لقد كنت رئيسة لجنة التخطيط هذا العام، ألا يمكنك حملهم على نقل علاجك؟ لا نريدك أن تكوني عالقة هنا».

أهز رأسي، وأقول مبتسمة بأمل وأنا أُنقِّل نظري إلى الأمام والخلف بين كاميليا وميا: «لا تزالُ لدينا عطلة الربيع معًا، ولم أفوِّت عطلة الربيع «عطلة أعز الأصدقاء» منذ الصف الثامن، متى أُصبت بهذا البرد؟». مع ذلك، لم تبادلني إحداهما ابتسامتي واختارت كلتاهما أن تبدو كما لو أنني قتلت الحيوانات الأليفة لعائلتها.

ألاحظ أن كلتيهما تحمل حقائب ملابس السباحة التي طلبت منها إحضارها، لذلك أخطف حقيبة كاميليا من يدها في محاولة يائسة لتغيير الموضوع. «أوه، خياراتٌ للملابس! علينا أن ننتقي الأفضل منها!». ما دمت لن أستمتع بشمس كابو الدافئة بملابس سباحة من اختياري، فأحسب أنه يمكنني على الأقل عيش ذلك بشكل غير مباشر من خلال أصدقائي باختيار ملابسهم معهم.

يجعل هذا كلتيهما أفضل، نفرغ بشغف حقائبهما على سريري، فيتجلى خليطٌ من الزهور والأشياء المنقَّطة واللامعة.

أتفحص كومة ملابس السباحة الخاصة بكاميليا، ملتقطة لباسًا أحمر يتراوح بين أن يكون بكيني أو مجرد خيط واحد، والتي أعرف ومن دون أدنى شك أنه كان من ثياب أختها الكبرى ميجان.

أرميه لها: «هذه هي، تناسبك جدًّا».

تتسع عيناها، وترفعها حتى خصرها، تعدل فجأة نظارتها ذات الإطار السلكي متفاجئة، أقول: «أعني أن خطوط السُّمرة ستكون رائعة جدًّا...».

أقول وأنا أمسك بكيني مخططًا باللونين الأبيض والأزرق، بإمكاني القول إنه يناسبها لتبدو رشيقة تمامًا: «كاميليا، أمزح فحسب، هذا الأفضل».

يبدو عليها الارتياح، وتلتقط اللباس مني. أحول انتباهي إلى الكومة الخاصة بميا لكنها تكون مشغولة بكتابة الرسائل النصية بعيدًا على كرسيٍّ المستشفى الأخضر في الزاوية وعلى وجهها ابتسامةٌ عريضة.

أخرج قطعة كانت لديها منذ حصص السباحة في الصف السادس، أرفعها إليها بابتسامة مصطنعة: «ما رأيك بهذه، ميا؟».

ترد وهي تكتب بلهفة: «أحببته، يبدو رائعًا».

تتذمر كاميليا وهي تعيد ملابسها لحقيبتها، وترسم على وجهها ابتسامة ماكرة وتقول موضحة: «ماسون وبروك قد انفصلا».

أقول: «يا إلهي! حقًّا؟ يا لها من أخبار رائعة!».

حسنًا، ليس بالنسبة إلى بروك، لكن ميا كانت معجبة بماسون منذ السنة الدراسية الثانية في فصل الآنسة ويلسون للغة الإنجليزية، لذلك يعدُّ هذا الانفصال بالنسبة إليها فرصةً لتتخذ خطوة أخيرًا.

يزعجني أنني لن أكون هناك لأساعدها في وضع خطة «عاصفة كابو الرومانسية مع ماسون» للإيقاع بماسون بعشر خطوات.

تضع ميا هاتفها جانبًا وتهز كتفيها بعدم اكتراث، ثم تقف وتتظاهر بالنظر إلى بعض الأعمال الفنية على الجدران، وتقول: «ليس بالأمر المهم، سنلتقي به غدًا صباحًا هو وتايلور في المطار».

أرمقها بنظرةٍ فتلوح على وجهها ابتسامة كبيرة وتقول: «حسنًا، إنه شيءٌ مهمٌّ إلى حدٍّ ما».

نصرخ جميعًا في حماس، أرفع لباسًا جذَّابًا مُنَقَّطًا من قطعة واحدة بنمطٍ كلاسيكي يناسبها تمامًا، تومئ برأسها وتلتقطه ثم تضعه على جسدها وتقول: «كنت آملُ حقًّا أن يقع اختيارك عليه».

ألتفت إلى كاميليا لأراها تحدِّق إلى ساعتها بقلق، وليس هذا بالأمر المفاجئ؛ فهي بطلة في المماطلة وفي الغالب لم تحزم شيئًا واحدًا لرحلة كابو بعد، عدا البكيني بالطبع.

تراني وقد لاحظتها تتفقد ساعتها فتبتسم خجلى، وتقول: «لا أزال بحاجة إلى شراء منشفة للشاطئ من أجل الغد».

هذه هي كاميليا.

أقفُ وقد اعتصر قلبي ألمُ التفكير في مغادرتهما، لكنني لا أريد تأخيرهما: «عليكما الرحيل إذن يا رفاق! فموعد طائرتكما غدًا عند طلوع الفجر».

تنظر ميا في أنحاء الغرفة بحزن بينما تلفُّ كاميليا حقيبة ملابسها بخيبة أمل حول يدها، تجعل كلتاهما الأمر أكثر صعوبةً مما اعتقدت أنه سيكون، أبتلع الشعور بالذنب ومشاعر الانزعاج الفياضة، ليس الأمر كما لو أنهما فوَّتتا رحلتهما الأخيرة إلى كابو، على الأقل ستكونان معًا.

أعطي كلتيهما ابتسامة كبيرة، أدفعهما عمليًّا إلى الباب وأنا أرافقهما، يتألم خدَّاي من كلِّ هذه الإيجابية الزائفة، لكنني لا أريد أن أفسد عليهما الأمر.

تحضنني كاميليا وتقول: «سنرسل إليك العديد من الصور، حسنًا؟».

أقول لميا: «يجدر بك أن تضيفيني إلى بعض تلك الصور باستخدام برنامج الفوتوشوب». فهي بارعةٌ في استخدامه. «لن تعرفي حتى إنني لم أكن هناك».

تتباطآن عند المدخل، فأشيح إليهما بناظري إلى حدٍّ مبالغٍ فيه وأنا أدفعهما بمرح إلى الممر، وأقول: «اخرجا من هنا، أتمنى لكما رحلة رائعة».

تصيحان في أثناء سيرهما في الممر: «نحبك ستيلا». أراهما تذهبان، وألوِّح لهما حتى تغيب الخصل المتطايرة لشعر ميا المتجعد تمامًا عن الأنظار، وفجأةً لا أريد أكثر من أن أكون خارجةً معهما وأن أحزم الأمتعة بدلًا من تفريغها.

تتلاشى ابتسامتي عندما أغلق الباب وأرى صورة العائلة القديمة معلقة بعناية على الجزء الخلفي من باب غرفتي.

التُقطت الصورة قبل عدة سنوات في الصيف على الشرفة الأمامية لمنزلنا في أثناء حفل الشواء في الرابع من يوليو، أنا وآبي وأمي وأبي، تظهر على وجوهنا جميعًا ابتسامة بلهاء بينما تلتقط الكاميرا اللحظة، أشعر بموجة من الحنين والاشتياق عندما أسمع صوت الخشب البالي المتهالك لعتبة الباب تلك، التي تصرصر تحت أقدامنا ونحن نضحك ونقترب لتُلتقط الصورة، أفتقد ذلك الشعور، جميعنا معًا سعداء وننعمُ بصحة جيدة في أغلب الأحوال.

هذا لا يساعدني، أتنهَّد، وأسحب نفسي بعيدًا.. وأنظر إلى عربة الدواء.

بكلِّ صدق، أحب المكان هنا، إنه منزلي بعيدًا عن المنزل منذ أن كنت في السادسة، لذلك لا مانع لديَّ في القدوم، أتلقَّى علاجي وأتناول دوائي، وأشرب الكثير من مخفوق الحليب، أتمكن من رؤية بارب وجولي، ثم أغادر حتى نوبتي القادمة، بهذه البساطة، لكن في هذه المرة أشعر بالقلق، بل والاضطراب، لأنه بدلًا من مجرد رغبتي في أن أكون بصحة جيدة، أحتاج إلى أن أكون بصحة جيدة من أجل والديَّ.

لأنهما انفصلا وأفسدا كلَّ شيءٍ عن طريق الطلاق، وبعد أن خسرَ بعضُهما بعضًا لن يكونا قادرين على تَقَبُّل خسارتي أيضًا، أعرف ذلك.

فإذا أمكنني أن أصبح بصحة أفضل، قد...

خطوة تلو الأخرى، أتوجه إلى نظام الأكسجين المركزي، أتحقق مرة أخرى من ضبط مقياس التدفق على نحو صحيح، وأستمع إلى أزيز الأكسجين المنتظم يخرج منه قبل أن أسحبَ الأنبوب حول أذنيَّ، وأعلق فرعي القنيَّة

داخل أنفي، أتنهَّد، وأغرق في فراش المستشفى -غير المريح- المعتاد، وآخذ نفسًا عميقًا.

أصل إلى دفتر ملاحظاتي لأقرأ البند التالي على قائمة مهامي وأبقي نفسي منشغلة... «#18: تسجيل فيديو».

أمسك بقلمي الرصاص وأعضه بتمعُّن بينما أحدِّق إلى الكلمات التي كتبتها سابقًا، غريب، يبدو التأمل في الحياة الآخرة أسهل الآن.

لكن القائمة تبقى قائمة، لذا، أخرج زفيرًا وأصل إلى طاولة سريري لأتناول حاسوبي المحمول، وأجلس متربعة على لحافي المُزهَّر الجديد الذي اخترته البارحة في المتجر بينما كانت كاميليا وميا تشتريان الملابس من أجل رحلة كابو، لم أكن أحتاج حتى إلى اللحاف، لكنهما كانتا متحمستين جدًّا في مساعدتي على اختيار شيءٍ ما من أجل رحلتي إلى المستشفى، شعرت بالأسى في حال لم أشتره، على الأقل، يلائم نوعًا ما جدراني الآن، مشرق وينبض بالحياة وملون.

أنقر بأصابعي بقلق على لوحة المفاتيح، وأحدِّق إلى انعكاس صورتي على شاشة الحاسوب بينما يبدأ التشغيل، أعبس بسبب فوضى الشعر البني الطويل وأحاول تمشيطه مخللةً أصابعي فيه مرارًا وتكرارًا. أسحب محبطةً ربطة شعري من معصمي، وألجأ إلى جمع شعري في كعكة غير مرتبة في محاولة لأبدو بمظهر لائق نوعًا ما في هذا الفيديو، أمسك نسختي من «كود الجافا الخاص بأجهزة الأندرويد» من طاولة سريري وأضع حاسوبي المحمول فوقها، إذ لا يظهر الكثير أسفل ذقني، ويمكن أخذ لقطة جذابة عن بُعْد.

أدخل على حسابي على اليوتيوب للبثِّ المباشر، وأضبط كاميرا الويب بحيث أتأكد من إمكانية رؤية رسمة الرئتين لأبي خلفي مباشرةً.

إنها الخلفية الأمثل.

أغلق عينيَّ وآخذ نفسًا عميقًا، أسمع الأزيز المألوف لرئتيَّ يحاول جاهدًا ملئها بالهواء عبر بحر من المخاط، أخرج الزفير ببطء، أرسم على وجهي

ابتسامة كبيرة كبطاقة ترحيب من هولمارك قبل أن أفتح عينيَّ وأضغط على زر البدء بالنقل المباشر.

«مرحبًا يا رفاق، هل يحظى الجميع بجمعة سوداء جيدة، أنا أنتظر الثلج الذي لم يأتِ».

أنظر إلى زاوية شاشتي بينما أعدِّل الكاميرا باتجاه شباك المستشفى، السماء رمادية غائمة، الأزهار على الجانب الآخر للزجاج قاحلة تمامًا، أبتسم بينما يتخطَّى عدد البث المباشر بثبات 1k. نسبة قليلة من المشتركين في قناة اليوتيوب البالغ عددهم 23.940 الذين يتابعونني ليروا كيف تسير معركتي مع التليف الكيسي.

«إذن.. يمكنني أن أستعدَّ إلى الذهاب على متن الطائرة المتجهة إلى كابو في الرحلة الأخيرة لمدرستي، لكن بدلًا من ذلك سأقضي هذه العطلة في منزلي بعيدًا عن المنزل، وذلك بسبب التهاب خفيفٍ في الحلق».

بالإضافة إلى الحمى الشديدة، أعود بذاكرتي للصباح عندما جرى قياس درجة حرارتي عند دخولي، كانت الأرقام الوامضة على مقياس درجة الحرارة تضجُّ بحدة لتشير إلى 38.89 درجة مئوية، لكن لا أريد ذكر ذلك في الفيديو، فوالداي سيشاهدانه حتمًا لاحقًا.

على حدِّ علمهما، أنا أعاني بردًا مزعجًا فحسب.

«من يحتاج إلى أسبوعين كاملين في أشعة الشمس تحت سماء زرقاء بالقرب من الشواطئ، بينما يمكنه أن يحظى بشهر من التَّرَفِ في فناء منزله الخلفي؟».

أعدد وسائل الراحة وأعدُّها على أصابعي: «دعونا نرى، لديَّ بوَّابٌ بدوام كامل، وحلوى بودينغ لا محدودة، وخدمات التنظيف. أوه! وبارب تحدث الطبيبة حاميد للسماح لي بالاحتفاظ بجميع أدويتي وعلاجي في غرفتي في هذه الفترة، جرِّب ذلك».

أحوِّل كاميرا الويب إلى كومة من المعدات الطبية، ثم إلى عربة الدواء إلى جانبي التي رتَّبتها بشكل مثاليٍّ حسب الترتيب الأبجدي والزمني من خلال

وقت الجرعة المجدول الذي أدخلته إلى التطبيق الذي صممته، إنه أخيرًا جاهز للتشغيل التجريبي.

كان هذا المهمة الرابعة عشرة على قائمة مهامي لليوم، وأنا فخورة للغاية بالحال الذي آل إليه.

يرن حاسوبي بينما تبدأ التعليقات في الظهور، أرى أحدها يذكر اسم بارب مع بعض القلوب من الرموز التعبيرية، إنها المفضلة لدى الجمهور، تمامًا كما هي المفضلة لديَّ. منذ زيارتي الأولى إلى المستشفى من أكثر من عشر سنوات، كانت المعالج التنفسي هنا، تمرر بخفاء الحلوى إليَّ وإلى مرضى التليف الكيسي الآخرين، مثل شريكي في الجريمة بو، إنها تمسكُ بأيدينا حتى في أكثر القبضات القوية إيلامًا كما لو أنها لا شيء.

لقد أمضيت نحو نصف ذلك الوقت في صنع فيديوهات اليوتيوب لزيادة الوعي بشأن التليف الكيسي، وعلى مرِّ السنين، بدأ العديد من الأشخاص -أكثر مما كنت أتخيل- متابعة عملياتي الجراحية وعلاجي وزياراتي إلى مستشفى سانت جريس، بقوا معي خلال مرحلة تقويم الأسنان الخطرة وكلِّ شيء آخر.

أقول وأنا أعيد توجيه الكاميرا إليَّ: «لقد انخفضت وظيفة رئتيَّ إلى 35%. قالت الطبيبة حاميد إنني أصعد بثبات إلى أعلى قائمة الزرع الآن، لذلك سأكون هنا لمدة شهر، أتناول المضادات الحيوية وألتزم بنظامي...». تسافر عيناي إلى الرسمة خلفي، الرئتان السليمتان تلوحان فوق رأسي، لكنهما بعيدتا المنال.

أهزُّ رأسي وأبتسم، وأتكئ لآخذ علبة من عربة الدواء. «هذا يعني تناول أدويتي في وقتها المحدد، وارتداء سترتي الهزازة لتفكيك المخاط و«(أرفع الزجاجة) الكثير من هذه التغذية السائلة من خلال أنبوب المعدة كل ليلة». إذا كانت هناك أيُّ سيدات يرغبن في تناول خمسة آلاف سعرة حرارية يوميًّا ويحافظن على جسد مناسب لشاطئ كابو فأنا مستعدة للمبادلة».

يرن حاسوبي المحمول في أثناء تدفق الرسائل إليه واحدة تلو الأخرى، أقرأ بعضها وأدع الإيجابية تبعد كلَّ السلبية التي شعرت بها بشأن هذا الأمر.

تماسكي ستيلا! نحن نحبك.

تزوجيني.

«يمكن أن تأتي الرئتان الجديدتان في أيِّ لحظة، لذا يجب أن أكون مستعدة». أقول تلك الكلمات كما لو أنني أومن بها من أعماق قلبي، رغم أنني تعلمت بعد كلِّ هذه السنين ألا أرفع سقف آمالي أكثر من اللازم.

يرن! رسالة أخرى.

لقد أصبتُ بمرض التليف الكيسي، إنك تذكِّرينني على الدوام أن أكون إيجابيًا. XOXO

يمتلئ قلبي بالسعادة، أرسم على وجهي ابتسامة عريضة أخيرة للكاميرا، من أجل ذلك الشخص الذي يحارب الشيءَ ذاته الذي أحاربه، هذه المرة كانت ابتسامة حقيقية. «حسنًا يا رفاق، شكرًا على المشاهدة، يجب أن أتحققَ الآن مرة أخرى من علاج بعد الظهيرة والمساء، تعرفون كم أنا مهووسة، أتمنى أن يحظى الجميع بأسبوع رائع، وداعًا».

أُنهي فيديو البث المباشر وأزفر ببطء، أغلق المتصفح لأرى الوجوه المبتسمة المستعدة للاحتفال الشتوي الرسمي على خلفية سطح المكتب لحاسوبي، أنا وكاميليا وميا، يدًا بيد، وجميعنا نضع أحمر الشفاه الداكن ذاته كنا قد اقتنيناه معًا من سيفورا، حينها أرادت كاميليا الوردي اللامع، لكن ميا أقنعتنا أن اللون الأحمر هو اللون الذي يلزمنا في حياتنا، لا أزال غير مقتنعة بأن ذلك صحيح.

أستلقي على ظهري، أمسك بالباندا البالي المتكئ على وسائدي وألف يديَّ حوله بإحكام، لقد أطلقت عليه أختي آبي اسم «باتشز»، وكم أصبح اسمًا مناسبًا له! فقد كان لسنوات دخولي إلى المستشفى وخروجي منها -وهو معي- بالتأكيد أثرٌ عليه. الرقع متعددة الألوان التي خِيطت عليه في الأماكن الممزقة، فقد تدفقت حشوته إلى الخارج عندما ضغطت عليه بشدة في أثناء علاجي الأكثر إيلامًا.

يُطرق بابي ويفتح قبل مرور ثانية واحدة حتى، وإذ ببارب تدخل وهي تمسك مجموعة من أكواب البودينغ لأتناول دوائي معها: «لقد عدت، خدمة التوصيل».

عندما يتعلق الأمر ببارب، لم يتغير الكثير في الأشهر الستة الماضية، أو في السنوات العشر الماضية بالنسبة إلى هذا الخصوص؛ إنها تبقى الأفضل. الشعر القصير المجعَّد ذاته، والزي الطبي الملون ذاته، والابتسامة ذاتها التي تُضيء الغرفة بأكملها.

تسير خلفها بعد ذلك جولي الحامل في شهورها الأخيرة وهي تحمل محلول الحقن الوريدي.

الآن، هناك تغيُّر كبير عمَّا كانت عليه قبل ستة أشهر.

أبتلع دهشتي وأبتسم لبارب، بينما تضع لي حلوى البودينغ على طرف سريري لأفرزها على عربة الدواء، ثم تسحب قائمة لتتحقق من أن العربة تحوي كلَّ ما أحتاج إليه.

أسألها: «ما كنت لأفعل من دونك؟».

تغمزني: «كنتِ ستموتين».

تعلق جولي كيس الحقن الوريدي من المضادات الحيوية إلى جانبي، ينسحب بطنها على ذراعي. لماذا لم تخبرني بأنها حامل؟ أتجهَّم، وأبتسم برقة بينما أشاهد انتفاخ بطنها وأحاول بمهارة الابتعاد عنه. «لقد تغير الكثير في الأشهر الستة الماضية».

تفرك بطنها، وتلمع عيناها الزرقاوان بتألق وهي ترمقني بابتسامة كبيرة: «هل تريدين أن تستشعري ضرباته؟».

أقول: «لا» بسرعة نوعًا ما. أشعر بالسوء عندما تبدو متفاجئة من حدَّتي بعض الشيء، يتقوس حاجباها الأشقران في دهشة، لكنني لا أريد أن يكون شيءٌ ما من فألي السيِّئ قريبًا من ذلك الطفل المثالي السليم.

لحسن الحظ، تقع عيناها على خلفية سطح المكتب: «هل هذه صور الاحتفال الشتوي الرسمي خاصتك؟»

تقول بحماس: «لقد رأيت منها على الانستجرام، كيف كان الاحتفال؟».

أقول مع الكثير من الحماس وقد تلاشى الإحراج: «ممتعة للغاية!». أفتح ملفًّا على سطح المكتب مملوءًا بالصور. «لقد أبدعنا على ساحة الرقص مع ثلاث أغانٍ كاملة، وحظينا بالركوب بسيارة ليموزين، لم يكن الطعام سيئًا، لقد استطعت الوصول إلى العاشرة والنصف قبل أن أشعر بالتعب، والذي كان أفضل من المتوقع، من يحتاج إلى إعلان موعد العودة عندما يحدده جسده نيابة عنه، أليس كذلك؟».

أُريها وبارب بعض الصور التي التقطناها في منزل ميا قبل الرقص، بينما كانت توصل إليَّ حامل الحقن الوريدي، وتقيس ضغط دمي، وتأخذ قراءات الأكسجين. أتذكر أنني كنت أخاف الإِبَر، لكن مع كلِّ سحب للدم وتوصيل للحقن الوريدي، تلاشى ذلك الخوف تدريجيًّا؛ فأنا الآن لا أرمش حتى، لقد جعلني أقوى في كلِّ مرة أوخز فيها، كما لو كان بإمكاني التغلب على أيِّ شيء.

تقول بارب بعد أن أنهتا إجراء جميع المؤشرات الحيوية والاندهاش والتعجب من ثوبي الفضي اللامع بموديل A والورد الأبيض على كوساجي[1]: «كلُّ شيءٍ على ما يرام». قررنا أنا وكاميليا وميا وضع الكوساجات عندما نذهب معًا إلى الحفل، لم أرغب في الخروج في موعد، ولم يسألني أحدٌ على أيِّ حال. كان من الممكن جدًّا أن أضطر إلى ترك أحدهم خلال يومي، أو ألَّا أشعر بشعور جيد في منتصف الرقصة، والذي لن يكون عادلًا بالنسبة إلى مَن أرافقه، لم ترغب أيٌّ منهما أن أشعر بالإهمال، لذلك بدلًا من الحصول على مواعيدهما الخاصة، قررتا أن نذهب معًا، وعلى الرغم من التطورات بشأن ماسون، فلا يبدو أمر الحفل مرجَّحًا.

---

(1) الكوساج: سوار من الورد يوضع على المعصم.

تومئ بارب إلى عربة الدواء واضعةً يدها إلى خصرها، ترفع علبة الدواء وتقول: «سأبقى أراقبك، لكنك جيدة إلى حدٍّ كبير بالنسبة إلى المغادرة». تقول وهي تعيدها بعناية وتحمل أخرى: «تذكري، يجب أن تتناولي هذا الدواء مع الطعام. واحرصي ألا...».

أقول: «لقد فهمتُ بارب». إنها تتصرف فقط بذاتها الأمومية المعتادة، لكنها ترفع يديها باستسلام، وهي تعرف في أعماقها أنني حتمًا سأكون على ما يرام.

ألوح لهما مودعة بينما تتجهان إلى الباب، وأستخدم جهاز التحكم بجانب سريري لأرفع مسنده بعض الشيء.

تقول بارب ببطء بينما تخرج جولي من الغرفة: «بالمناسبة». تضيق عيناها وهي تنظر إليَّ نظرة تحذير لطيفة: «أريدك أن تُتِمّي محلول الحقن الوريدي أولًا، لكن بو قد وصل لتوِّه ونزل في الغرفة 310».

أقول وقد اتسعت عيناي بينما أتحرك لأخرج من السرير لأجده: «ماذا؟ حقًّا؟». لا أصدق إنَّه لم يخبرني أنه سيكون هنا.

تخطو بارب إلى الأمام وتمسك بكتفيَّ وتدفعني بلطف إلى الوراء على السرير قبل أن أتمكن من الوقوف تمامًا: «ماذا عن جزئية «أريدك أن تُتمي محلول الحقن الوريدي أولًا» ألم تفهميها؟».

أبتسم إليها بخجل، لكن كيف لها أن تلومني؟ فقد كان بو صديقي الأول الذي عرفته عندما أتيت إلى المستشفى، إنه الشخص الوحيد الذي يفهمني حقًّا، لقد حاربنا التليف الكيسي معًا طوال عقدٍ استثنائي، حسنًا، معًا لكن على بُعد مسافة آمنة.

لا يمكننا أن نقترب من بعضنا كثيرًا، بالنسبة إلى مرضى التليف الكيسي، يعد انتقال العدوى من سلالات بكتيرية معينة خطرًا مُحْدِقًا. يمكن للمسة بين مصابَين بالتليف الكيسي أن تقتل كليهما حرفيًّا.

يفسح عبوسها الجدِّي الطريق لابتسامة لطيفة، تنظر إلى عربة الدواء وتقول ممازحة: «ارتاحي واسترخي، خذي حبة مهدئة. «ليس بالمعنى الحرفي»».

أومئ برأسي، وتتدفق ضحكة حقيقية كموجة منعشة من الارتياح تملؤني عند إخباري بوجود بو هنا أيضًا.

تقول بارب بعينٍ مراقِبة بينما تغادر: «سأمرُّ لاحقًا لأساعدك في سترتك الهزازة». ألتقط هاتفي وأكتفي بكتابة رسالة نصية بدلًا من اندفاعي بجنون لآخر الممر إلى الغرفة 310.

هل أنت هنا؟ أنا أيضًا، لإجراء فحص.

لا تمضي ثانية حتى تضيء شاشتي بردِّه: ***«التهاب قصبات حدث للتوِّ، سأنجو، عرِّجي عليَّ ولوِّحي إليَّ لاحقًا، سأخلد إلى النوم الآن».***

أسند ظهري إلى السرير وأزفر طويلًا ببطء.

الحقيقة أنني قلقة بشأن هذه الزيارة.

لقد انخفضت وظيفة رئتي إلى 35% بسرعة للغاية. والآن، علاوة على الحمى والتهاب الحلق، فإن كوني هنا في المستشفى إلى الشهر القادم أتلقَّى العلاج واحدًا تلو الآخر لإيقاف الموجة بينما أصدقائي بعيدون عني يشعرني بالذعر كثيرًا. 35%، هذا الرقم يقلق أمي في الليل، هي لا تقول ذلك، لكن حاسوبها يفعل؛ تبحث وتبحث عن عمليات زرع الرئة، والنسب المئوية لوظيفة الرئة، صيغ وتشكيلات جديدة، لكن الفكرة دومًا نفسها، كيف أعطي نفسي وقتًا أطول؟ إنها تجعلني أكثر خوفًا مما كنت عليه من قبل، لكن ليس بالنسبة إليَّ، فعندما تكون مصابًا بالتليف الكيسي تعتاد نوعًا ما على فكرة الموت شابًّا. لا، أنا مرعوبة على والديَّ، وما سيحل بهما إذا حدث الأسوأ، الآن بعد أن خسرا بعضهما.

لكن مع وجود بو هنا، الشخص الذي يفهمني، بإمكاني تخطي هذا، بمجرد أن يُسمح لي بالفعل برؤيته.

مرَّ ما تبقى من فترة ما بعد الظهيرة ببطء، أعملُ على تطبيقي، وأتأكد مرة أخرى من أنني عملت على حلِّ الخطأ البرمجي الذي يظهر لي باستمرار عندما أحاول تشغيل التطبيق على هاتفي، لقد وضعت بعض الفوسيدين على الجلد المتقرح حول أنبوب المعدة في محاولة لإطفاء احمراره، وجعله أقرب إلى اللون الوردي للغروب. أتحقق مرةً أخرى من كومة الزجاجات والعقاقير الخاصة بموعد النوم، وأجيب على رسائل والديَّ كل ساعة على مدار الساعة، أنظر من النافذة بينما تغيب الشمس وأرى شخصين في مثل عمري، يضحكان ويقبِّلان بعضهما بينما يدخلان إلى المستشفى. لا يتسنَّى لك كل يوم رؤية اثنين سعيدين يأتيان إلى المستشفى، أشاهدهما يمسكان بأيدي بعضهما ويتبادلان نظرات الشوق، أتساءل كيف سيبدو عليه الأمر إذا نظر إليَّ أحدهم بهذه الطريقة؟ عادة ما ينظر الناس إلى القنية التي أضعها، إلى ندوبي، إلى أنبوب معدتي، لكن لا ينظرون *إليَّ*.

لا يجعل هذا الرجال يرغبون بالاصطفاف عند خزانتي.

لقد واعدتُ تايلر بول في السنة الأولى في المدرسة الثانوية، لكن ذلك استمر طوال شهر، إلى أن أصبت بعدوى واحتجت إلى دخول المستشفى لعدة أسابيع، وبمجرد مرور عدة أيام، بدأت رسائله تقل وتتباعد شيئًا فشيئًا، وقررت الانفصال عنه. بالإضافة إلى أن الحال لم يكن كهذين الحبيبين في ساحة المستشفى، لقد كانت راحة يد تايلر متعرِّقة عندما نمسك بأيدي بعضنا، وكان يستخدم الكثير من مزيل التعرق، كانت تنتابني نوبات سعال بعد كلِّ عناق بيننا.

لا تعد عملية التفكير هذه وسيلة إلهاء مساعدة تمامًا، لهذا أعطي رقم 22 من قائمة المهام لديَّ «التفكير في الحياة الآخرة» فرصة بقراءة القليل من كتاب «الحياة والموت والخلود: رحلة الروح».

لكنني سرعان ما أختار أن أتمدد على سريري وأنظر إلى السقف، وأستمع إلى صوت أزيز تنفسي.

أتمكن من سماع الهواء يكافح ليجتاز المخاط الذي يملأ رئتي، أتقلب، وأفتح علبة من دواء الفلوفنت ليقدم لرئتيَّ يد العون، أسكب السائل في جهاز

الرذاذ بجانب سريري، فينبض الجهاز الصغير بالحياة بينما يتصاعد البخار من فوَّهته.

أجلس وأحدِّق إلى رسمة الرئتين بينما أستنشق الهواء وأخرجه.

أستنشقه وأخرجه.

وأستنشقه... وأخرجه.

أتمنى أن يكون تنفسي عندما يأتي والداي إلى زيارتي خلال الأيام المقبلة أقل مجهودًا، لقد أخبرت كلَّ واحدٍ منهما على حِدة أن الآخر قد اصطحبني إلى المستشفى هذا الصباح، لكنني حقيقةً قد استقللت سيارة أجرة إلى هنا من زاوية الشارع حيث مكثت أمي مؤخرًا، لا أريد لأحدهما أن يضطر إلى مواجهة رؤيتي هنا مجددًا، على الأقل إلى أن أبدو أفضل.

كانت أمي تنظر إليَّ باضطراب عندما احتجت إلى وضع الأكسجين المحمول لمجرد تعبئته.

يطرق بابي، وأحول نظري عن الحائط الذي أحملق فيه، آملةً أن يكون بو قد جاء ليلوح لي، أخلع جهاز الرذاذ بينما تطل بارب برأسها، تضع قناع الوجه الجراحي والقفازات المطاطية على طاولة بجانب باب غرفتي.

«شخص جديد في الطابق العلوي، سأقابلك بعد 15 دقيقة؟».

يرتعد قلبي.

أومئ برأسي، وتعطيني ابتسامة كبيرة قبل أن تغادر الغرفة، ألتقط جهاز الرذاذ وآخذ دفعة أخرى من الفلوفنت، تاركةً البخار يملأ رئتيَّ على نحو أفضل قبل النهوض والخروج. أطفئ جهاز الرذاذ، وألتقط مكثف الأكسجين المحمول من مكان تعبئته بجانب سريري، أضغط على الزر الدائري في المنتصف لتشغيله، وأسحب الحزام على كتفي، بعد أن أضع القنية، أتجه إلى الباب، وأسحب القفازات المطاطية الزرقاء، وألف خيوط قناع الوجه حول أذنيَّ.

أنزلقُ داخل حذائي الأبيض، أفتح باب غرفتي وأندفع داخل الممر الأبيض، مقررة أن أمشي مسافة طويلة إذ أتمكن من تجاوز غرفة بو.

أمر بقسم الممرضات وسط الطابق وألوِّح لمساعدة ممرضة شابة اسمها سارة، التي تبتسم أكثر من اللازم من داخل المقصورة المعدنية الجديدة الأنيقة.

لقد استبدلوها قبل زيارتي الماضية منذ ستة أشهر، كانت بالارتفاع نفسه، لكنها كانت مصنوعة من ذلك الخشب البالي، وذلك على الأرجح منذ تأسيس المستشفى قبل ستين عامًا، أتذكر عندما كنت صغيرة بما يكفي لأتسلل إلى أيِّ غرفة يكون فيها بو. حين كان رأسي يرتفع عدة سنتيمترات فحسب عن سوية المكتب.

أمَّا الآن فهي تصل حتى مرفقي.

أتجه إلى الممر، وأبتسم عندما أرى علمًا صغيرًا كولومبيًّا مُلصقًا على الجزء الخارجي للباب نصف المفتوح، ولوح تزلج مقلوبًا مستندًا إليه ليبقيه مفتوحًا بعض الشيء.

أحدِّق إلى الداخل لأرى بو مستغرقًا في النوم على سريره، ملتفًّا بشكل غريب ككرة صغيرة تحت لحافه المنقوش، وملصق جوردون رامزي اللطيف متموضع فوق سريره مباشرة يحرسه.

أرسم بقلمٍ قلبًا على لوح التزلج الذي أسنده إلى الباب لإعلامه بأنني كنت هنا، قبل أن أغادر الممر باتجاه البابين الخشبيين لأصل إلى الجزء الرئيسي من المستشفى، وأستقل المصعد لأنزل إلى الجناح C وأعبر الجسر إلى البناء رقم 2، ومباشرةً إلى وحدة العناية المركزة لحديثي الولادة.

إحدى مزايا مجيئي إلى هنا منذ أكثر من عقد أنني بتُّ أعرف المستشفى تمامًا كما أعرف المنزل الذي نشأت فيه. كلُّ ممرٍّ متعرِّجٍ، أو درج خفي، أو اختصار سري، اكتشفته مرة تلو مرة.

لكن قبل أن أتمكن من فتح البابين الخشبيين، يُفتح باب الغرفة بجواري، أدير رأسي في دهشة لأرى صورةَ صبيٍّ نحيلٍ وطويلٍ لم يسبق أن رأيته من قبل، يقف في مدخل الغرفة 315 ممسكًا دفتر رسم في يد وقلم رصاص

فحميٍّ في اليد الأخرى، وسوار المستشفى الأبيض المشابه لسواري يلتف حول معصمه.

أتسمَّر في مكاني.

شعره الأشعث باللون البني الداكن جامحٌ تمامًا، كما لو أنه لُفظَ من مجلة فوج للمراهقين وحطَّ وسط مستشفى سانت جريس. عيناه بلونٍ أزرق عميق، وتتشكل التجاعيد حول عينيه عندما يتكلم.

لكنَّ ما لفت انتباهي أكثر من أي شيء آخر ابتسامته، إنها مُسنَّة وساحرة وفيها دفءٌ جاذبٌ إليها.

إنه جميلٌ جدًّا، لقد شعرت وكأن وظيفة رئتي قد انخفضت 10% أخرى.

من الجيد أن هذا القناع يغطي نصف وجهي، لأنني لم أخطط لمقابلة شباب فاتنين في الطابق ذاته في مدة مكوثي هذه في المستشفى.

يقول وهو يضع القلم بعفوية وراء أذنه: «لقد سجلت جدول مناوباتهم». ألتفت قليلًا إلى اليسار فأراه يبتسم إلى الحبيبين اللذين رأيتهما يدخلان المستشفى في وقت سابق. «حسنًا، ما لم تضغط بمؤخرتك على زر الاستدعاء، لن يزعجك أحدٌ لساعة على الأقل، ولا تنسَ، سيكون عليَّ أن أنام على ذلك السرير يا صاح».

أشاهد الفتاة وهي تفتح محفظة قماشية كانت تحملها لتظهر له الملاءات: «سبقتك بذلك».

انتظر، ماذا؟

يصفِّر الشاب الجميل: «انظر إلى هذا، فتاة كشافة نظامية».

يقول له صديقها: «لسنا حيوانات يا رجل»، ويمنحه ابتسامة كبيرة.

يا إلهي! شيء فظيع! سيسمح لأصدقائه بفعلها في غرفته وكأنه فندق.

أكشِّر وأستأنف مشيي إلى آخر الممر إلى أبواب الخروج، تاركةً مساحة قدر الإمكان بيني وبين ذاك المخطط الذي يُحاك -أيًّا يكن- هناك.

هذا كثير على ذاك الجمال!

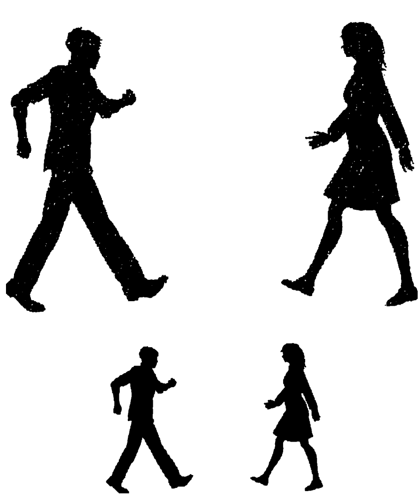

الفصل الثاني

ويل

أقول وأنا أغمز جاسون: «حسنًا، أراكم لاحقًا يا رفاق». وأغلق باب غرفتي لأمنحهما بعض الخصوصية. ألتقي وجهًا لوجه مع التجاويف الفارغة في رسمة الجمجمة على بابي، وقناع أكسجين معلق على الفم، ومكتوب تحته عبارة: «تخلَّ عن كلِّ أملٍ، أنتَ يا مَن تدخل هنا».

ينبغي أن يكون هذا شعار هذا المستشفى، أو أيٍّ من الخمسين الأخرى التي كنت فيها خلال الأشهر الثمانية الماضية من حياتي.

أحوِّل نظري إلى نهاية الممر لأرى الباب يغلق خلف الفتاة التي رأيتها تتجه نحو غرفة في نهاية الممر في وقت سابق من اليوم، ويبدأ حذاؤها الأبيض البالي بالاختفاء في الجهة الأخرى، لقد كانت بمفردها، تحمل حقيبة قماشية كبيرة تكفي لنحو ثلاثة أشخاص راشدين، لكنها في الحقيقة بدت مثيرة نوعًا ما.

ولنكن صادقين، لا ترى كلَّ يومٍ فتاة جذابة من بعيد تتسكع في مستشفى، ولا يفصلها عنك سوى خمسة أبواب.

أنظر إلى دفتر رسوماتي، غير مبالٍ، ألفُّه وأحشره في جيبي الخلفي قبل أن أتجه إلى نهاية الممر وراءها، لا يبدو الأمر كما لو كان لديَّ أيُّ شيءٍ أفضل لأفعله، وبالتأكيد لا أسعى إلى البقاء هنا خلال الساعة القادمة.

أراها تشق طريقها، تندفع عبر الأبواب، على أرضية رمادية من البلاط، تسلم وتحادث الجميع أينما تذهب، كما لو أنها في موكب عيد الشكر الخاص بها، تخطو إلى المصعد الزجاجي الكبير، المطل على الردهة الشرقية، متجاوزة شجرة ميلاد مزينة كبيرة لا بُدَّ أنهم قد وضعوها باكرًا هذا الصباح، قبل وقت طويل حتى من تناول بقايا طعام عيد الشكر.

كأن يتركوا -لا سمح الله- تقديم الديك الرومي العظيم لدقيقة واحدة أخرى حتى.

أراها ترفع يديها لتعدل قناع وجهها بينما تميل لتضغط على الزر، وتغلق الأبواب ببطء.

أصعد السلالم المفتوحة بجوار المصعد، محاولًا ألَّا أصطدم بأيِّ شخصٍ بينما أراه يرتفع بثبات إلى الطابق الخامس. بالطبع، أصعد السلالم بأسرع ما قد تحملني رئتاي، أتمكن من الصعود إلى الطابق الخامس مع وقت كافٍ للدخول في نوبة سعال خطيرة، والتعافي منها قبل خروجها من المصعد، والتخفي في الجوار، أُدلِّك صدري، وأنظف حنجرتي وأتبعها خلال ممرين، وعبر الجسر الواسع المغطى بالزجاج المؤدي إلى البناء المجاور.

على الرغم من أنها قد وصلت لتوِّها إلى هنا هذا الصباح، فإنها تعرف بوضوح إلى أين تذهب. انطلاقًا من وتيرة مشيها وحقيقة أنها تعرف على ما يبدو كلَّ شخصٍ في المبنى، فلن أتفاجأ إن كانت على الحقيقة رئيسة هذا المكان، لقد كنت هنا لمدة أسبوعين، ولقد استغرق مني الوقت حتى البارحة لأعرف كيف أتسلل بأمان من غرفتي إلى المقصف في المبنى 2، ولا أواجه أيَّ تحدٍّ مباشر بأيِّ حال من الأحوال، لقد دخلت العديد من المشافي خلال سنوات، وإن معرفة كيفية التجول فيها يُعدُّ الآن هواية بالنسبة إليَّ.

تقف قليلًا تحت مجموعة من الأبواب المزدوجة لتقرأ: «مدخل شرقي: وحدة العناية المركزة لحديثي الولادة»، وتختلس النظر إلى الداخل قبل أن تدفع الأبواب.

وحدة العناية المركزة لحديثي الولادة.

شيء غريب.

يندرج امتلاك أطفال عند الإصابة بالتليف الكيسي ضمن فئة صعبة للغاية، لقد سمعت عن فتيات مصابات بالتليف الكيسي يتألَّمن من ذلك بشدة، لكن التحديق إلى الأطفال الذين لن تملكهم يومًا هو شيء آخر تمامًا.

إنه محض كآبة لعينة.

هناك الكثير من الأشياء التي تُثير غضبي بشأن التليُّف الكيسي، لكن هذا الأمر ليس أحدها. يعاني جميع الرجال المصابون بالتليف الكيسي تقريبًا العقم، وهو ما يعني على الأقل أنه لن يكون عليَّ أن أقلق حيال جعل أيٍّ فتاةٍ حاملًا وتكوين هذا الهراء المسمى بالعائلة.

يتمنى بيت جاسون الآن لو أن الأمر يسير معه على هذا النحو.

بالنظر في كلا الاتجاهين، أغلق الفجوة بيني وبين الأبواب، أطل عبر النافذة الضيقة لأراها تقف أمام الزجاج، وقد ركزت عينيها على رضيع صغير داخل حاضنة على الجانب الآخر، يتصل بذراعيه وساقيه الهَشَّة آلات بعشرة أضعاف حجمه.

أدفع الباب للدخول وأمر إلى داخل الممر ذي الإضاءة الخافتة، أبتسم بينما أشاهد الفتاة بحذائها ذاك للحظة، لا يسعني سوى التحديق إلى انعكاسها، كلُّ شيءٍ خلف الزجاج يصبح ضبابيًّا بينما أنظر إليها. إنها أجمل عن قرب، برموشها الطويلة وحاجبيها الممتلئين، حتى إنَّها تجعل قناع الوجه يبدو رائعًا، أراها تسحب شعرها البنيَّ المتموِّج بعيدًا عن عينيها، محدِّقةً إلى الرضيع خلال الزجاج بتركيز مصمِّم.

أتنحنح لجذب اهتمامها: «وهنا اعتقدت أنَّ الأمرَ سيكون مستشفىً مُملًّا آخر ملآن بمرضى مملين، ثم ظهرت أنت، كم أنا محظوظ!».

تلتقي عيناها بعينَيَّ على انعكاس الزجاج، تمتلئان بدايةً بالدهشة، ثم تتحولان على الفور إلى شيء يكاد يشبه الاشمئزاز، تنظر بعيدًا، ثم تعود لتنظر إلى الرضيع، ملتزمةً الصمت.

حسنًا، لطالما كان هذا علامة مبشِّرة، لا شيء أفضل من النفور الفعلي للبدء ببداية ناجحة.

«لقد رأيتك تنتقلين إلى غرفتك، هل ستبقين هنا لبعض الوقت؟».

لم تنبس ببنت شفة، لولا تعابير وجهها، لاعتقدت أنها لم تسمعني حتى.

«أوه! لقد فهمت، أنا حسن المظهر لدرجة أنك لا تستطيعين صياغة جملة كاملة».

يزعجها هذا كفايةً لإبداء رد.

تقول ساخرة، وهي تستدير لتواجهني بينما تنزع قناع وجهها بغضب: «ألا يجدر بك أن تشتري الغرف من أجل (ضيوفك)؟».

تأخذني للحظة على حين غرة، وأضحك متفاجئًا من مدى صراحتها.

لقد أغضبها ذلك حقًّا.

تسألني وعيناها الداكنتان تضيقان: «هل تؤجر بالساعة، أم ماذا؟».

- ها! كنتِ أنت المترصدة في الممر.

ترد بسرعة: «لم أترصد، لقد تبعتني إلى هنا».

إنها نقطة وجيهة، لكنها قطعًا مَن ترصَّد أولًا، أتظاهر بالذهول وأرفع يديَّ بهزيمة وهمية: «كنت في نية لتقديم نفسي، لكن بذلك الأسلوب...».

تقاطعني قائلة: «دعني أُخمِّن، تُعد نفسك متمردًا، تتجاهل القوانين لأنها تجعلك بطريقة ما تشعر بالسيطرة، هل أنا مُحقة؟».

أرد قبل أن أميل إلى الجدار بعفوية: «لم تخطئي».

- هل تعتقدين أن ذلك شيء لطيف؟

أبتسم إليها: «أعني، لا بُدَّ أنك ترين الأمر ظريفًا للغاية، لقد وقفت في الممر لوقت طويل جدًّا تحدقين».

تدوِّر عيناها ويتضح أنني لم أستهوِها: «لا تعد إعارة غرفتك لأصدقائك ليمارسوا الجنس فيها شيئًا لطيفًا».

آه، إنها فتاة محافظة للغاية.

«الجنس؟ أوه، بالطبع لا، لقد أخبراني أنهما سيعقدان اجتماعًا صاخبًا قليلًا لنادي القراءة هناك منذ ما يقارب الساعة».

تحملق فيَّ، وبالتأكيد لا تُسَرُّ من سخريتي.

أشبك ذراعي على صدري: «حسنًا، إذن هذا كلُّ ما في الأمر، لديك مشكلة ما مع الجنس؟».

تقول وعيناها تتسعان وهي تخرج الكلمات متعثرة من فمها: «بالطبع لا، لقد مارست الجنس، لا بأس به...».

إنها أكبر كذبة سمعتها طوال العام، وأنا في الواقع محاط بأشخاص يلطِّفون حقيقة أنني أموت.

أضحك: «لا يعد -لا بأس به- بالضبط تأييدًا واضحًا، لكنني سأتخذ أرضية مشتركة عندما أتمكن من العثور عليها».

تعبس بحاجبيها الكثيفين: «ليس لدينا أيُّ شيءٍ مشترك».

أغمز بعيني، وأنا أحظى بالكثير من المرح لجعلها تغضب: «الجو بارد، أحب ذلك».

يُفتح الباب بقوة وتظهر من خلاله بارب، جاعلةً كلينا يقفز من المفاجأة من الضجة المباغِتة: «ويل نيومان! ماذا تفعل هنا؟ ليس من المفترض أن تغادرَ الطابق الثالث بعد الحيلة التي قمت بها الأسبوع الفائت؟».

أعود بنظري للفتاة: «تفضَّلي، اسمٌ يتماشى مع تقييمك النفسي الصغير، وأنت؟».

تنظر إليَّ بسخط، وتعيد بسرعة قناع وجهها على فمها قبل أن تقول: «لا آبه بك».

أحسنت، لدى السيدة المحافظة بعض الشجاعة.

- ومن الواضح أنك تلميذ المعلم المدلل أيضًا.

«ست خطوات في كلِّ الأوقات! كلاكما ملمٌّ القوانين». أدرك أنني قريب جدًّا وأعود خطوة للوراء بينما تصل إلينا بارب وتدخل وسط المسافة والتوتر بيننا، تحول نظرها إليَّ وبينما عيناها تضيقان: «ماذا تظن نفسك فاعلًا هنا؟».

أقول مشيرًا إلى الزجاج: «أشاهد الرُّضَّع؟».

يتضح أنها لم يعجبها قولي: «عد لغرفتك، أين قناع وجهك؟». أرفع يديَّ لألمس وجهي غير المقنع: «ستيلا، شكرًا لك لإبقائك على قناع وجهك».

أتمتم: «لم تكن كذلك قبل خمس ثوانٍ». تحملق ستيلا فيَّ فوق رأس بارب، فأعطيها ابتسامة عريضة.

ستيلا.

اسمها ستيلا.

بإمكاني رؤية بارب توشك أن تطردني خارجًا بالفعل، لذلك أقرر أن أخرج بنفسي، لقد سمعت أكثر من محاضرة كافية خلال دقيقة.

أقول وأنا أمشي على مهل إلى الباب: «هوِّني على نفسك ستيلا، إنها حياة فانية، ستنقضي قبل أن ندرك ذلك».

أخرج عبر الأبواب، قاطعًا الجسر أسفل الجناح C، بدلًا من العودة من الطريق الطويل، أقفز مترنِّحًا إلى مصعد غير مغطى بالزجاج، اكتشفته قبل يومين، يرميني مباشرة إلى جانب قسم الممرضات على طابقي، حيث كانت جولي تطَّلِع على بعض الأوراق.

أقول وأنا أميل لألتقط قلم رصاص من على الطاولة: «مرحبًا جولي».

ترفع نظرها إليَّ، وتلمحني سريعًا، قبل أن تعود بنظرها للأوراق في يدها: «ما الذي كنت تفعله؟».

أقول مستهجنًا بينما أدوِّر القلم بين أطراف أصابعي مرارًا وتكرارًا: «إيه، أتجول في المستشفى، أغضب بارب، يا لها من صارمة».

- ويل، إنها ليست صارمة، إنها فحسب، كما تعلم...

أرمقها بنظرة: «صارمة».

تستند إلى قسم الممرضات وتضع إحدى يديها على بطنها الحامل الكبير وتقول: «بالتأكيد، القوانين مهمة، خصوصًا بالنسبة إلى بارب، إنها لا تجازف».

أنظر لأرى الأبواب في نهاية الممر تفتح مرة أخرى لتخرج منها بارب والفتاة المحافظة ذاتها.

تضيق بارب عينيها في وجهي وأهز كتفيَّ ببراءة: «ماذا؟ أتحدث مع جولي».

تنفث بارب، وتمشي كلتاهما إلى نهاية الممر باتجاه غرفة ستيلا، تعدل ستيلا قناع وجهها، وتنظر إليَّ من الخلف، وتلتقي عيناي بعينيها لجزء من الثانية.

أتنهد وأنا أراها تذهب.

- إنها تكرهني.

تسأل جولي بينما تتبع نظراتي إلى نهاية الممر: «أيُّهما؟».

يغلق باب غرفة ستيلا خلفهما، وأنظر إلى الوراء إلى جولي.

تنظر إليَّ بنظرة رأيتها ملايين المرات منذ أن وصلت إلى هنا، تمتلئ عيناها الزرقاوان بمزيج من «هل أنت مجنون؟» وشيء آخر أقرب إلى الاهتمام، رغم أنها غالبًا ما تكون «هل أنت مجنون؟».

- لا تفكر حتى في ذلك يا ويل.

ألقي نظرة على الملف أمامها، فيلفت انتباهي الاسم على الزاوية العلوية اليسرى.

ستيلا جرانت.

أقول كما لو أنه ليس بالأمر المهم: «حسنًا.. ليلة سعيدة».

أمشي عائدًا للغرفة 315، أسعل بينما أصل إلى هناك، وقد تجمع المخاط في رئتيَّ وحنجرتي، وصدري يؤلمني جراء جولتي، لو كنت أعلم أنني سأركض نصف ماراثون في جميع أنحاء المستشفى، كنت أزعجت نفسي بجلب أكسجيني المحمول.

إيه، مَن أمازح أنا؟

أتفقد ساعتي لأتأكد من انقضاء ساعة قبل أن أفتح الباب، أشغل الضوء، أنتبه إلى ملاحظة مطوية من هوب وجاسون على ملاءات المستشفى البيضاء القياسية.

كم هما رومانسيان!

أحاول ألا أكون مستاءً فقد غادرا بالفعل، لقد أخرجتني أمي من المدرسة وحولتني إلى التعليم المنزلي إلى جانب السياحة العلاجية الدولية عندما جرى تشخيصي ببكتيريا البيركهولدرية البصلية منذ ثمانية أشهر، كما لو أن مدة حياتي لن تكون بالفعل قصيرة على نحو ساخر، فإن بكتيريا البيركهولدرية البصلية سوف تقتطع جزءًا كبيرًا آخر منها بجعل وظيفة رئتي الرديئة تُستنزف أسرع حتى مما هي عليه. ولن يعطوك رئتين جديدتين في حال كانت لديك بكتيريا مقاومة للمضادات الحيوية تتفشى داخلك.

لكنَّ «عدم قابلية العلاج» لا تمثل لأمي سوى رأي، وهي مصممة على إيجاد العلاج كإبرة في كومة قش، حتى لو استلزم الأمر عزلي عن الجميع.

على الأقل هذا المستشفى يبعد نحو نصف ساعة عن هوب وجاسون، لذلك يستطيعان زيارتي على نحو منتظم، ويطلعانني على كلِّ شيءٍ أفتقده في المدرسة. منذ أن أصبت ببكتيريا البيركهولدرية البصلية، شعرت كما لو أنهما الوحيدان في حياتي اللذان لا يعالجانني كفأر تجارب. لطالما كانا على هذا النحو؛ قد يكون هذا سبب كونهما ملائمين تمامًا لبعضهما.

أفتح الملاحظة لأرى قلبًا وبخط هوب الأنيق «نراك قريبًا! أسبوعان حتى بلوغك الثامنة عشرة، هوب وجاسون».

يجعلني هذا أبتسم.

«بلوغي الثامنة عشرة». أسبوعان آخران حتى أصبح مسؤولًا، سوف أغادر هذه التجربة السريرية الدوائية الأخيرة، وأخرج من هذا المستشفى وأتمكن من فعل شيء في حياتي، بدلًا من ترك أمي تُضيِّعُها.

لا مزيد من المستشفيات، لا مزيد من كوني عالقًا داخل الأبنية البيضاء في جميع أنحاء العالم حيث يجرب الأطباء دواءً عقب دواء، وعلاجًا عقب علاج، ولا يجدي أيٌّ منها نفعًا.

إذا كنت سأموت، فأودُّ أن أعيش حقًّا أولًا، وبعدها سوف أموت.

أحدِّق إلى القلب، وأفكر في اليوم المشؤوم الماضي، مكان ما شاعريٌّ، قد يكون شاطئًا، أو قاربًا في مكان ما في الميسيسبي، حيث لا جدران، حيث بإمكاني رسم المنظر الطبيعي، أو رسم آخر كاريكاتير لي، ثم من بعدها أرحل.

أرمي الملاحظة على السرير مجددًا، أعاين الملاءات قبل أن أعطيها نفحة سريعة، لأكون بأمان. النشاء والمُبيِّض، ماء الكولونيا المعتاد للمستشفى. جيد.

أنزلق على كرسي المستشفى الجلديِّ الذي يصرصر إلى جانب النافذة وأدفع كومة من أقلام التلوين ودفاتر الرسم، وألتقط حاسوبي المحمول من تحت مجموعة من النسخ المطبوعة لرسوم كاريكاتورية سياسية تعود لأربعينيات القرن الماضي كنت قد اطلعت عليها سابقًا كمرجع.

أفتح متصفحي وأكتب «ستيلا جرانت» على جوجل، لا أتوقع الكثير، يبدو أنها من النوع الذي لديه فقط أكثر حسابات الفيسبوك خصوصية، أو حساب تويتر ممل حيث تعيد نشر صور ساخرة حول أهمية غسل الأيدي.

على الرغم من ذلك، كانت النتيجة الأولى صفحة يوتيوب تسمى «ستيلا جرانت، مذكرات مصاب بالتليف الكيسي - ليست سرية للغاية»، مملوءة على الأقل بمئة فيديو تعود لست سنوات أو نحو ذلك. أطيل النظر فيها، لأن اسم الصفحة يبدو مألوفًا إلى حد غريب. يا إلهي! إنها تلك القناة المملة التي

أرسلت أمي إليَّ رابطها من عدة شهور في محاولة لحثي على أخذ علاجي على محمل الجد.

لو كنت أعلم أنها تبدو هكذا...

أمرر إلى الأسفل، إلى المشاركة الأولى.. أضغط على فيديو مع صورة مصغرة لستيلا الصغيرة تضع تقويمًا من المعدن مع ذيل حصان مرتفع، أحاول ألَّا أضحك، أتساءل كيف تبدو أسنانها الآن، مع الأخذ بعين الاعتبار أنني لم أرَ ابتسامتها قطُّ.

على الأرجح هي جميلة جدًّا، إنها تبدو من النوع الذي يرغب فعليًّا في وضع مثبت التقويم في الليل بدلًا من تركه يجمِّع الغبار على رفِّ الحمام.

لا أعتقد أن المثبت الخاص بي قد وصل حتى إلى المنزل من عند طبيب التقويم.

أضغط زر الصوت ويبدأ صوتها يتدفق إلى سماعاتي.

- مثل جميع المصابين بالتليُّف الكيسي، ولدت مصابة بهذا المرض، تنتج أجسامنا الكثير من المخاط، وذاك المخاط يدخل إلى الرئتين ويسبب الالتهابات، جاعلًا وظيفة الرئة تتدهور.

تتعثر الفتاة الصغيرة أمام الكلمة الكبيرة قبل أن تلتقط الكاميرا ابتسامة كبيرة: «في الوقت الحالي، تعمل رئتاي بـ 50% من وظيفتها».

لديها قصة شعر حمقاء، وتدور حول نفسها على مجموعة من السلالم أدرك أنها عند المدخل الرئيس للمستشفى.

لا عجب أنها تعرف طريقها جيدًا في هذه الأنحاء، كانت تأتي إلى هنا بشكل دائم.

أبتسم إلى الفتاة الصغيرة، على الرغم من أن قصة شعرها تلك كانت أتفه شيء سبق أن رأيته، أجلس على الدرجات، وآخذ نفسًا عميقًا. «لقد قالت الطبيبة حاميد، إنني بهذا المعدل، سوف أحتاج إلى عملية زرع بحلول الوقت

الذي أدخل فيه المدرسة الثانوية، زرع الرئة ليس علاجًا، لكنه سيمنحني وقتًا أطول، أتمنى المزيد من السنوات إذا كنت محظوظة بالحصول على واحدة».

أتخبرينني عن ذلك ستيلا.

على الأقل لديها فرصة.

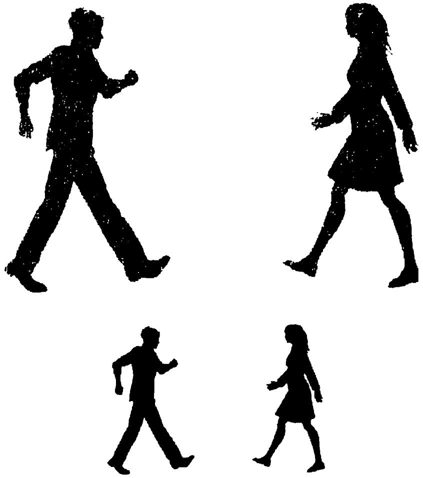

الفصل الثالث

ستيلا

أسحب سترتي الهزازة الزرقاء، وألفها في مكانها حول صدري بمساعدة بارب، إنها تبدو كشيءٍ فظيع؛ كسترة النجاة، باستثناء جهاز التحكم عن بُعد الخارج منها.

في أسرع اللحظات أجعلها تبدو سترة نجاة، وأحدِّق خارج النافذة، متخيلة نفسي في كابو على متن قارب مع ميا وكاميليا، وشمس الظهيرة تتوهج في الأفق.

تغريد طيور النورس، والشاطئ الذهبي البعيد، وراكبو الأمواج عراة الصدر... وبعد ذلك -رغمًا عني- أُفكِّر في ويل. وبغمضة عين، تتلاشى كابو بينما تتأرجح الأشجار القاحلة خارج النافذة في الأُفُق.

أسأل على الرغم من أن ذلك كان جليًّا: «حسنًا، بالنسبة إلى ويل، هل هو مصاب بالتليف الكيسي، إذن؟».

تساعدني بارب على شبك الحزام الأخير في مكانه، أسحب كتف السترة لكي لا تحتكَّ بعظام الترقوة لديَّ.

تقول وهي تمد يدها لتشغل الآلة وهي تنظر إليَّ: «مصاب بالتليف الكيسي، ثم أُصيب ببكتيريا البيركهولدرية البصلية؛ وهو جزء من العلاج التجريبي لمنظومة الفوفلوكساسين».

تتسع عيناي وأنظر إلى المغطس الكبير لديَّ لمطهر اليدين، كنت بذاك القرب منه وهو مصاب بالبيركهولدرية البصلية؟ إنه حكم بالإعدام تقريبًا بالنسبة إلى الأشخاص المصابين بالتليف الكيسي، سيكون محظوظًا لو صمد بضعة أعوام أخرى.

وذلك في حال كان حريصًا على نظامه العلاجي مثلي.

تبدأ السترة بالاهتزاز، شيء شاقٌّ، أستطيع أن أشعر بالمخاط في رئتي يتحلل ببطء.

تضيف وهي تنظر إليَّ: «أنت متعاقدة على ذلك، ويمكن أن تضيعي احتمالية زرع رئتين جديدتين، ابقي بعيدة».

أومئ برأسي، أوه! أتوق إلى القيام بذلك، أحتاج إلى المزيد من الوقت، بالإضافة إلى أنه كان شديد الاعتداد بنفسه ليبدو منتميًا لنوعي المفضل. أقول وأنا أنظر إلى بارب وأرفع يدي لإنهاء المحادثة بينما أسعل كتلة من المخاط: «التجربة...».

تومئ بالموافقة وهي تعطيني سلة السرير القياسية باللون الوردي الشاحب، أبصق داخلها وأمسح فمي قبل أن أتكلم.

«ما هي الاحتمالات بشأنه؟».

تزفر بارب، وتهز رأسها قبل أن تنظر إليَّ: «لا أحد يعرف، الدواء حديثٌ جدًّا».

رغم أن نظرتها تقول كلَّ شيء، يسود الصمت باستثناء صوت الآلة، واهتزاز السترة.

- أنت جاهزة، هل تحتاجين إلى شيء قبل أن أذهب؟

أبتسم إليها، وأطالعها بنظرة تَوَسُّل: «مخفوق الحليب؟».

تحرك عينيها وتضع يدها على خصرها: «ماذا؟ هل أنا من خدمة الغرف الآن؟».

أقول ما جعلها تضحك: «عليَّ أن أستغلَ ميزة إقامتي هنا بارب».

تغادر، فأجلس مسترخية، تجعل السترة الهزازة جسدي بكامله يهتز بينما تعمل، يشرد ذهني، وأتصور انعكاس ويل على زجاج وحدة العناية المركزة لحديثي الولادة، يقف خلفي مباشرة وترتسم على وجهه ابتسامة جريئة.

البيركهولدرية البصلية، هذا قاسٍ!

لكنه يتجول في المستشفى دون وضع قناع وجه، لا عجب مما حدث له أصلًا، وهو يتصرف على هذا النحو. لقد رأيت هذا النموذج في المستشفى مرات لا تحصى، اللا مبالاة، من نمط القلب الشجاع، الذي يتمرد في محاولة مستميتة لتحدي مرضه قبل أن يؤول كلُّ شيء إلى النهاية، ليس شيئًا جديدًا حتى.

تقول بارب وهي تحضر لي كوبين لا كوبًا واحدًا من مخفوق الحليب، وكأنها الملكة: «حسنًا، من شأن هذا أن يساعدك بعض الشيء».

تضعهما على الطاولة إلى جانبي، وأبتسم إلى عينيها البنيَّتين الداكنتين المعهودتين: «شكرًا لك بارب».

تومئ برأسها، وتلمس رأسي بلطف قبل أن تتجه إلى الباب: «ليلة سعيدة حبيبتي، أراكِ في الغد».

أجلس، وأحدِّق خارج النافذة وألفظ المزيد والمزيد من المخاط بينما تؤدي السترة عملها في تنظيف المجاري الهوائية لديَّ. ترحل عيناي إلى رسمة الرئتين والصورة المعلقة إلى جانبها، يبدأ صدري يؤلمني بطريقة لا علاقة لها بالعلاج بينما أفكر في فراشي الحقيقي، والديَّ، آبي، ألتقط هاتفي لأرى رسالة نصية من والدي، إنها صورة لجيتاره الصوتي القديم، يستند إلى طاولة بالية في شقته الجديدة، لقد قضى اليوم بأكمله في تجهيزها بعد أن أكدت عليه فعل ذلك بدلًا من أخذي إلى المستشفى، إنه يتظاهر بعدم الراحة، تمامًا كما تظاهرتُ بأن أمي قد أخذتني حتى لا يشعر بالذنب.

لقد كان هناك الكثير من التظاهر في كلِّ الأوقات منذ ذلك الطلاق السخيف.

لقد مرت ستة أشهر، ولا يزالان عاجزين حتى عن النظر إلى بعضهما.

لسبب ما يجعلني أرغب في سماع صوته بشدة، أنقر على معلومات جهة الاتصال، وأكاد أضغط على زر المكالمة الأخضر على هاتفي، لكنني أقرِّر ألَّا أفعل في الثانية الأخيرة، لن أتصل به أبدًا في اليوم الأول، ومع كلِّ السعال الذي تسببه سترتي الهزازة، قد يجعله قلقًا، لا يزال يرسل إليَّ كلَّ ساعة للاطمئنان.

لا أريد أن أُقْلِقَ والديَّ، لا أستطيع.

من الأفضل الانتظار حتى الصباح.

أفتح عينيَّ في الصباح التالي وأنا أبحث عمَّا أيقظني، لأرى هاتفي يهتز بصخب على الأرض، وقد سقط من على الطاولة. أحدِّق إلى أكواب مخفوق الحليب الفارغة، وإلى كومة من أكواب بودينغ الشوكولا الخالية التي تشغل فعليًّا كامل المساحة، لا عجب أن يسقط الهاتف.

إذا كانت 60% من أجسامنا ماء، تكاد تكون الـ 40% المتبقية من جسمي بودينغ.

أتمطى، وأمد يديَّ وأنا على السرير لألتقط هاتفي، ويكاد أنبوب معدتي يشتعل من المطِّ، ألمس برفق جانبي، وأرفع قميصي لأفصل الأنبوب، أتفاجأ أن الجلدَ حول الأنبوب أكثر احمرارًا والتهابًا مما كان من قبل.

هذا ليس جيدًا، تزول التهيجات عادةً مع القليل من الفوسيدين، لكن استعماله البارحة لا يبدو أنه قد أحدث فرقًا.

أضع قطرة أكبر من المرهم على الجلد، على أمل أن ينظِّفه، وأضيف ملاحظة إلى قائمة مهامي لمراقبة ذلك، قبل أن أدرجها ضمن إشعاراتي. أتلقى صورتين أنتظرهما من ميا وكاميليا، تبدوان نَعستيْن لكنهما سعيدتان وهما تصعدان إلى الطائرة هذا الصباح، كلا والديَّ أرسل إليَّ، يطمئن على حال نومي، إذا كنت قد استقررت، ويطلب أن أُكَلمه عندما أستيقظ.

أوشك على الرد على كليهما عندما يهتز هاتفي، أسحب إلى اليمين لأرى رسالة من بو: «هل أنت مستيقظة؟».

أرد برسالة سريعة لأرى إذا كان يريد أن نتناول فطورنا في الموعد المعتاد حتى بعد عشرين عامًا، قبل أن أضع الهاتف وأُدلِّيَ ساقيَّ من على سريري لألتقط حاسوبي المحمول.

بعد أقل من ثانية يرن هاتفي مع ردِّه: «موافق!».

أبتسم، وأضغط على زر استدعاء الممرضة بجوار سريري، يأتي صوت جولي اللطيف من المكبر: «صباح الخير ستيلا! هل أنتِ بخير؟».

«نعم»، وأسألها بينما أشغل حاسوبي: «هل يمكنني الحصول على الفطور الآن؟».

- لكِ هذا.

يشير الوقت على حاسوبي إلى 9:00 صباحًا، أسحب عربة الأدوية قريبًا، وأنظر إلى المجموعات المرمزة بالألوان التي حددتها البارحة.

أبتسم في نفسي، غدًا في مثل هذا الوقت، بعد أن أحصلَ على الإصدار التجريبي لتطبيقي الكامل والجاهز للتشغيل، سأتلقى إشعارًا على هاتفي المحمول يخبرني بتناول حبوب الصباح بالجرعات الدقيقة التي أحتاج إلى كلٍّ منها.

ما يقارب عامًا من العمل الشاق يؤتي ثماره أخيرًا، تطبيق لجميع الأمراض المزمنة، مزود بالمخططات الطبية، والجداول الزمنية، ومعلومات الجرعات.

أتناول حبوبي وأفتح السكايب، أتصفح قائمة جهات الاتصال لأرى إن كان أيٌّ من والديَّ متصلًا بالإنترنت، هناك نقطة خضراء صغيرة إلى جانب اسم والدي، أضغط على زر الاتصال، أنتظر بينما يرن بصخب.

يظهر وجهه على الشاشة وهو يضع نظارته ذات الإطار الثخين على عينيه المتعبتين، ألاحظ أنه ما زال بالبيجاما، وشعره الرمادي يبرز في كلِّ اتجاه،

ووسادة متكتِّلة تستند خلفه. لطالما كان والدي ممن يستيقظون باكرًا، يغادر السرير قبل السابعة والنصف كلَّ صباح، حتى في أيام العطلات.

يبدأ القلق يلتفُّ حول نفسه ببطء وعلى نحو أشدّ في دواخلي.

أقول وقد غطَّت لحيته غير المعتادة ذقنه: «تحتاج إلى حلاقة». لطالما كان والدي حليقَ الذقن، باستثناء مروره بمرحلة واحدة باللحية في أحد فصول الشتاء في أثناء المدرسة الابتدائية.

يبتسم وهو يفرك ذقنه الكث: «تحتاجين إلى رئتين جديدتين».

أدوِّر عينيَّ: «كيف كان الحفل؟».

يهز كتفيه: «أووه، أنت تعلمين».

أقول بابتهاج، وأحاول بقدر ما أستطيع أن أبدو إيجابية بالنسبة إليه: «أنا فخورة لكونك تؤدي مجددًا».

يسألني وهو يرمقني بنظرة قلقة: «ما أخبار التهاب الحلق؟».

أومئ برأسي، وأبتلع ريقي لأتأكد أن الخشونة في حلقي قد بدأت تهدأ: «بالفعل، أفضل بمليون مرة». يملأ التصديق عينيه، بينما أغيِّر أنا الحديث سريعًا قبل أن يتمكَّن من طرح أيِّ أسئلة إضافية تتعلق بالعلاج: «ما حالُ شقتك الجديدة؟».

يعطيني ابتسامة مبالغة: «إنها رائعة! إنها تحوي غرفة نوم وحمامًا». تخبو ابتسامته قليلًا، ويهز كتفيه: «ولا شيء آخر، أنا على يقين أن سكن أمك أجمل، بإمكانها دائمًا جعل أيِّ مكان يبدو كالمنزل».

- ربما فقط لو كلمتها...

يهز رأسه ويقاطعني: «تجاوزي الأمر، جديًّا، إنه جيد عزيزتي، المكان رائع، وبحوزتي أنتِ وجيتاري، ما الذي قد أحتاج إليه أيضًا؟».

تنقبض معدتي، لكن هناك طَرْقًا على بابي، تدخل جولي تحمل صينية خضراء داكنة عليها كومة من الطعام.

يراها والدي ويبتهج: «جولي! ما أخبارك؟».

تنزل جولي الصينية وتُظهر بطنها له، بالنسبة إلى شخص أصرَّ على ألَّا ينجب أطفالًا لخمس سنوات مضت، فإنها تبدو مبتهجة بشكل ساخر لكونها ستنجب طفلًا.

يقول والدي بابتسامة عريضة: «مشغولة جدًّا، أرى ذلك».

أقول وأنا أسحب المؤشر لإنهاء المكالمة: «أتحدث إليك لاحقًا بابا، أحبك».

يلوح لي بالوداع قبل إنهاء المكالمة، تفوح رائحة البيض واللحم المقدد من الطبق، وإلى جانبه على الصينية كوب عملاق من مخفوق الحليب بالشوكولا.

- هل تحتاجين إلى أيِّ شيء آخر ستيل؟ بعض المشاركة؟

أحدِّق إلى بطنها المنتفخ، وأهز رأسي بينما تملأ صدري موجة عارمة من الازدراء، أحب جولي، لكنني حقًّا لست بحالة مزاجية للحديث عن عائلتها الصغيرة الجديدة بينما تنهار عائلتي: «بو على وشك الاتصال بي».

تمامًا في الموعد، يرن حاسوبي المحمول وتنبثق صورة بو، ويظهر رمز الهاتف الأخضر على شاشتي. تفرك جولي بطنها، وتلقي عليَّ نظرة غريبة قبل أن تعطيني ابتسامة مرتبكة متحفظة: «حسنًا، فليقضِ كلاكما وقتًا ممتعًا».

أضغط على زر القبول ليظهر وجه بو شيئًا فشيئًا، حاجباه الكثيفان اللذان يخيِّمان على عينين بُنيتين دافئتين مألوفتين. لقد قصَّ شعره منذ آخر مرة رأيته فيها.. على نحو أقصر وأنظف، يعطيني ابتسامة حتى أذنيه، أحاول أن أردها بابتسامة، لكن ينتهي بها الأمر لتبدو أشبه بتكشيرة.

لا تغادر صورة أبي ذهني، حزين جدًّا ووحيد على سريره، وما تزال خطوط وجهه عميقة ومملوءة بالإرهاق.

ولا يمكنني حتى أن أذهب وأطمئن عليه.

يقول وهو يضع كوبَ مخفوق الحليب ويحدق إليَّ: «هيه، مامي! تبدين متأنقة، هل ستذهبين إلى مقابلة أحدهم؟».

أعرف أنه من المفترض أن أضحك هنا، لكن يبدو أنني استنفدت حصتي من التظاهر لليوم، ولم تتجاوز حتى التاسعة والنصف بعد.

يعبس بو: «أوه! ما الخطب؟ هل هي كابو؟ أنت تعرفين أن ضربة الشمس لا يُعبث بأمرها على أيٍّ حال».

ألوح بذلك بعيدًا وأرفع صينيتي كبرنامج مسابقات لأري بو فطوري الكبير، بيض، لحم مقدد، بطاطا، ومخفوق الحليب، الفطور المعتاد لمواعيد فطورنا.

يرمقني بو بنظرة تحدٍّ، كما لو أنني لن أفلتَ بتغيير الموضوع ذاك، لكنه لا يقاوم أن يرفع طبقه ليريني وجبته المطابقة -عدا أن البيض على طبقه منمق بشكل جميل مع الثوم المعمر والبقدونس و.... لحظة.

الكمأ اللعين!

- بو! من أين حصلت على الكمأ بحقِّ الجحيم؟

يرفع حاجبيه مبتسمًا: «عليك أن تجلبيه معك يا ابنتي». يقول ذلك وهو يحرك كاميرا الويب ليريني عربة الأدوية التي حوَّلها إلى رف توابل مرتب بشكل مثالي، إنها مملوءة بالبرطمانات وأوعية البهارات بدلًا من علب الدواء، يجلس وفوقه المتزلج المفضل لديه، بول رودريغيز، والمنتخب الكولومبي لكرة القدم بأكمله. هذا هو بو، الطعام، والتزلج، وكرة القدم ما تزال حتى الآن الأشياء الثلاثة المفضلة لديه.

لديه من القمصان المعلقة على الحائط ما يكفي لباسًا كاملًا لكلِّ مريض بالتليف الكيسي على هذا الطابق ليكون ضمن الفريق-B ضعيف القلب والأوعية الدموية وسيِّئ اللعب.

تتأرجح الكاميرا لتعود له، وأرى صدر غوردون رامزي يطل من خلفه، يرفع حفنة من أقراص كريون: «لكن أولًا، فاتح الشهية»، والتي ستساعد أجسامنا على هضم الطعام الذي نوشك أن نتناوله.

أقول باستهزاء وأنا أخرج أقراصي الحمراء والبيضاء من كوب بلاستيكي صغير إلى جانب صينيتي: «الجزء الأفضل من كلِّ وجبة».

يضحك بو في منتصف رشفته من مخفوق الحليب، لكنه يبصقها ويبدأ بالاختناق، تبدأ أجهزة المراقبة الحيوية لديه بالصفير على الجانب الآخر على الحاسوب المحمول وهو يكافح ليتنفس.

يا إلهي! لا، لا، لا. أقفز من مكاني «بو!».

أدفع الحاسوب المحمول جانبًا، وأركض خلال الممر بينما يصدر صوت الإنذار في قسم الممرضات، والخوف يملأ كلَّ مسام جسدي، يصيح صوت من مكان ما «الغرفة 310! أكسجين الدم في هبوط، إنه يتعرض لنقص إشباع الأكسجين».

نقص إشباع، لا يستطيع التنفس، لا يستطيع التنفس، أصرخ والدموع تملأ عينيَّ وأنا أطير إلى آخر الممر خلف جولي: «إنه يختنق! بو يختنق!» وأنا أضع قناع وجه بينما أذهب، تندفع من خلال الباب وتسبقني لتتفقد شاشة مراقبة المريض، أخشى أن أنظر، أخشى أن أرى بو يعاني، أخشى أن أرى بو...

بخير.

إنه بخير، يجلس على كرسيه وكأنَّ شيئًا لم يحدث.

يفيض الارتياح مني وأنا أتصبب عرقًا باردًا بينما ينقِّل نظره بيني وبين جولي، يرتسم على وجهه تعبيرٌ خجل وهو يرفع جهاز استشعار إصبعه: «آسف! لم يكن موصولًا، لم ألصقه مرة أخرى بعد استحمامي».

أتنهد ببطء، وأدرك أنني كنت أحبس أنفاسي لكلِّ هذا الوقت، وهو ما يعد صعبًا جدًّا عندما تملك رئتين بالكاد تعملان.

تستند جولي إلى الجدار، وتبدو مذهولة تمامًا مثلي، تهز رأسها: «بو، يا إلهي! عندما تكون قطرات الأكسجين هكذا... فقط أَعِد وضعه مرة أخرى».

يقول وهو ينظر إليها: «لم أَعُدْ أحتاج إليها بعد الآن يا جولي، دعيني أنزعها».

تأخذ نفسًا عميقًا، وتخرج قطعة من اللاصق لتتمكن من إعادة لصق جهاز الاستشعار: «بالتأكيد لا، فوظيفة رئتيك الآن رديئة، علينا أن نبقيك تحت المراقبة، لذا تحتاج إلى إبقاء هذا الشيء اللعين موصولًا. رجاءً».

يتنهد بصوت عالٍ لكنه يعيد تعليق جهاز استشعار الإصبع بجهاز استشعار أكسجين الدم المحيط بمعصمه.

أومئ برأسي، وألتقط أنفاسي أخيرًا: «أتفق مع ذلك بو، أبقه موصولًا».

يحدق إليَّ بينما يلصق المستشعر على إصبعه، ويرفعه نحو ناظريَّ ويبتسم.

أدوِّر عينيَّ، وألقي نظرة خاطفة على الممر إلى غرفة الوغد: 315. الباب محكم الإغلاق باستثناء وجود ضجة، وضوء يشع من تحت الباب، إنه لم يُطِل برأسه حتى ليتأكد من أن الجميع على ما يرام.

لقد كان فعليًّا نداء في جميع أنحاء الطابق، إذ فتح كلُّ شخص بابه ليتحقق أن الجميع بخير، أتململ وأملِّس شعري إلى الأسفل وأنظر إلى الخلف إلى بو في الوقت الذي أراه يرفع لي حاجبيه.

- ماذا؟ هل تحاولين أن تظهري جميلة من أجل أحدهم؟

أحملق في وجهه ووجه جولي بينما يرسلان نظرات فضول نحوي: «لا تكن سخيفًا». أشير إلى طعامه، وأقول قبل أن أسرع عبر الممر لإنهاء دردشة الفطور خاصتنا: «أنت على وشك أن تهدر بعض الكمأ المثالي جدًّا على بيض بارد». كلما كانت المسافة بيني وبين الغرفة 315 أكبر كان أفضل.

الفصل الرابع

ويل

أفرك عينيَّ نعِسًا، وأضغط على فيديو آخر، وإلى جانبي على الطاولة صينيتي من البيض واللحم المقدد باردة وقد أكلت نصفها، لقد بقيت يقظًا طوال الليل أشاهد فيديوهاتها، واحدًا تلو الآخر، لقد غدا ماراثون ستيلا جرانت، حتى مع المحتوى الممل الخاص بمرض التليف الكيسي.

أمسح الشريط الجانبي، وأنقر على الشريط التالي.

هذا من السنة الماضية، الإضاءة خافتة بشكل يبعث على السخرية، عدا الفلاش الساطع لكاميرا هاتفها، يبدو حدثًا لجمع التبرعات، يقام في بارٍ خافت الأضواء، هناك لافتة كبيرة تتدلى على المسرح مكتوب عليها: «أنقذوا الكوكب: ادعم يوم الأرض».

تركز الكاميرا على رجل يعزف على جيتار صوتي، ويجلس بعفوية على مقعد خشبي، بينما تغني إلى جانبه فتاة بشعر بنيٍّ مجعدٍ، تعرفتُ على كليهما من جميع الفيديوهات التي قد رأيتها.

إنهما والد ستيلا وشقيقتها آبي.

يدور المشهد باتجاه ستيلا، تعلو وجهها ابتسامة كبيرة، أسنانها بيضاء حتى كما توقعت، تضع المكياج، أسعل مندهشًا كم تبدو مختلفة! ليس المكياج على أيٍّ حال، إنها تبدو أكثر سعادة، وأكثر هدوءًا، ليس كما تبدو شخصيًّا، حتى قنية الأنف تبدو جيدة عليها عندما تبتسم هكذا.

تقول: «والدي وآبي يخطفان الأضواء، إذا مِتُّ قبل أن أبلغَ الواحدة والعشرين، فعلى الأقل قد دخلت حانة».

تؤرجح الكاميرا لتظهر امرأة أكبر سنًّا بشعر بني مجعد مشابه تجلس إلى جانبها على طاولة حمراء زاهية: «قولي مرحبا، ماما!».

تلوّح المرأة، وتعطي الكاميرا ابتسامة عريضة.

تمر نادلة بجانب طاولتهما فتلوح لها ستيلا: «آه نعم، سوف آخذ شرابًا رجاءً، جميل».

أضحك بينما تصرخ والدتها بصوتها: «لا، لا تريد».

أقول وأنا أضحك بينما يظهر ضوء ساطع ليضيء وجهيهما: «آه، محاولة جيدة ستيلا».

تنتهي الأغنية في الخلفية، وتبدأ ستيلا في التصفيق بطريقة جنونية، وتدير الكاميرا لتظهر شقيقتها، آبي، تبتسم لها من على المسرح.

تقول وهي تشير مباشرة إلى ستيلا: «إذن، أختي الصغيرة، ستيلا، هنا الليلة، كما لو أن كفاحها من أجل حياتها لا يكفي، ستنقذ الكوكب أيضًا، تعالوا لنرَ ما لديها، ستيلا».

ينبعث صوت ستيلا من خلال سماعاتي، مرتبكة ومذهولة: «آه، هل خططتم لهذا يا رفاق؟».

تتأرجح الكاميرا لتتجه لوالدتها، التي تبتسم، نعم، تقول والدتها: «امضي قُدُمًا حبيبتي، سوف أصوِّر ذلك»، ويتأرجح كلُّ شيء من دون تركيز بينما تناولها ستيلا الهاتف.

يحيِّيها كلُّ مَن في القاعة، بينما تسحب مكثِّف الأكسجين المحمول خاصتها إلى المنصة، وأختها آبي تساعدها في اعتلاء الدرجات والوصول إلى الأضواء، تعدِّل قُنيَّتها بقلق بينما يناولها والدها الميكروفون، قبل أن تستدير إلى الجمهور وتتحدث: «إنها المرة الأولى لي، أن أكون أمام جمهور، على أيِّ حال، لا تضحكوا».

لذا، بالطبع، يضحك الجميع، بمن فيهم ستيلا، غير أن ضحكتها تكون ملأى بالتوتر.

تنظر إلى أختها بقلق، تقول لها آبي شيئًا ما بالكاد يلتقطه الميكروفون.

- بقدر برميل ومغرفة.

ماذا يعني ذلك؟

مع ذلك، ينجح الأمر، ويتلاشى التوتر كالسحر بعيدًا عن وجه ستيلا.

يبدأ والدها بالتحليق مع جيتاره، وأنا أدندن معه قبل أن يلتقط دماغي شعوريًّا ما يغنُّون، يتمايل كلُّ الجمهور معهم أيضًا، تتحرك الرؤوس يمنة ويسرة، وتنقر الأقدام مع الإيقاع.

«الآن سمعت أن هناك وترًا سريًّا...».

واو، كلاهما يمكنه الغناء.

تصدح أختها بذلك الصوت العظيم القوي الصافي، بينما تهمس ستيلا لاهثة بنعومة ولطف بكلِّ الطرق المناسبة.

أنقر على زر الإيقاف المؤقت عندما تقترب الكاميرا من وجه ستيلا، تنبض جميع ملامحها بالحياة وسط توهج الأضواء، مبتهجة، مبتسمة، وسعيدة هناك على خشبة المسرح بجانب والدها وشقيقتها.. أتساءل ما الذي جعلها... عصبية للغاية البارحة؟!

أمرر أصابعي عبر شعري، متأملًا شعرها الطويل، ظل عظم الترقوة لديها، والطريقة التي تلمع بها عيناها البنيتان عندما تبتسم، يبث الأدرينالين في وجهها لونًا، وجنتاها متألقتان، تتوهجان بالزُّهرة.

لن أكذب، إنها فاتنة.

فاتنة حقًّا.

أنظر بعيدًا و... انتظر لحظة، ذلك محال، أحدد الرقم بالمؤشر.

«مئة ألف مشاهدة؟ هل تمازحني؟».

مَن تكون تلك الفتاة؟

بعد أقل من ساعة، يقطع قيلولتي الأولى -بعد السهر طوال الليل- جرسُ إنذارٍ يضجُّ في الممر، وتفسد محاولتي الثانية لاحقًا والدتي والطبيبة حاميد عند اقتحام غرفتي في زيارة مسائية، أشعر بالملل، أكتم تثاؤبي وأحدِّق إلى الفناء الخالي، وقد منعت الرياح الباردة والتنبؤ بتساقط الثلوج أيَّ أحدٍ من الخروج.

يتساقط الثلج، على الأقل هناك شيء نتطلع إليه.

أريح رأسي على الزجاج البارد، وأنا أتوق إلى العالم المغطى بملاءة بيضاء في الخارج، لم ألمس الثلج منذ أول مرة أرسلتني أمي فيها إلى مركز علاجي عالي المستوى لأكون فأرَ تجارب لدواء تجريبي يكافح بكتيريا البيركهولدرية البصلية. كان ذلك في السويد، ولقد استغرقوا في إتقان ذلك الشيء نحو نصف عقد، ومن الواضح أنه لم يكن «متقنًا» بما فيه الكفاية، لأنني خرجت من هناك وعدت إلى المنزل في غضون أسبوعين تقريبًا.

في هذه اللحظة، لا أتذكر الكثير من تلك الإقامة الخاصة، الشيء الوحيد الذي أتذكره من معظم زياراتي إلى المستشفيات هو الأبيض، ملاءات المستشفى البيضاء، الجدران البيضاء، معاطف المختبر البيضاء، جميعها في وقت واحد. لكنني أتذكر الجبال، جبالًا من الثلوج التي تساقطت في أثناء إقامتي هناك، اللون الأبيض ذاته، لكنه جميل، وأقل تعقيمًا. حقيقةً، كنت أحلم بالذهاب إلى جبال الألب للتزلج، ولتذهب وظيفة الرئتين إلى الجحيم، لكن الثلج الوحيد الذي تمكنت من لمسه كان على سقف سيارة الأجرة المرسيدس الخاصة بأمي.

ينادي صوت أمي «ويل» وهي عابسة، مقاطعة حلم اليقظة خاصتي بالثلج: «هل تنصت؟».

هل تمازحني؟

أدير رأسي لأنظر إليها وللطبيبة حاميد، وأومئ برأسي كدمية، على الرغم أنني لم أسمع كلمة واحدة طوال كلِّ هذا الوقت، إنهما تراجعان نتائج اختباري الأول منذ أن بدأت التجربة من أسبوع أو نحوه، وكالعادة، لم يتغير شيء.

تقول الطبيبة حاميد: «نحتاج إلى أن نتحلى بالصبر، فالمرحلة الأولى من التجارب السريرية على البشر قد بدأت قبل 18 شهرًا فقط».

أنظر إلى أمي، فأشاهدها تومئ بلهفة، وعقصتها الشقراء القصيرة ترتفع وتنخفض في أثناء كلام الطبيبة.

أتساءل عن عدد العلاقات التي ترتب عليها استخدامها وكمية الأموال التي احتاجت تبديدها في سبيل إحضاري إلى هنا.

تتابع الطبيبة حاميد وعيناها مركزتان عليَّ ووجهها النحيل تعلوه ملامح جادة: «إننا نخضعه للمراقبة، لكن يتعيَّن على ويل أن يساعدنا، وعليه أن يحافظ على متغيرات حياته في حدها الأدنى. ويل، إنَّ مخاطر انتقال العدوى الآن أعلى، لذلك...».

أقاطعها: «لا تسعل بالقرب من أيِّ مصاب بالتليف الكيسيِّ، فهمت؟».

يتدلى حاجباها الأسودان بينما تعبس: «لا تقترب منهم لدرجة كافية للمسهم، من أجل سلامتهم، وسلامتك».

أرفع يدي في تعهُّدٍ ساخر، وأنا أردد ما يُعد على الأرجح شعار مصابي التليف الكيسي في هذه المرحلة: «ستُّ خطوات في كلِّ الأوقات».

تومئ برأسها: «هو ذاك».

- ما أنا مصاب به هو بكتيريا البيركهولدرية البصلية، ما يجعل هذه المحادثة عديمة وعقيمة، هذا لن يتغير في أيِّ وقت قريب.

تقول الطبيبة حاميد بحماس: «لا مستحيل!».

تقول أمي وقد استبدت بها الفكرة: «أنا أومن بذلك، وعليك أن تؤمن به أيضًا».

أضع على وجهي ابتسامة مبالغة تترافق مع رفع إبهام، قبل أن يتحول الإبهام إلى الأسفل وأهز رأسي، ثم تنزلق الابتسامة عن وجهي، إنه مجرد كلام فارغ.

تتنحنح الطبيبة حاميد وتنظر إلى أمي: «حسنًا، سوف أترك هذا الأمر لك».

تقول أمي وهي تصافحها بشغف: «شكرًا دكتورة حاميد». كما لو أنها للتوِّ قد تمكنت من توقيع عقد مع عميلها الأكثر صعوبة.

تعطيني الطبيبة حاميد ابتسامة مائلة أخيرة قبل أن تذهب، تستدير أمي لتنظر إليَّ، بنظرة ثاقبة من عينيها الزرقاوين، معلقة بصوتها: «ويل، لقد بُذلت الكثير من الجهود لتكون ضمن هذا البرنامج».

إذا كانت تعني بكلمة «جهد» كتابة شيك يمكن أن يرسل قرية صغيرة إلى الكلية، فإنها قطعًا قد بذلت جهدًا كبيرًا لأكون مجرد طبقٍ بتريٍّ بشريٍّ.

أقفُ وأمشي لأواجهها: «ماذا تريدين؟ أن أشكرك لرميي في مستشفى آخر، وإضاعة المزيد من وقتي؟ في غضون أسبوعين سأبلغ الثامنة عشرة، سأصبح راشدًا قانونيًا، لن تتقلدي زمام الأمور بعد الآن».

تبدو للحظة متفاجئة، بعدها تضيق عيناها في وجهي، تلتقط معطفها الوثير الأحدث من العلامة التجارية برادا من على الكرسي بجوار الباب وتلقي عليَّ نظرة خاطفة: «سأراك في عيد ميلادك».

أستند إلى المدخل أشاهدها ترحل، وكعب حذائها يطرق في الممر، تتوقف عند قسم الممرضات، حيث تقلب بارب بعض الصفحات.

أسمعها تقول بينما تفتح حقيبتها، وتلتقط محفظتها منها: «بارب، أليس كذلك؟ دعيني أعطيك رقم هاتفي المحمول، إذا لم يُجدِ الـسيڤافلومالين نفعًا، قد يصبح التعامل مع ويل... صعبًا للغاية».

عندما لم تقل بارب أيَّ شيء، تسحب بطاقة عملها من محفظتها: «لقد أصيب بخيبة أمل مرات عديدة مسبقًا، وإنه يتوقع أن يخيب أمله مرة أخرى، إذا لم يكن ممتثلًا، هل يمكنك الاتصال بي؟».

تنقر ببطاقة عملها على المكتب قبل أن ترمي فوقها مئة دولارٍ، كما لو أنه مطعمٌ فارِه وأنا طاولة عليهم أن يعتنوا بها، رائع! هذا عظيم!

تحدِّق بارب إلى المال، وترفع حاجبيها في وجه أمي.

- لم يكن ذلك لائقًا، أليس كذلك؟ المعذرة، لقد زرنا الكثير من...

يخفت صوتها، وأشاهد بارب تأخذ بطاقة العمل والنقود من على المكتب، تنظر إلى عينَي أمي نظرة الصرامة ذاتها التي ترمقني بها عندما تجبرني على تناول بعض الدواء: «لا تقلقي، إنه في أيدٍ أمينة».

تكبس المئة دولار في يد أمي، وتحتفظ ببطاقة العمل في جيبها، وتشيح بنظرها عن أمي لتنظر إليَّ.

أعود لغرفتي، أغلق الباب خلفي وأشد قبة قميصي، أخطو إلى النافذة ثم أعود لأجلس على سريري، وبعدها أعود فأخطو إلى النافذة، وأفتح الستائر بينما تضيق بي الجدرانُ من حولي.

أحتاج إلى الخروج، أحتاج إلى ذلك الهواء غير المشبع بالمطهرات.

أفتح باب خزانتي لألتقط سترة، أسحبها وأحدق خارجًا إلى قسم الممرضات لأرى ما إذا كان الطريق آمنًا.

لا أثر لأيٍّ من بارب أو أمي، لكن جولي بجوار الهاتف وراء المكتب، تفصل بيني وبين باب الخروج الذي يأخذني مباشرة إلى الدرج الوحيد في هذا البناء المؤدي إلى السطح.

أغلق باب غرفتي بهدوء، وأتسلل عبر الممر، محاولًا الانخفاض بقدر ما يمكن عن قسم الممرضات، لكنَّ محاولة البقاء منخفضًا للتسلل بالنسبة إلى شابٍّ طوله يقارب المترين تبدو تقريبًا كتخفِّي فيلٍ معصوب العينين، تنظر

جولي إليَّ، أضغط ظهري إلى الحائط متظاهرًا بتمويه نفسي، تضيق عيناها في وجهي بينما تبعد سماعة الهاتف عن فمها: «إلى أين تعتقد أنك ذاهب؟».

أمثِّلُ مهرِّجًا أنني أمشي مع أصابعي.

تهز رأسها ناظرةً في وجهي، وهي تعرف أنني محبوسٌ في الطابق الثالث منذ أن استغرقت في النوم بجوار آلة البيع في المبنى 2 الأسبوع الماضي، وتسببتُ في إعلان حالة الطوارئ لمطاردةٍ منظمة، أضمُّ يديَّ في حركة توسل وأنا آمل أن يقنعها الإحباط المتدفق من روحي بالعدول عن رأيها.

في البداية لم تكن هناك نتيجة، بقي وجهها صارمًا، ولم تتغير نظرتها، لكن بعدها حركت عينيها، ورمت لي قناع وجه قبل أن تلوح لي نحو الحرية.

شكرًا لله، إنني أحتاج أن أخرج من هذا الممر المطلي بالبياض أكثر من حاجتي إلى أيِّ شيءٍ آخر.

أغمزها بعيني، إنها على الأقل إنسانٌ بالفعل.

أغادر جناح المصابين بالتليف الكيسي، أدفع الباب الثقيل المؤدي إلى الدرج متخذًا خطوات محددة اثنتين اثنتين على الرغم من أن رئتيَّ تُرهقان بعد صعود طابق واحد فقط، أسعل ممسكًا بالسور المعدني متجاوزًا الطابق الرابع والخامس ثم السادس، وأصل أخيرًا إلى باب كبير أحمر مع إشعار ضخم مطبوع عليه: مخرج طوارئ، سيُطلق جرس الإنذار عند فتح الباب.

ألتقط محفظتي من جيبي الخلفي، مخرجًا دولارًا مطويًّا بإحكام احتفظتُ به هناك للحظات كهذه، أصل إلى بروز مفتاح الإنذار وأحشر الورقة النقدية فيه بحيث لا يُطلق الجرس، بعدها أفتح الباب قليلًا فحسب وأنزلق من خلاله إلى سطح المبنى.

ثم أنحني لأضع محفظتي بين الباب ودعامته لئلا يوصَدَ خلفي، فلقد سبق وتعلمت ذلك الدرس بطريقة قاسية.

ستصاب أمي بنوبة قلبية إذا رأتني أستخدم محفظة لويس فويتون التي جلبتها لي قبل بضعة أشهر كحاجز للباب، لكنها كانت هدية سخيفة بالنسبة لشخص لا يذهب أبدًا إلا لمقاصف المستشفى.

على الأقل يُستخدم كحاجز.

أقف، وآخذ نفسًا عميقًا وأسعل تلقائيًّا من هواء الشتاء قارس البرودة الذي يصدمُ رئتيَّ. على الرغم من ذلك، تبدو في حالة جيدة لكونها في الخارج، لكونها غير محتجزة داخل جدران أحادية اللون.

أتمطَّى، ناظرًا عاليًا إلى السماء الرمادية الشاحبة، وندفات الثلج المتوقع هطولها تتساقط أخيرًا ببطء وتحطُّ على خديَّ وشعري، أمشي على مهلٍ إلى حافة السطح وأتخذ من حجرٍ جليدي مكانًا للجلوس، مدليًا قدميَّ من على الحافة. أزفر نفسًا أشعر أنني كنت أحبسه منذ أن وصلت إلى هنا قبل أسبوعين.

كلُّ شيءٍ جميلٌ من الأعلى هنا.

مهما يكن المستشفى الذي أزوره، فإنني دائمًا أجعله نقطة لأجد طريقة للوصول إلى السطح.

لقد رأيت الاستعراضات من أعلى ذلك المستشفى في البرازيل، بدا الناس كنملٍ ملوَّن زاهٍ بينما يرقصون عبر الشوارع، جامحين وأحرارًا. لقد رأيت فرنسا تنام، برج إيفل يشع متألقًا في الأفق، والأضواء تُطفأ بهدوء في شقق الطابق الثالث، بينما يدخل القمرُ المشهدَ بتكاسل. لقد شهدتُ الشواطئ في كاليفورنيا، حيثُ تمتد المياه إلى أميالٍ وأميال، وينعم الناس بالموجات المثالية في الصباح الباكر.

كلُّ مكانٍ مختلفٌ، كلُّ مكانٍ متفردٌ بذاته، لكن المشافي التي رأيت تلك الأماكن من خلالها هي ذاتُها.

هذه المدينة ليست مفعمة بالحياة، وإنما تبدو وكأنها نوعٌ من الطرق الخلفية يا رجل، ربما يجدر بذلك أن يشعرني بالمزيد من الرخاء، لكنه لا يجلب عليَّ إلا الضجر، ربما يرجع ذلك إلى أنه للمرة الأولى منذ ثمانية أشهر، وأنا أبعد مسافة قصيرة عن المنزل، حيثُ هوب وجاسون، حيث يشق زملائي القدامى طريقهم ببطء نحو الامتحانات النهائية، لينالوا أيَّ جامعة يختارها

آباؤهم من رابطة اللبلاب، حيثُ غرفة نومي، وحياتي اللعينة، حقًّا، الفارغة وغير المعاشة.

أشاهد أضواء السيارات المارة من الطريق بجوار المستشفى، وأضواءُ العطلة المتلألئة تظهر من بعيد، والأطفال الضاحكون يتزلجون على البركة الجليدية بجانب حديقة صغيرة.

هناك شيء بسيط في ذلك، حرية تجعلني لا أتمالك نفسي.

أتذكر عندما كنا معتادين أنا وجاسون على أن نتزلج على البركة الجليدية في الشارع المقابل لمنزله، والبرد يتخلل عميقًا في عظامنا بينما نلعب. نقضي هناك ساعاتٍ، نتنافس لنرى من منا يتزلج مسافة أبعد دون أن يسقط، نترامى بالكرات الثلجية، ونصنع ملائكة الثلج.

استغللنا كلَّ دقيقة إلى أقصاها حتى تظهر أمي بالتأكيد وتسحبني إلى المنزل.

تُشغل الأضواء في فناء المستشفى، ألمح في الأسفل فتاة تجلس في غرفتها في الطابق الثالث، تكتب في حاسوبها المحمول، وزوجان من سماعات الرأس على أذنيها بينما تركِّز في شاشتها.

انتظر لحظة.

أطيل النظر، ستيلا.

تجذب الرياح الباردة شعري، فأضع قلنسوتي، وأنا أتأمل وجهها بينما تكتب. ما الذي قد تعملُ عليه؟ إنها ليلة السبت.

لقد كانت مختلفة جدًّا في الفيديوهات التي شاهدتها، أتساءل عمّا قد تغير، هل هو كلُّ هذا؟ كلُّ ما يتعلق بالمستشفى؟ الحبوب والعلاج وهذه الجدران المطلية بالأبيض هي ما يضغط عليك ويخنقك ببطء، يومًا بعد يوم.

أقف، وأتوازن على حافة السطح، وأحدِّق إلى الفناء على علوٍّ سبعة طوابق، أتخيل للحظة انعدام الوزن، التخلي المطلق للسقوط. أرى ستيلا تنظر عبر الزجاج وتلتقي أعيننا وإذ بهبة ريح قوية تسبب لي تشنُّجًا يقطع

نَفَسي. أحاول أن آخذ نفسًا لأستعيده، لكن رئتيَّ الرديئتين بالكاد تستقبلان الأكسجين.

أحبس ما استطعت أن أحبسه من الهواء في حنجرتي وأبدأ بالسعال، على نحوٍ مُجهد، تصرخُ ضلوعي بينما تسحب كلُّ سعلة المزيد والمزيد من الهواء من رئتيَّ، وتبدأ عيناي تدمعان.

أخيرًا، أبدأ باستعادة السيطرة، لكن... يدور رأسي، وتصير حوافُّ رؤيتي إلى السواد.

أتعثر فزِعًا، وأحرك رأسي محاولًا التركيز على باب الخروج الأحمر أو على الأرض أو على أيِّ شيء آخر، أحدِّق إلى يديَّ وأنا أعِي السوادَ حتى يتبدد، وأعي العالم حتى أعود للرؤية، رغم أن الهواء الطلق من على حافة السطح ما زال بالكاد على بعد عدة سنتيمترات.

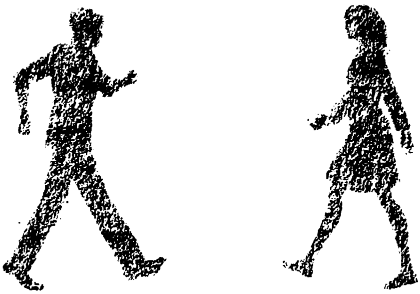

الفصل الخامس

ستيلا

أفتح الباب بقوة نحو السلالم، وأنا أُزَرِّر معطفي بعد ارتدائه صعودًا إلى السطح، يخفق قلبي بصوت عالٍ في أذنيَّ، وبالكاد أتمكن من سماع صوت موطئ قدمي تحتي بينما أعدو على السلالم.

لا بُدَّ أنه مجنون.

أتخيله يقف هناك على حافة السطح، على وشك السقوط من ارتفاع سبعة طوابق إلى حتفه، وملامح الخوف ترتسم على وجهه، لا شيء يشبه ابتسامته الواثقة السابقة.

ألهث متجاوزة الطابق الخامس، أتوقف للحظة فقط لألتقط أنفاسي، وراحةُ يدي المتعرقة تمسك بالسور المعدني البارد، أنظر عاليًا إلى السلالم المتبقية إلى الطابق الأخير، يدور رأسي ويحتدم التهاب حلقي، لم يكن لديَّ وقت حتى لجلب الأكسجين المحمول. درجان إضافيان فقط، اثنان فقط، أجبر نفسي على مواصلة الصعود، تتحرك قدماي حسب الأوامر: يمين، يسار، يمين، يسار، يمين، يسار.

أخيرًا باب السطح على مرمى النظر، مفتوحٌ قليلًا تحت ضوء الإنذار الأحمر الفاقع الجاهز ليدقّ.

أقفُ بتوانٍ، أنقِّل نظري بين الإنذار والباب مرارًا وتكرارًا.

لكن لماذا لم يُطلق الإنذار عندما فتح ويل الباب؟ هل هو معطل؟ ثم أراها، ورقة دولار مطوية تضغط على المفتاح، تمنع إطلاق جرس الإنذار وتمنع كلَّ شخص في المستشفى أن يعرف أنَّ شابًّا مجنونًا مصابًا بالتليف الكيسي بميول مدمرة للذات يتسكع على السطح.

أهز رأسي، قد يكون مجنونًا، لكن هذا ذكاء.

الباب مفتوح ومسنود بمحفظة، أمرُّ من خلاله بأسرع ما يمكنني، وأتأكد من أن ورقة الدولار مُحْكَمة في مكانها على المفتاح. أجمد في مكاني، ألتقط نَفَسًا حقيقيًّا للمرة الأولى منذ 48 درجة، أبحث عبر السطح، أشعر بالارتياح عندما أرى أن مسافة أمان تفصل بينه وبين الحافة وأنه لم يلقَ حتفه.

يلتفت لينظر إليَّ بينما ألهث، وعلى وجهه تعبير الاندهاش، أشدُّ عليَّ معطفي الأحمر إذ يلسع الهواء البارد وجهي ورقبتي، وأنظر إلى محفظته لأرى إذا ما بقيت عالقة على دعامة الباب عندما مرت العاصفة به.

أصرخ وأنا أترك بيني وبينه مسافة أكثر من آمنة تزيد على ثماني خطوات: «هل لديك رغبة في الموت؟». قد تكون لديه هذه الرغبة، لكنني بالتأكيد، ليست لديَّ.

احمرَّ أنفه وخدَّاه من البرد، وقد تجمعت طبقة رقيقة من الثلج على شعره البني المجعد وقلنسوة قميصه الخمريّ، عندما بدا كذلك، أمكنني الادِّعاء تقريبًا أنه ليس مجرد أحمق.

بعد ذلك بدأ في الحديث مرة أخرى.

هزَّ كتفيه بعفوية، مشيرًا من على حافة السطح إلى الأرض في الأسفل: «ضقتُ برئتيَّ، لذلك أستمتع بالمنظر بقدر ما أستطيع».

كم هذا شاعريٌّ.

لماذا توقعت أيَّ شيءٍ مختلف؟

أنظر خلفه لأرى أفق المدينة يتلألأ بعيدًا، بعيدًا لمسافات، وأضواء العطلة تغطي كلَّ شبرٍ من كلِّ شجرة، تشع كما لم أَرَهَا من قبل كما لو أنها تعيد للحديقة في الأسفل الحياة، بعضها معلق حتى عبر الأشجار، مشكِّلة ذاك الطريق السحري الذي يمكنك التمشي من خلاله، أميل رأسي فاغرة الفم.

مع كلِّ السنوات التي قضيتها هنا لم أصعد إلى السطح قطُّ، أشدُّ معطفي بإحكام وأنا أرتعش، وألفُّ ذراعيَّ على جسدي بينما أعود بنظري إليه.

أسأله: «إن كان منظرًا جميلًا أو لم يكن، لماذا قد يرغب أحدهم بأن يخاطر بالسقوط من ارتفاع سبعة طوابق؟». أتساءل بحق ما الذي يجعل شخصًا يمتلك رئتين رديئتين يتسكع على السطح والشتاءُ في أوجِه.

عيناه الزرقاوان تلمعان بطريقة تجعل معدتي تنكمش: «هل سبق ورأيت باريس من على سطح ستيلا؟ أو روما؟ أو هنا قط؟ إنه الشيء الوحيد الذي يجعل كلَّ هراء العلاج هذا يبدو صغيرًا».

أسأله وأنا أخطو خطوتين باتجاهه، على بعد ست خطوات، على الحدِّ: ««هراء العلاج؟» هراء العلاج ذاك هو ما يبقينا على قيد الحياة».

يتذمر وهو يدوِّر عينيه: «هراء العلاج ذاك هو ما يمنعنا أن نكون في الأسفل هناك، ونعيش حقًّا».

يبدأ دمي في الغليان: «هل سبق وعرفت كم أنت محظوظ لتكون ضمن التجربة الدوائية هذه؟ لكنك تعده أمرًا مفروغًا منه، يا لك من شقي محظوظ مدلل!».

- انتظري، كيف عرفتِ بشأن التجربة؟ هل سألتِ عني؟

أتجاهل أسئلته، وأتابع: «إذا كنت غير مهتم، إذن ارحل».

وأُردف: «اترك شخصًا آخر يأخذ مكانك في التجربة، شخصًا يريد أن يعيش».

أنظر إليه، وأشاهده بينما يتساقط الثلج في المسافة بيننا، ويختفي عندما يلامس التراب تحت أقدامنا، نحدِّق إلى بعضنا بعضًا في صمت، ثم يهز كتفيه

بتعبيرٍ غير مفهوم، يتراجع خطوة إلى الوراء، باتجاه الحافة مجددًا: «أنت على حق، أعني، أنا ميِّتٌ على أي حال».

أضيِّق عينيَّ في وجهه، لن يفعلها، أليس كذلك؟

خطوة أخرى إلى الوراء، وأخرى، وخطواته تدهس الثلج الذي سقط لتوِّه، عيناه مصوبتان إلى عينيَّ، يتحداني لأقول شيئًا، لأوقفه، يتحداني لأصيحَ به.

يقتربُ أكثر نحو الحافة.

أتنهد بسرعة، والبردُ يكشط طريقه داخل رئتيَّ.

يتدلى بإحدى قدميه من على الحافة، والهواء الطلق يجعل حنجرتي تنكمش، لا يمكنه فعل ذلك... أصيح به وأنا أخطو أقرب باتجاهه: «ويل! لا! توقف!» وقلبي يدق في أذنيَّ.

يتوقف، وقدمه معلقة على الحافة، خطوة أخرى ويمكن أن يسقط، خطوة أخرى ويمكن أن يلقى...

نحدِّق إلى بعضنا بعضًا بصمت، وعيناه الزرقاوان تهتمان بفضول، وبعدها يبدأ بالضحك، بصوت عالٍ بجنون، بطريقة مألوفة جدًّا، يبدو كما لو أنه يضغط على كدمة.

«يا إلهي! كانت النظرة على وجهك مضحكة للغاية». يقلد صوتي: «ويل! لا! توقف!».

- هل تهزأ بي؟ لماذا قد تفعل ذلك؟

«سقوطك إلى حتفك ليس بنكتة» أشعر بجسدي بكامله يرجف، أغرز أظفاري داخل راحة يدي، محاولةً أن أتوقف عن الرجفان وأنا أنصرف عنه.

ينادي خلفي: «أوه، بحقك، ستيلا! كنت أعبث معك فحسب».

أفتح باب السطح وأخطو فوق المحفظة، وأنا أريد أن أترك مسافة قدر الإمكان بيننا، لماذا اكترثت أصلًا؟ لماذا كلفت نفسي عناء صعود أربعة طوابق لأرى إن كان على ما يرام؟ أبدأ بنزول أولى الدرجات، ثم أدرك... لقد نسيت أن أضع قناع وجهي.

أنا لا أنسى أبدًا قناع وجهي.

أتمهل ثم أتوقف تمامًا وتخطر ببالي فكرة، أعود فأصعد إلى الباب، وأسحب ببطء ورقة الدولار من مفتاح الإنذار، أخبئها بينما أطير نزولًا إلى الطابق الثالث للمستشفى.

أستند إلى الجدار الأسمنتي، وألتقط أنفاسي قبل أن أنزع معطفي ووشاحي، أفتح الباب، وأتمشى باتجاه غرفتي، كما لو أنني خرجت للتوِّ من وحدة العناية المركزة لحديثي الولادة، في مكان ما بعيدًا، ينطلق جرس إنذار السطح عندما يفتح ويل الباب ليعود للداخل، يدق بعيدًا لكنه يصدح إذ يتردد صداه عبر السلالم، مدويًا في الممر.

لا يسعني سوى الابتسام.

ترمي جولي ملفَ مريض أزرق على المكتب جانب قسم الممرضات، تهز رأسها وتحدث نفسها: «السطح، ويل! حقًّا؟».

من الجيد معرفة أنني لست الشخص الوحيد الذي يدفعه إلى الجنون.

أحدِّق خارج النافذة، وأشاهد الثلج يتساقط على النور المتوهج لأضواء فناء المستشفى، يعم الصمت أخيرًا بعد توبيخ ويل الذي يدوم لساعة، ألقي نظرة على الساعة، فأراها تشير إلى الثامنة مساءً فحسب، ما يعطيني متسعًا من الوقت للعمل على المهمة رقم 14 على قائمة مهامي: «تحضير التطبيق للاختبار التجريبي»، والمهمة رقم 15 «إكمال جدول الجرعات لمرض السكري»، قبل أن آوي إلى الفراش الليلة.

أتفقد حسابي على الفيسبوك سريعًا قبل أن أبدأ، فينبثق إشعار أحمر لدعوة إلى الذهاب في رحلة إلى الشاطئ ليلة الجمعة القادمة في كابو، أضغط على الصفحة فأرى أنهم استخدموا الوصف الذي صغتُه عندما كنت قائمة على تنظيم ذلك، ولا أدري إن كان ذلك يجعلني أفضل أم أسوأ، أتصفح قائمة الأشخاص ضمن الرحلة، فأرى صور كاميليا وميا، وصور ماسون (حاليًّا من دون بروك)، تتبعها صور ستة أشخاص آخرين من مدرستي كانوا قد أجابوا بنعم.

يبدأ جهازي الآيباد بالرنين، وأرى مكالمة على برنامج فيس تايم واردة من كاميليا، يبدو كما لو أنهما عرفتا أنهما تجولان بخاطري، أبتسم وأسحب يمينًا لقبول المكالمة، أكاد أُصاب بالعمى عندما تلمع أشعة الشمس الساطعة للشاطئ النقي الذي يجلسون عليه عبر شاشة جهازي الآيباد.

أقول بينما يظهر وجه كاميليا الذي تلوح عليه أشعة الشمس في المشهد: «حسنًا، أشعر رسميًّا بالغيرة!».

تندفع ميا لِتُلْصق وجهها على كتف كاميليا، وشعرها المجعد يتطاير في الصورة، وهي ترتدي القطعة المنقطة التي ساعدتها في اختيارها، لكن من الواضح أنها لا تملك الوقت للمجاملات: «هل هناك أيُّ شبَّان جذَّابين؟ ولا تجرُئين على البوح...».

نقول معًا في الوقت نفسه: «بو فقط».

تهز كاميليا كتفيها وهي تعدل نظارتها: «بو يُحتسب.. إنه حقًّا جذاب!».

تتذمر ميا، وتقول لكاميليا وهي توكزها بمرفقها: «كاميليا، بو لا يأبه بك ألفًا بالمئة».

تلكمها كاميليا في ساعدها بمزاح، ثم تحدق إليَّ: «يا إلهي! هل هو هناك؟ ستيلا، هل ذاك الشاب الوسيم هناك؟».

أدور عينيَّ: «إنه ليس وسيمًا».

تصرخ كلتاهما في فرح: «إنه!». وأتمكن من استشعار شلال الأسئلة الذي يوشك أن يتدفق عليَّ.

أقول وهما تحتجَّان: «عليَّ الذهاب، أكلمكما في الغد» وأغلق الخط، ما تزال لحظة السطح جديدة قليلًا وغريبة للحديث عنها، تعود صفحة مجموعة رحلة شاطئ كابو لتظهر، أمرُّ بالفأرة على «عدم الذهاب»، لكن لا أستطيع حمل نفسي على الضغط عليها في الوقت الحالي، لذا بدلًا من ذلك أغلق الصفحة فحسب، وأفتح برنامج فيجوال استوديو.

أفتح المشروع الذي قد بدأت العمل عليه وأبدأ بتدقيق الكثير من سطور الأكواد البرمجية، أشعر بالفعل بارتخاء عضلاتي حيال فعل ذلك، أجد خطأً في السطر 27، حيث وضعت c بدلًا من x للمتغير، وإشارة = ناقصة في السطر 182، لكن فيما عدا هذا وذاك، يبدو التطبيق أخيرًا جاهزًا للاختبار التجريبي، أكاد لا أصدق ذلك، سوف أحتفل به لاحقًا مع كوب من بودينغ الشوكولا.

أحاول المواصلة لإكمال جدول الجرعات لمرض السكري على جدول البيانات لديَّ الخاص بالأمراض المزمنة الأكثر شيوعًا، المصنفة حسب مختلف الأعمار والأوزان والعلاج، لكن سريعًا ما أجد نفسي أحدِّق إلى الأعمدة الفارغة، وأطراف أصابعي تنقر على حافة حاسوبي، ويشرد ذهني مسافة مليون ميل.

أركز.. أصل إلى دفتر ملاحظاتي لألتقطه، وأشطب على الرقم 14 وأحاول الإحساس بشعور السكينة الذي يأتي عادة بعد إنهاء بنود قائمة المهام، لكنه لا يأتي، أتجمد بينما يمر قلمي على الرقم 15، أنظر مرة أخرى إلى أعمدة فارغة وصفوف في أسفل جدول بيانات «إكمال جدول الجرعات لمرضى السكري».

غير مكتملة، أووه!

أرمي دفتر ملاحظاتي على السرير، وشعورٌ بالاضطراب وعدم الراحة ينتاب معدتي، أقف، وأخطو إلى النافذة، أفتح الستائر بيدي.

تنتقل عيناي إلى السطح، حيث كان يقف ويل من قبل، أعرف أنه كان على طبيعته عندما صعدت إلى هناك، لكنني لم أتخيل السعال، والترنح، أو الخوف.

السيد «الموت قادم إلينا جميعًا» لم يكن يريد أن يموت.

أشعر بالضجر، أمشي إلى عربة أدويتي، آملة أن يشعرني الانتقال إلى بند «أدوية ما قبل النوم» على قائمة مهامي بالراحة، تحط أصابعي على الجزء المعدني من العربة بينما أنظر إلى بحر العبوات، ثم أنظر مجددًا إلى السطح من النافذة، ثم أعود فأنظر إلى العبوات.

«هل يتلقى حتى علاجه؟».

بإمكان بارب إجباره على تناول معظم أدويته، لكن لا يمكنها أن تكون حاضرة عند كل جرعة، بإمكانها ربطه إلى سترته الهزازة، لكنها لا تضمن أنه يبقيها لنصف ساعة كاملة.

على الأرجح لا يتلقى جميع علاجه.

أحاول التحقق من أن الأدوية مرتبة حسب موعد تناولها، أبعثرها في أنحاء العربة، فتختلط جميع الأسماء ببعضها، وبدلًا من الشعور بالراحة، أشعر بمزيد ومزيد من الإحباط. يتصاعد الغضب إلى جانبَي رأسي.

أصارع مع غطاء مذيب المخاط، أضغط عليه بكامل قوتي لأحاول فتحه.

لا أريده أن يموت.

يتسلق التفكير إلى جبل الإحباط ويغرس راية، بوضوح وبصوت عالٍ وبطريقة مفاجئة جدًّا لا أفهمها حتى، أراه فقط يعود فيمشي إلى حافة السطح، حتى ولو كان الأسوأ بالفعل...

لا أريده أن يموت.

أدير الغطاء بقوة فيفتح ويتطاير، وتتناثر الحبوب في أنحاء العربة، بغضب، أغلق العبوة بقوة، فتتبعثر الحبوب مجددًا من قوة يدي: «اللعنة!».

مكتبة ياسمين
telegram @
yasmeenbook

الفصل السادس

ويل

أفتح الباب متجهًا نحو غرفتي، وأتفاجأ برؤية ستيلا تسند ظهرها إلى الجدار على الجهة الأخرى من الممر. بعد الخدعة التي قمت بها البارحة، اعتقدت أنها ستتحاشاني على الأقل لأسبوع، إنها ترتدي نحو أربعة أقنعة للوجه وزوجين من القفازات، أصابعها تمسك بإحكام الدرابزين البلاستيكي على الحائط، بينما تتحرك، أشمُّ رائحة الخزامى.

رائحته جميلة، على الأرجح أنفي يتوق إلى أيِّ شيء ليس مطليًّا بالأبيض.

أبتسم وأقول: «هل أنت طبيبتي الخاصة؟».

تعطيني ما اعتقدت أنه نظرة باردة حسبما رأيت من تعابير وجهها، وتميل لتحدِّق إلى غرفتي من خلفي. أنظر ورائي لأرى ما تنظر إليه، كتبُ الفنون، السترة الهزازة متدلية على حافة السرير منذ أن تجاهلتها حالما غادرت بارب، دفتر رسوماتي المفتوح على الطاولة، هذا كل ما في الأمر.

تقول أخيرًا، كما لو أنها تيقنت من إجابة لغز عظيم من ألغاز شارلوك هولمز: «عرفتُ ذلك». رفعت يدها المغطاة بزوجين من القفازات: «دعني أرى نظامك العلاجي».

- أنت تمزحين، صحيح؟

نحدِّق إلى بعضنا بعضًا، وهي تصوِّب بعينيها البُنيتين نظرة تخويف تجاهي بينما أحاول أن أبادلها حملقة الترهيب ذاتها، لكنني أملُّ للغاية لذا يتمكن فضولي مني، أدوِّر عينيَّ وألتفتُ لأقلب غرفتي رأسًا على عقب بحثًا عن قطعة من الورق كانت على الأرجح قد أصبحت في مكبٍّ ما للنفايات.

أدفع بعض المجلات جانبًا وأنظر تحت السرير، أتصفح سريعًا عدة صفحات في دفتر رسوماتي، وأنظر حتى تحت وسادتي للتظاهر، لكن لا يُعثر لها على أثر.

أعتدلُ وأهز رأسي في وجهها: «لا أستطيع العثور عليها، آسف، أراك لاحقًا».

رغم ذلك، لا تتزحزح، وتشبك ذراعيها في تحدٍّ رافضة المغادرة.

لذا أواصل النظر، وعيناي تتفحصان الغرفة بينما تنقر ستيلا بقدمها في الممر بصبرٍ نافد، لا جدوى من ذاك الشيء...انتظري.

ألاحظ دفتر رسوماتي الجيبي ملقًى على خزانتي، وقد حُشرت ورقة النظام العلاجي في غلافه الخلفي، مطوية بشكل مرتب وبالكاد تبرز من بين أوراق الدفتر الصغيرة.

من المؤكد أن أمي قد أخفته هناك لِئلا ينتهي به المطاف في سلة المهملات.

ألتقطه، متوجهًا إلى مدخل الغرفة وأرفعه في وجهها: «على الرغم من أن هذا ليس من شأنك...».

تخطف الورقة مني قبل أن تسند ظهرها بقوة إلى الجدار البعيد، أراها تنظر بغضب إلى الأعمدة والسطور الأنيقة التي رسمت خلالها رسومات كاريكاتورية معتلَّة للغاية، تحاكي مستوى دونكي كونج، بينما كانت أمي والطبيبة حاميد تتحادثان. السلالم تتربع أعلى معلومات الجرعات، وبراميل تتدحرج حول أسماء علاجي، وآنسةٌ تبعث صرخات استغاثة: «النجدة!» في الزاوية العلوية اليسرى إلى جانب اسمي. رسمٌ عبقري، صحيح؟

- ما هو... كيف يمكنك... لماذا؟

من الواضح أنها لا تعتقده كذلك.

- هل هذا ما يبدو عليه تمدد الأوعية الدموية؟ هل يجدر بي أن أتصل بِجولي؟

تدفع إليَّ بالورقة، وقد بدا وجهها كالرعد.

أقول وأنا أرفع يديَّ: «هيه، أفهم أن عقدة إنقاذ العالم تستفحل لديك، لكن دعيني خارجها».

تهز رأسها في وجهي: «ويل، هذا العلاج ليس اختياريًّا، هذه الأدوية ليست اختيارية».

- وهو ما يجعلهم على الأرجح يواصلون دفعها في حلقي.

على الرغم من ذلك، لنكن منصفين، فإن أيَّ شيءٍ يمكن أن يكون اختياريًّا إذا كنت مبدعًا كفاية.

تهز ستيلا رأسها، وترفع يديها وتمضي غاضبة في الممر: «إنك تدفعني إلى الجنون».

تداهمني كلمات الطبيبة حاميد في وقت سابق لتجول في رأسي. «لا تكن قريبًا منهم بما يكفي للمسهم؛ من أجل سلامتك وسلامتهم». ألتقط قناع وجه من علبة غير مفتوحة وضعتها جولي إلى جانب الباب، أدسه في جيبي وأهرول خلفها.

أنظر جانبًا فأرى صبيًّا بُنيَّ الشعرِ قصيرًا، بأنف حادٍّ، وعظام وجنتين أكثر حِدة، يطل من الغرفة 310، يرتفع حاجباه بفضول تجاهي وأنا أتبع ستيلا عبر الممر إلى المصعد، تصل ستيلا إلى المصعد أولًا، تدخله وتستدير لتواجهني بينما تضغط على زر الطابق الأرضي، أخطو لأدخل بعدها فترفع يدها: «ست خطوات».

اللعنة.

تغلق الأبواب وأنا أنقر بقدمي بصبر نافد، وأضغط على زر المصعد لأعلى مرات ومرات بينما أشاهده يصعد بثبات إلى الطابق الخامس ثم ينزل ببطء إليَّ، أنظر بعصبية إلى قسم الممرضات الفارغ خلفي قبل أن أنزلق داخل المصعد بسرعة وأضرب زر إغلاق الباب، أقابل نظرتي في الجزء المعدني العَكر للمصعد، وأتذكر قناع الوجه في جيبي وأضعه بينما أصل إلى الطابق الخامس، هذا غبي، لماذا أتبعُ حتى بارب جونيور؟

مع قرع الجرس، تُفتح الأبواب، وأمشي سريعًا عبر الممر لأتجاوز الجسر إلى المدخل الشرقي لوحدة العناية المركزة لحديثي الولادة، متفاديًا بعض الأطباء على طول الطريق. من الواضح أنهم جميعهم في طريقهم إلى مكان ما، لذا لم يوقفني أحد. أفتح الباب برفق، وأرى ستيلا للحظة، أفتح فمي لأسأل ما القصد من وراء هذا كله، لكنني أرى أن تعبيرها غامض وجديٌّ، أتوقف على بعد مسافة آمنة عنها وأتابع عينيها المتجهتين نحو الطفل، وهو مشبوكٌ إلى أنابيب وأسلاك تزيد على عدد أعضائه.

أرى الصدر الصغير، يكافح ليرتفع وينخفض، يكافح ليستمر في التنفس، أشعر بنبضات قلبي في صدري، وأشعر برئتيَّ الضعيفتين تحاولان الامتلاء بالهواء من اندفاعي المجنون في أنحاء المستشفى.

أخيرًا تقول وهي تنظر في عينيَّ من خلال الزجاج: «إنها تقاتل من أجل الحياة، إنها لا تعلم ما الذي ينتظرها أو لماذا تقاتل، إنها مجرد... غريزة يا ويل، غريزتها أن تقاتل، لتعيش».

غريزة!

لقد فقدت تلك الغريزة منذ وقت طويل، ربما في زيارتي إلى المستشفى الخمسين في برلين، أو ربما منذ نحو ثمانية أشهر عندما أصبت ببكتيريا البيركهولدرية البصلية ونزعوا اسمي من قائمة الزَّرع، هناك الكثير من الاحتمالات.

أطبق على فكِّي: «اسمعي، لقد حصلت على الشخص الخطأ لهذا الخطاب الصغير الملهم...».

تقاطعني وقد استدارت لتواجهني مع قدر مذهل من اليأس يغمر تعبيرها: «أرجوك، أريدك أن تتبع نظامك العلاجي بدقة وعلى نحو كامل».

أقول محاولًا أن أتفادى الجدية في المحادثة: «لا أعتقد أنني سمعت ذلك جيدًا، هل قلتِ للتوِّ... أرجوك؟». برغم ذلك، لا يتغير تعبير وجهها، أهزُّ رأسي، وأخطو أقرب نحوها لكن ليس كثيرًا، هناك خطبٌ ما.

- حسنًا، ما الذي يجري هنا؟ لن أضحك.

تأخذ نفسًا عميقًا، وتتراجع خطوتين إلى الوراء مقابل خطوتي التي خطوتها إلى الأمام: «لديَّ مشكلات في التحكم، أحتاج أن أعرف أنَّ الأمور تجري في مسارها الصحيح».

- إذن؟ ما الذي ينبغي أن يعنيه ذلك بالنسبة إليَّ؟

تتكئ إلى الزجاج، وهي تنظر إليَّ: «أعرف أنك لا تتلقى علاجك، وهذا يزعجني.. يشعرني بالسوء».

أتنحنح، أنظر من ورائها إلى الطفلة الصغيرة على الجهة الأخرى من الزجاج بلا حول ولا قوة؛ فأشعر بوخزة من الشعور بالذنب، على الرغم من أن ذلك لا يعني شيئًا.

أهز رأسي وكتفيَّ: «نعم، حسنًا، أودُّ أن أساعدك، لكن ما تطلبينه... إيه، لا أعرف كيف أفعله».

تقول وهي تضرب بقدمها: «كلامٌ فارغ، ويل، جميع المصابين بالتليف الكيسي يعرفون كيف يديرون علاجهم بأنفسهم، إننا عمليًّا أطباء منذ أن بلغنا الثانية عشرة».

أقول متحديًا وقد نزعتُ قناع وجهي: «حتى بالنسبة إلينا نحن، الأشقياء المدللون المتميزون؟». لم تجد تعليقي مسليًا، وبقي وجهها محبطًا وقلقًا، لم أعرف المشكلة الحقيقية، لكن من الواضح أنها تنخر فيها. هذا أكثر مما يعد مشكلات في التحكم، آخذ نَفَسًا عميقًا، وأتوقف عن الالتفاف: «هل أنت جادة؟ هل أسبب لك الانزعاج؟».

لا تجيب، ونقف هناك نحدِّق إلى بعضنا بعضًا في صمت، وشيء أقرب إلى التفهم يعبر بيننا. أخيرًا، أرجع خطوة إلى الوراء وأضع قناع الوجه مرة أخرى في عرض للسلام، قبل أن أستند إلى الجدار.

أقول وأنا أنظر إليها: «حسنًا، إذن، إذا وافقت على هذا، فما المقابل؟».

تضيق عينيها وتشد قلنسوتها الرمادية المرقطة أقرب إليها، أشاهدها، الطريقة التي ينزل فيها شعرها على كتفيها، الطريقة التي تفصح فيها عيناها عن كلِّ شيءٍ صغير تشعر به.

أقول قبل أن أتمكن من منع نفسي: «أريد أن أرسمك».

تقول وهي تهز رأسها بإصرار: «ماذا؟ لا».

أسأل: «لماذا؟ أنتِ جميلة».

اللعنة! لقد زلَّ لساني، تحدق إليَّ متفاجئة، وما لم أتخيله، تُسرُّ بعض الشيء: «شكرًا لك، لكن مستحيل».

أهز كتفيَّ وأبدأ المشي باتجاه الباب: «أعتقد أننا لم نتوصل إلى اتفاق».

- ألا يمكنك أن تُظْهِرَ بعض الانضباط؟ أن تلتزم بنظامك العلاجي؟ حتى لو كان من أجل أن تنقذ حياتك الخاصة؟

أتوقف فجأة، أنظر إليها من الخلف، إنها لا تعي ذلك، أواصل المسير في الممر، أقول وقد أدرتُ رأسي: «لا شيء سينقذ حياتي ستيلا، أو حياتك، كلُّ شخص في هذا العالم يتنفس هواءً مستعارًا».

أفتح الباب وأنا أوشك على المغادرة عندما يتردد صوتها من خلفي.

- أووه، حسنًا!

أستدير مصدومًا، وينطبق الباب.

تضيف: «لكن دون تعرٍّ». تخلع قناع وجهها وأستطيع رؤية شفتيها تتحول إلى ابتسامة، وهو أول شيء تعطيني إياه، لقد ألقت نكتة.

ستيلا جرانت ألقت نكتة.

أضحك وأنا أهز رأسي: «آه، كان عليَّ أن أعرف أنك ستجدين طريقة لتفسدي كلَّ المتعة في ذلك».

تقول وهي تعيد نظرها للطفلة: «لا لاتخاذ وضعيات لساعات متواصلة». تصبح تعابير وجهها فجأةً جدية: «ونظامك العلاجي.. سنطبقه على طريقتي».

أقول: «اتفقنا»، وأنا أعرف أنها مهما كانت تعني بـ «طريقتها»، فسوف تكون مصدرَ إزعاج ضخم.

- وودت لو أقول دعينا نتصافح على ذلك، لكن...

تقول وهي تنظر إليَّ: «مضحك»، ثم تومئ برأسها نحو الباب: «الشيء الأول الذي عليك أن تفعله هو حيازة عربة دواء في غرفتك».

أرفع يدي في تحية: «حالًا، عربة أدوية في غرفتي».

أفتح الباب وأنا أعطيها ابتسامة كبيرة تدوم على وجهي كلَّ طريق العودة للمصعد، أخرج هاتفي، أرسل رسالة نصية سريعة إلى جاسون «إليك هذا يا صاح: لقد أجريت صلحًا مع الفتاة التي حدثتك عنها».

لقد استمتع حقًّا بالقصص التي حدثته عنها فيما يخصها، لقد بكى من الضحك البارحة بشأن حادثة جرس إنذار الباب.

يرن هاتفي بردِّه، بينما يتباطأ المصعد ليتوقف عند الطابق الثالث: «لا بُدَّ وأن مظهرك يبدو جيدًا، من الواضح أنه ليس بسبب شخصيتك الساحرة».

أضع هاتفي في جيبي، وأنظر في أنحاء الزاوية لأتأكد أن قسم الممرضات ما زال خاليًا قبل أن أنزلق إلى داخل المصعد، أقفز عندما يتردد صدى اصطدام عالٍ لباب مفتوح.

يقول الصوت من الداخل: «أوه.. اللعنة!».

أختلس النظر لأرى ذاك الشاب ذا الشعر الداكن يرتدي بنطال بيجامة نوم وقميصًا لقناة فود نتوورك. يجلس على الأرضية، إلى جانب لوح تزلج مقلوب، ويفرك مرفقيه، بوضوح بعد أن سقط.

يقول وهو يقف ويلتقط اللوح: «أوه، مرحبًا، لقد فاتك العرض للتوِّ».

- هل تقوم بالأعمال البهلوانية هنا؟

يهز كتفيه: «ليس هناك مكان أكثر أمانًا لكسر ساق، بالإضافة إلى أن بارب للتوِّ انتهت مناوبتها».

وجهة نظر سديدة، أضحك وأنا أرفع يدي لأشكِّل موجة صغيرة: «لا يمكنك مجادلة المنطق، أنا ويل».

يقول وهو يبادلني الابتسامة: «بو».

نتناول كرسيين من غرفتينا ونجلسُ كلٌّ منا عند مدخل غرفته، من الجميل التحدث إلى شخص ما من هذا المكان لا يكون غاضبًا مني طوال الوقت.

- إذن، ما الذي جاء بك إلى سانت جريس؟ لم أَرَك هنا من قبل، ستيل وأنا نعرف تقريبًا كلَّ شخص يأتي إلى هنا.

ستيل.. إذن هما مقربان؟

أميل بكرسيي إلى الخلف، مسندًا إيَّاه إلى إطار الباب، وأحاول إلقاء قنبلة بكتيريا البيركهولدرية البصلية بطريقة عادية قدر الإمكان.

- علاج تجريبي لبكتيريا البيركهولدرية البصلية.

عادةً ما أتجنب إخبار المصابين بالتليف الكيسي لأنهم يجعلون منها نقطة ليتحاشوني كما لو أنني طاعون.

تتسع عيناه، لكنه لا يتحرك على الإطلاق.

يدحرج لوحه فحسب إلى الأمام والخلف تحت قدمه: «بيركهولدرية بصلية؟ هذا مجحف، منذ متى أصبت بها؟».

أقول: «منذ ثمانية أشهر». أتذكر عندما استيقظت ذات يوم وأنا أعاني مشكلات في التنفس أكثر من المعتاد، ثم لم أستطع التوقف عن السعال. ولأن أمي كانت مهووسة بكل نَفَسٍ أخذته طوال حياتي، أقلَّتني مباشرة إلى المستشفى لإجراء بعض الفحوصات، ما زلت أستطيع سماع صوت كعبيها

تطرقان بصوت عالٍ خلف الحمالة، وهي تصدر الأوامر للناس من حولها كما لو أنها كانت رئيسة الجراحين.

أعتقد أنها كانت مهووسة حتى قبل أن تظهر النتائج.

كانت دائمًا تبالغ في رد فعلها عند كل سعال شديد أو إجهاد تنفس، تخرجني من المدرسة أو تجبرني على إلغاء الخطط للذهاب إلى مواعيد الأطباء أو إلى المستشفى دون سبب.

أتذكر إعادة أداء الكورال الإلزامي في الصف الثالث عندما سعلتُ في منتصف أدائنا اللعين لـ «هذا الضوء القليل مني». لقد أوقفت حرفيًّا الحفل الموسيقي وسحبتني خارج المسرح للذهاب لإجراء فحص.

لكنني لم أكن أعرف ما الذي كنت أملكه، لقد أصبحت الأشياء الآن أكثر سوءًا مما كانت عليه في السابق، مستشفى عقب مستشفى، علاج تجريبي تلو علاج تجريبي، كلُّ أسبوع هو محاولة أخرى لإصلاح المشكلة، لعلاج مما لا شفاء منه.

كلُّ دقيقة من دون محلول أو دون التحدث عن الخطوة التالية هي دقيقة ضائعة.

لكن لا شيء سوف يعيدني لقائمة زرع الرئة، وكلُّ أسبوع نضيعه، يضيع معه أيضًا المزيد من وظيفة رئتيَّ.

أقول لبو وأنا أعيد قدمي الكرسي الأماميتين إلى الأرض: «إنها تستشري بسرعة هائلة، بدقيقة واحدة كنت أعلى قائمة الزرع، ثم بمسحة حلق واحدة لاحقة...». أبتلع ريقي، محاولًا ألَّا يظهر عليَّ الإحباط. وأهز كتفيّ: «أيًّا يكن».

لا معنى للتفكير بأسى بما كان من الممكن أن يكون.

يأخذ بو شهيقًا ويقول: «حسنًا، أنا واثق من أن هذا الموقف -وهو يقلِّد هزي لكتفيَّ مع قلبي لشعري- هو ما يدفع ستيلا إلى الجنون».

- يبدو أنك تعرفها جيدًا، لماذا كلُّ هذا على أيِّ حال؟ لقد قالت إنها مهووسة بالتحكم، لكن...

- سمِّه ما شئت، لكن ستيلا تمسك بزمام أمورها.

توقفَ عن تحريك لوحه وأعطاني ابتسامة كبيرة: «وتمسك بزمام أموري أيضًا».

- إنها متسلطة.

يقول بو، وبإمكاني القول من التعبير الذي بدا على وجهه أنه كان يعني ذلك: «كلا، إنها قائدة، لقد رأتني في السراء والضراء يا رجل».

ينتابني الفضول الآن، أضيق عينيَّ: «هل سبق لكما وأن...؟».

يقول بو وهو يميل رأسه إلى الوراء ليضحك: «ارتبطنا؟ يا رجل، مستحيل! لا لا لا».

أنظر إليه، إنها جذابة، ومن الواضح أنه يهتم بأمرها، كثيرًا، أجد من الصعب تصديق أنه لم يحاول الإتيان بحركة تجاهها قطُّ.

يقول: «أعني، أنه لسبب واحد، كلانا مصاب بالتليُّف الكيسي، حيثُ اللمس محظور». عندها يعطيني النظرة المقصودة: «لا يستحق الجنس الموت من أجله، إذا كنت تسألني».

آخذ شهيقًا وأنا أهز رأسي، من الواضح أن كلَّ شخص في هذا الجناح قد اكتفى فحسب بالجنس الذي «لا بأس به». لسبب ما، يعتقد الجميع أنك إذا أصبت بمرض ما أو اضطراب أو كنت سقيمًا، فستصبح قديسًا، وهذا مجرد كلام فارغ.

قد حسَّن مرض التليف الكيسي بالفعل حياتي الجنسية، إن وُجدت. علاوة على ذلك، الميزة الوحيدة للتنقل كثيرًا أنني لا أبقى في أيِّ مكان فترة كافية لتتحرك مشاعري، يبدو جاسون سعيدًا جدًّا منذ أن أُغرم بهوب، لكنني لست بحاجة حقًّا إلى المزيد من الورطات الكبيرة في حياتي.

يقول وقد عاد بانتباهي للحاضر: «ثانيًا، لقد كانت فعليًّا صديقتي المفضلة طوال حياتي». أقسم إن عينيه دمعتا.

أقول لأغيظه: «أعتقد أنك تحبها».

يقول بو كما لو كان الأمر بديهيًّا: «أوه، بالطبع نعم، أنا أعشقها، مستعد للتمدد على الجمر لأجلها، سأمنحها رئتيَّ إذا كانتا تساويان شيئًا».

اللعنة! أحاول تجاهل الغيرة التي تشتعل في صدري.

- إذن، لم أفهم، لماذا...

يقاطعني بو: «إنها صديقتي فحسب».

لست متأكدًا لماذا أنا مرتاح للغاية، لكنني مرتاح، أحدِّق إلى لوح الكتابة المعلق على الباب مباشرة فوق رأسه، وألاحظ قلبًا كبيرًا مرسومًا عليه.

إذا كانت ستيلا تحاول إن تبقيني على قيد الحياة أيضًا، فلا بُدَّ وأنها لا تكرهني تمامًا، صحيح؟

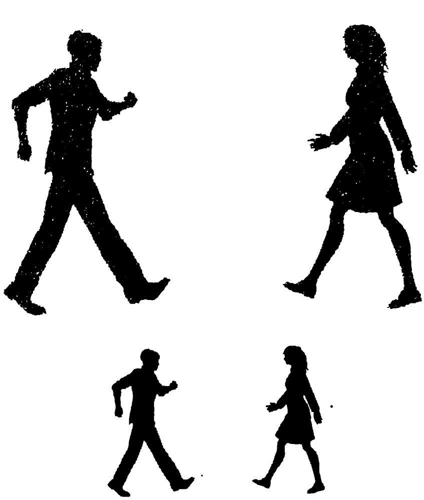

الفصل السابع

ستيلا

أقول: «أمهلوني عشر دقائق فحسب»، ثم أغلق الباب وأترك ويل وبو خارجًا في الممر.

أنظر في أنحاء غرفته بينما يُحمِّل تطبيقي على هاتفه، وأرى الملاحظة التي مررتها أسفل باب غرفته هذا الصباح على سريره.

«أرسِل إليَّ رسالة عندما تصبح عربة الأدوية بحوزتك. 5553295 (718)، سأفرغُ بعد ظهر اليوم لأعدَّ كلَّ شيء».

عرفت أنه سيكون أمرًا بالغ الصعوبة، خصوصًا وأن ويل وبارب ليسا على وفاق تام، لذلك لن تدافع عنه، لكنه تجاوزها وتمكن من استمالة الطبيبة حاميد. ألتقط الملاحظة، فأرى أنه قد رسم رسمًا كاريكاتوريًّا صغيرًا على طول الحافة، لشخصية بارب الغاضبة في زيِّها الملون المميز، تدفع بعربة الدواء وتصيح: «لا تجعلني أندم على ذلك».

أهز رأسي، وقد تسللت ابتسامة إلى شفتيَّ بينما أعيد الملاحظة وأمشي إلى عربة الأدوية.

أعيد ترتيب بعض عبوات الدواء، وأتأكد أكثر من مرة أن كلَّ شيء في الترتيب الزمني ذاته كما برمجتهُ في التطبيق بعد إحالته المرجعية إلى نظامه العلاجي بغلاف دونكي كونج.

أتفقد حاسوبه المحمول لمرتين لأرى كم تبقَّى من التحميل ليكتمل من الرابط الذي أرسلته إليه، محاولة ألا أتنفس أكثر مما ينبغي في هذه الغرفة المثقلة ببكتيريا البيركهولدرية البصلية.

اكتمل تحميل 88%.

قلبي يقفز بينما أسمع ضجة في الممر خارجًا، وأزيح يدي بعيدًا وبسرعة عن لوحة المفاتيح، قلقًا من أن يُقبض علينا. رجاءً لا تكوني بارب، رجاءً لا تكوني بارب، يجدر بها أن تكون في استراحة الغداء، لكنها إذا كانت قد عادت للتوِّ، وتجري بعض جولات ما بعد الظهيرة ليوم الاثنين، فسوف تقتلني.

يصدر صدى خطوات ويل ذهابًا وإيابًا، ذهابًا وإيابًا خلف الباب، بينما أمشي على أطراف أصابعي إلى الباب، وأكاد ألصق أذني عليه، لكنني أشعر بالارتياح لسماعي صوتيْهما فقط.

يقول بو: «مسحت كلَّ شيء، صحيح؟».

يرد ويل: «بالطبع فعلت، مرتين، لنكون بأمان».

- أعني، للتأكد، لم تكن تلك فكرتي، أنت تعرف.

أعدل الرداء العازل فوق زيِّي القابل للاستخدام لمرة واحدة، وأجذب الباب لفتحه، محدقة إليهما من تحت نظارتي الوقائية.

يدور بو بلوح تزلجه ليقابلني: «أوه يا ستيلا! هل أخبرتك كم تبدين جميلة اليوم؟».

ينفجر هو وويل ضاحكين للمرة الثالثة على بدلتي الوقائية البدائية، أحملق فيهما، ثم ألقي نظرة خاطفة على الممر.

- ما يزال خاليًا؟

يندفع بلوحه بعيدًا ويمر ببطء بجانب قسم الممرضات، ناظرًا إلى المكتب.

يرفع إبهاميه في اتجاهي: «أسرعي فقط».

أقول وأنا أعود للغرفة وأغلق الباب: «أوشكت على الانتهاء».

أتأمل عربة الأدوية، أطلق تنهيدة من الرضا عن مدى تنظيمها بدقة، لكن بعدها أرى المكتب الذي يضع عليه حاسوبه، والذي ليس...أبدًا. أتقدم وألتقط مجموعة من أقلام التلوين، وأعيدها بسلامة إلى حاملة الأقلام الخاصة بها، أرتب المجلات ودفاتر الرسم، وأتأكد من أنها منظمة حسب حجمها، وبينما أفعل ذلك، تسقط قطعة من الورق.

إنه كاريكاتير لصبيٍّ يشبه ويل إلى حد كبير يحمل زوجين من البالونات ويدفع الهواء داخل رئتين تبدوان منكمشتين، وجهه أحمر من الجهد، أبتسم، وأقرأ الشرح في الأسفل: «تنفَّسي فحسب».

إنه جيد حقًّا.

أمد يدي، وأتتبع برفق رئتَي ويل، كما أفعل مع رسم آبي، أنزل أناملي المغطاة بالقفازات على الرسم الكاريكاتوري لويل، خطُّ فكه الحاد، شعره الجامح، عيناه الزرقاوان، والقميص الخمري ذاته الذي كان يرتديه على السطح.

كلُّ ما ينقصه هو الابتسامة.

أنظر إلى الحائط، فأجد أن لديه رسمًا كاريكاتوريًّا قديمًا معلقًا فوق سريره مباشرة، ألتقط مسمارًا من إناء صغير وأعلق رسمه الكرتوني على الحائط أسفله.

يرن الحاسوب في غمضة عين، فأتقدم إليه، اكتمل التنزيل، أستدير وأمشي إلى مكتبه وأفصل الهاتف المحمول، بعد التأكد من كلِّ شيء، أفتح الباب وأرفع الهاتف لويل غير الكرتونيِّ.

يمد يده لالتقاطه مني، معدلًا قناع وجهه بيده الأخرى.

أهز كتفي بعفوية: «لقد صممت تطبيقًا للأمراض المزمنة، متضمنًا المخططات الطبية، والجداول الزمنية، سوف ينبهك عندما تحتاج إلى تناول دواء أو تلقي علاج...».

يقاطعني وهو ينقل نظره بين الهاتف وبيني مندهشًا، وقد اتسعت عيناه الزرقاوان: «صممت تطبيقًا؟ هل هذا يعني أنك صممتِه بنفسك؟».

- خبر عاجل، الفتيات بإمكانهن البرمجة.

يرن هاتفه، فأرى صورة عبوة دواء قد ظهرت على شاشته، أقول له: «إيفاكافتور. 150 ميللي جرام». سحقًا، أنا بالفعل أشعر أنني أفضل.

أرفع حاجبي في وجه ويل، الذي يعطيني نظرة عدم سخرية ولو لمرة واحدة، إنه مذهول، جيد: «تطبيقي بسيط جدًّا لدرجة أن الصبية تستطيع فهمه».

أمضي قدمًا، وأنا أتمايل بفخذيَّ غير الموجودين بثقة، تحمرُّ وجنتاي بينما أتجه إلى حمامٍ عامٍّ على الجهة الأخرى من الطابق لا يستخدمه أحد.

تُنار الأضواء عندما أقفل الباب خلفي، أتخلص من القفازات وألتقط بعض المناديل المطهرة من الصندوق المستدير إلى جانب الباب، وأغسل يديَّ أكثر من ثلاث مرات. أتنهد ببطء، أنزع كلَّ شيء كنت أرتديه؛ الحذاء وغطاء الرأس وقناع الوجه والملابس الواقية، أرميها جميعها في سلة المهملات، وأدفعها إلى الأسفل وأغلق الغطاء قبل أن أتجه إلى المغسلة.

أشعر بشيء يمشي على جسدي، كما لو كان بإمكاني أن أشعر ببكتيريا البيركهولدرية البصلية تبحث عن طريق لتنزلق داخلي وتنخر فيَّ.

أصلُ إلى المغسلة وأدير الحنفية، فتتدفق المياه الساخنة بصوت عالٍ، أسند يدي إلى البورسلين، وأنا أنظر إلى نفسي في المرآة، واقفة بحمالة صدري وثيابي الداخلية، مجموعة من الندوب البارزة تغطي صدري ومعدتي إثر الجراحة تلو الأخرى، أضلاعي تندفع من خلال جلدي عندما أتنفس، والزاوية الحادة لعظم الترقوة قد أصبحت أكثر حدة في الإضاءة الخافتة للحمام. الاحمرار حول أنبوب معدتي ازداد سوءًا، لا بُدَّ وأن عدوى ما قد بدأت بالتشكل.

أنا نحيلة جدًّا، مثخنة بالندوب... أقابل عينيَّ العسليتين في المرآة.

لماذا يريد ويل أن يرسمني؟

يتردد صدى صوته في رأسي، يدعوني بالجميلة، يجعل ذلك قلبي يتخبط على نحو لا يجدر به.

يبدأ البخار بالتخييم على المرآة، مشوشًا الصورة. أشيح بنظري، وأضخ الصابون حتى يفيض من يدي. أنظف به يديَّ وذراعيَّ ووجهي، وأغسل كلَّ شيء أسفل الحوض وبعيدًا عنه، ثم أطبق بعضًا من مطهر اليدين المركز لأسباب وجيهة.

أجفف نفسي، وأفتح غطاء سلة ثانية وأسحب منها حقيبة من الملابس كنت قد وضعتها هناك بحذر منذ ساعة في أثناء طريقي إلى غرفة ويل، عندما أرتدي ثيابي، أحدق إلى المرآة مرة أخرى قبل أن أغادر الحمام بحذر، وأتأكد أن أحدًا لم يَرَني أخرج. جيدة وكأنها جديدة.

أتمدد على سريري، أنظر إلى قائمة مهامي ليوم الاثنين بقلق، لكن بدلًا منها أواصل تصفح مواقع التواصل الاجتماعي على هاتفي، أضغط على قصة كاميليا على الانستجرام، وأشاهدها للمرة المليون وهي تلوح بسعادة إلى الكاميرا من قارب كاياك، وتمسك الهاتف فوق رأسها لتظهر ميا وهي تجدف بجنون خلفها.

منذ العملية السرية الخطرة، أقضي وقتي في الاندماج في كابو بشكل غير مباشر من خلال قصص زملائي في الصف على الانستجرام، فقد غصت في المياه الزرقاء الصافية مع ميليسا، وأبحرت مع جودي لأرى قوس كابو سان لوكاس، وتشمست على الشاطئ مع بروك الذي -على ما يبدو- ليس محطم القلب بدرجة كبيرة.

وبينما أكون على وشك الضغط على التحديث لمرة أخرى، يُطرق على الباب وتطل بارب برأسها منه. تنظر لوهلة إلى عربة الأدوية خاصتي وأكون متيقنة تمامًا مما هو قادم: «هل كنت في غرفة ويل؟ ترتيب عربته يبدو.. مشابهًا بشكل رهيب».

أهز رأسي، لا، لم أكن أنا، من ميزات كوني فتاة مجتهدة أن بارب على الأرجح ستصدقني.

أشعر بالارتياح عندما يرن حاسوبي المحمول بإشعار من برنامج فيس تايم، وتظهر صورة بو على الشاشة، أتجمد قبل أن أرد عليه، إذ أريد بصمت ألا يقول أيَّ شيء بشأن ويل بينما أدير حاسوبي.

- انظر مَن عاد لتوِّه من استراحة الغداء!

لحسن الحظ، يتنقل على الفور بعينيه ليرى بارب تقف عند المدخل، ويُحجم عن أي تعليق كان علىٰ وشك قوله.

يبتلع ريقه: «أوه! مرحبًا بارب». تبتسم بارب له بينما تبدأ بالثرثرة عن مثلجات الكمثرى مع شيء ما من الانخفاض، أشاهدها بينما تغلق الباب ببطء، تدق نبضات قلبي في أذنيَّ إلى أن أسمع النقرة الخفيفة لمزلاج المقبض يدخل في مكانه.

أزفر ببطء وبو ينظر إليَّ.

«اسمعي، أفهم ما الذي تفعلينه، إنه لطيف». يبدو مناسبًا داخل روحي المغرمة كالعادة: «لكن هذا الأمر مع ويل، هل هو حقًّا الفكرة الأفضل؟ أعني، أنت من بين كل الناس تعرفين جيدًا».

أهز كتفي، لأنه على حق، أعرف جيدًا، أليس كذلك؟ لكنني أيضًا أعرف أكثر من أي شخص آخر كيف أكون على حذر: «إنهما أسبوعان فقط، وسأخرج من هنا، بإمكانه ترك علاجه بعد ذلك، لا أهتم».

يرفع حاجبيه في وجهي مبتسمًا: «مراوِغة عالية المستوى، أحسنتِ صنعًا».

يعتقد أنني مفتونة بويل، مفتونة بالصبي الأكثر تهكمًا وإزعاجًا -ناهيك بالعدوى- الذي سبق وقابلته.

حان الوقت لتغيير الموضوع.

أقول: «لا أراوغ بأيِّ شيء».

يتجاهلني ويغيِّر الموضوع على الفور: «رجاءً، لا تخبريني أنه في المرة الوحيدة التي تفتنين بها أخيرًا بشاب، أنه مصابٌ بالتليف الكيسي».

أقول في غضب: «لقد ساعدته فحسب في ترتيب عربة أدويته، بو! أن تريد لشخصٍ ما أن يعيش لا يعني أنك تريده هو».

لا آبه لأمر ويل، لا أتمنى الموت، وإذا أردت أن أواعد حقيرًا، فهناك الكثير من غير المصابين بالتليف الكيسي لأختارهم، هذا سخيف!

- أليس كذلك؟

- أنا أعرفك ستيلا، ترتيب عربة الأدوية يعد كالمداعبة لديك.

يتفرَّس في وجهي ليعرف ما إذا كنت أكذب، أدور عينيَّ وأغلق الحاسوب قبل أن يكتشف أيٌّ منا ما إذا كنت كذلك.

أسمع صوته المنزعج يصدح لي في الممر: «إنهم يسمونها آداب السلوك»، متبوعًا بصوت باب غرفته يوصد بقوة بعد بضع لحظات.

يهتز هاتفي فألتقطه لأرى رسالة من ويل.

«شجار أحبة؟».

تنكمش معدتي مجددًا، لكنني أحك أنفي، وأوشك على حذف الرسالة، ثم يظهر منبه الساعة الرابعة لارتداء السترة الهزازة على شاشة هاتفي، وهو رسمة صغيرة لعبوة دواء تتراقص، أعض على شفتي، وأنا أعرف أن ويل قد تلقى الإشعار ذاته، لكن هل سيمضي قدمًا؟

الفصل الثامن

ويل

ظلَّلتُ بعناية شعر بارب، وملت إلى الخلف لأنظر إلى اللوحة التي رسمتها لها وهي تحمل مذراتها، وبينما أومئ برأسي في رضا، يبدأ هاتفي بالاهتزاز بصخب على مكتبي، وقد جعل أقلام التلوين تتراقص، إنها ستيلا، عبر برنامج فيس تايم.

أتفاجأ، أمد يدي لأوقف أغنية بينك فلويد على حاسوبي، وأسحب إلى اليمين لقبول المكالمة.

تقول بينما تظهر عيناها المتسعتان في الصورة: «عرفت ذلك، أين سترتك الهزازة؟ يفترض بك أن تبقيها لخمس عشرة دقيقة أخرى، وهل تناولت الكريون الخاص بك، أراهن أنك لم تفعل».

أُزيِّفُ صوتًا آليًّا: «عذرًا، لقد طلبت رقمًا لم يعد في الخدمة.. إذا كنت تشعر أنك وصلت إلى هذا التسجيل عن طريق الخطأ...».

تقول متقاطعة مع انطباعي القاتل: «ألا يمكنك أن تكون جديرًا بالثقة؟ إذن، إليك كيف سيسير العمل. سوف نتلقى علاجنا معًا لأعرف أنك تتلقاه بالفعل».

أدسُّ القلم الذي كنت أستخدمه خلف أذني، متظاهرًا بالبرود: «دائمًا ما تبحثين عن طرق لقضاء وقت أطول معي».

تغلق الخط في وجهي، لكن أقسم إنني رأيت ابتسامتها للحظة.

مثيرٌ للاهتمام.

بقينا على تواصل عبر السكايب معظم اليومين التاليين، ومن المدهش أنه لم يكن كله إصدارًا للأوامر. لقد أرتني تقنيتها في تناول الدواء مع بودينغ الشوكولا، والذي يعد عبقريًّا ولذيذًا، تنفسنا من خلال أجهزة الرذاذ الخاصة بنا، وأوصلنا المحلول الوريدي خاصتنا، ووضعنا علامات على العلاج والأدوية معًا في تطبيقها، لكن ستيلا كانت محقة منذ يومين. لسبب ما، فإن تناولي لعلاجي يساعدها على الاسترخاء، فقد أصبحت تدريجيًّا أقل عصبية شيئًا فشيئًا.

ولن أكذب، حتى بعد مرور يومين، أصبحت طريقة أسهل للنهوض من الفراش صباحًا، ومن المؤكد أنني أتنفس بشكل أفضل.

في فترة ما بعد الظهيرة من اليوم الثاني، أبدأ في ارتداء سترتي الهزازة، أقفز متفاجئًا عندما تقتحم بارب الغرفة، أستعد لشجار الساعة الرابعة المعتاد لدينا، إنها تكسب العراك دائمًا في وضع السترة لي بعد أن تهدد بحجزي في عزلة، لكن هذا لا يمنعني من محاولة التفلت منها.

أغلق حاسوبي المحمول، منهيًا فجأةً مكالمتي على سكايب مع ستيلا بينما أحدق أنا وبارب إلى بعضنا بعضًا في نزاعٍ غربي كلاسيكي قديم. تُنقِّل نظرها بيني وبين السترة الهزازة، يذوب الجمود الذي يكسو وجهها ليتحول إلى تعبير مصدوم.

- لا أصدق عينيَّ، أنت تضع سترتك الهزازة.

أهز كتفي، كما لو أنه ليس بالأمر المهم، ألقي نظرة على الضاغط لأتأكد أن كلَّ شيء موصول كما يجب. بدا جيدًا بالنسبة إليَّ، لكن حتمًا قد مر وقت طويل منذ أن فعلت ذلك بنفسي: «إنها الرابعة، أليس كذلك؟».

تدور عيناها وترمقني بنظرة.

تقول قبل أن تنزلق خارج الباب: «ضعها كامل الوقت».

كان الباب بالكاد يغلق قبل أن أفتح حاسوبي المحمول، وأتصل بستيلا على سكايب بينما أستلقي رأسًا على عقب على السرير، وسلة السرير الزهرية في يدي للتخلص من البلغم.

أبدأ المكالمة بقول: «مرحبًا، أعتذر عن ذلك، بارب...». يتابع صوتي: «هل أنت بخير؟»، عندما ألاحظ تعبير الحزن على وجهها، وشفتيها الممتلئتين مقلوبتين إلى الأسفل في عبوس وهي تحدِّق إلى هاتفها.

تقول: «نعم»، تنظر إليَّ وتأخذ نفسًا عميقًا: «صفي بأكمله في كابو ضمن رحلة مدرستنا الثانوية». تدير هاتفها لتريني صورة على الانستجرام لمجموعة من الأشخاص بملابس السباحة والنظارات الشمسية والقبعات، يتظاهرون بالسعادة على شاطئ رملي.

تهزُّ كتفيها، وتضع هاتفها جانبًا، أستطيع سماع اهتزاز سترتها عبر الحاسوب، طنينها المنتظم متزامن مع سترتي.

- أنا منزعجة قليلًا فحسب لأنني لست هناك.

أقول: «أتفهم ذلك». أفكر في جاسون وهوب وكلِّ أولئك الذين افتقدتهم خلال الشهور القليلة الماضية، أعايشهم بشكل غير مباشر من خلال رسائلهم، وخلاصة وسائل التواصل الاجتماعي.

تقول: «لقد خططت لكل شيء هذه السنة أيضًا»، وهو ما لا يدهشني، إنها على الأرجح قد خططت لكل خطوة سبق واتخذتها.

أسأل بفضول: «ووالداك؟ يدعانك تذهبين؟».

حتى قبل إصابتي ببكتيريا البيركهولدرية البصلية، كانت أمي تستبعد الفكرة، لطالما كانت عطلات المدرسة بالنسبة إليَّ أوقاتًا للاستماع إلى الموسيقى.

تومئ برأسها، والفضول يملأ عينيها لسؤالي: «بالطبع، إذا كنت بصحة جيدة بما يكفي، والداك ليسا كذلك؟».

- لا -بالطبع- ما لم يكن هناك مستشفى يدَّعي أن لديه علاجًا سحريًّا جديدًا بالخلايا الجذعية لبكتيريا البيركهولدرية البصلية.

أجلس وأسعل كومة كبيرة من البلغم في سلة السرير، أستلقي مجددًا وأنا مكشِّر، أتذكر لماذا واصلتُ في ذلك قبل أن تبدأ بالفعل. «بالإضافة إلى ذلك، لقد كنت هناك بالفعل، إنه لمكانٌ جميل».

تسأل بلهفة، وهي تسحب الحاسوب أقرب إليها: «كنت هناك؟ كيف كان يبدو؟».

تبحر الذاكرة الضبابية في التركيز، أستطيع رؤية والدي يقف إلى جانبي على الشاطئ، الموج يسحب أقدامنا، ورؤوس أصابعنا تغوص في الرمال: «نعم، ذهبت إلى هناك مع والدي عندما كنت صغيرًا، قبل أن يرحل». أنا عالق في الذاكرة لدرجة أنني لا أستوعب ما أقوله، لكن كلمة «والدي» تبدو غريبة على لساني.

لماذا أخبرها بذلك؟ لم أخبر أحدًا هذا قطُّ، لا أعتقد أنني ذكرت والدي منذ سنوات.

تفتح فمها لتقول شيئًا ما، لكنني سرعان ما أغير الموضوع لأعود للحديث عن المناظر الخلابة لكابو. هذا لا يتعلق به. «الشواطئ جميلة، والمياه صافية، علاوة على أن الجميع ودود للغاية ومبتهج».

أرى الإحباط يزداد في عينيها مع استعراضي الخطابي، لذلك ألقي حقيقة غريبة سمعتها على قناة السفر: «أوه، يا رجل، لكن التيارات هنا قوية للغاية! على الأرجح لن تحظى بفرصة للسباحة، ربما باستثناء، مثلًا، ساعة أو اثنتين في اليوم، أنت تشوي فقط على الشاطئ لمعظم الوقت، إذ لا يمكنك دخول الماء».

تسأل: «حقًّا؟»، وهي تنظر بشك ولكن بامتنان لمحاولتي.

أومئ برأسي وأنا أشاهد بعض الحزن يتلاشى من على وجهها.

نعود للاهتزاز، ويخيم علينا صمت مريح.

بالطبع باستثناء لفظ الرئتين للبلغم من حين لآخر.

بعدما نفرغ من استخدام ستراتنا الهزازة، تغلق ستيلا المكالمة لتجري مكالمة مع أمها وتتفقد أصدقاءها في كابو، متعهدة بأن تعاود الاتصال بي في الموعد المحدد لجرعاتنا المسائية.

تمر الساعات ببطء من دون وجهها المبتسم على الجهة المقابلة على شاشة حاسوبي، أتناول العشاء وأرسم وأشاهد فيديوهات على اليوتيوب، تمامًا كما اعتدت على تضييع الوقت قبل تدخُّل ستيلا، لكن كلَّ ذلك يبعث على المزيد من الملل الآن. لا يهم ما أفعل، وجدت نفسي ألقي نظرة على شاشة الحاسوب: في انتظار وصول مكالمة السكايب بينما تدق الثواني بوتيرة متثاقلة.

يهتز هاتفي بصخب إلى جانبي فألقي نظرة عليه، لكنه يكون إشعارًا من تطبيقها فحسب، يخبرني أن الوقت قد حان لتناول جرعاتي المسائية، ووضع أنبوب التغذية لمعدتي، أنظر خلفي إلى طاولة السرير، حيث وضعت مسبقًا كوبًا من بودينغ الشوكولا وأدويتي، جاهزة لأتناولها.

كعقارب الساعة، تضيء شاشة حاسوبي، لتصل مكالمة ستيلا التي طال انتظارها.

أمر على زر القبول، وأنا أكبت ابتسامتي بينما أنتظر عدة ثوانٍ لتبدأ المكالمة، وأصابعي تنقر على لوحة التتبع، أنقر على الموافقة وأتظاهر بتثاؤب كبير عندما يظهر وجهها على شاشتي، وألقي نظرة بعفوية على هاتفي.

- هل حان موعد الجرعات المسائية حقًّا؟

تعطيني ابتسامة كبيرة: «لا تقل لي هذا، أرى أدويتك خلفك على طاولة سريرك».

شيء محرج، أفتح فمي لأقول شيئًا لكنني أهز رأسي، وأدعها تحظى بذلك فقط.

نتناول أدويتنا معًا، ثم نخرج أكياس أنبوب التغذية لإعدادها لليل، بعد تدفق السائل داخلها، نعلق الأكياس ونوصل الأنابيب، ونضبط معدل الضخ

حسب الوقت الذي سننامه، أتعثر مع خاصتي، وألقي نظرة خاطفة على ستيلا لأتأكد أنني أضعه بشكل صحيح. لقد مرت دقيقة منذ أن أوصلته بنفسي، بعد ذلك نملأ المضخة لإخراج كل الهواء، تتلاقى أعيننا بينما ننتظر السائل ليشق طريقه عبر الأنبوب.

أبدأ بدندنة أغنية برنامج جيوباردي في أثناء انتظارنا، ما يجعلها تضحك.

تقول ستيلا: «لا تنظر» عندما أوشك السائل على الوصول إلى الأنبوب، ترفع قميصها بما يكفي لتثبيت أنبوب معدتها.

تنظر بعيدًا، وأنا أخفي ابتسامتي وأستنشق بحدة، وأنا أنثني بقدر ما أستطيع بينما أرفع قميصي وأثبت الأنبوب إلى الزر الخارج من معدتي.

ألقي نظرة عليها، فألاحظ عينيها خلال محادثة الفيديو.

أقول وأنا أنزل قميصي بينما تُدوِّر عينيها: «خذي صورة، سوف أدوم لوقت أطول». يزهرُ خداها بعض الشيء.

أجلس على سريري، وأسحب حاسوبي ليصبح أقرب إليَّ.

تتثاءب وهي تفرد كعكة شعرها فيتساقط شعرها البني الطويل بلطف على كتفيها، أحاول ألَّا أحدِّق، لكنها تبدو جميلة، أكثر مما تبدو عليه في الفيديوهات، مسترخية وسعيدة.

أقول وهي تفرك عينيها بنعس: «عليك أن تنالي قسطًا من النوم».

أضحك: «لقد قضيت عدة أيام مليئة بإلقاء الأوامر عليَّ».

تومئ برأسها وهي تضحك.

- ليلة سعيدة، ويل.

أقول وأنا متردد قبل أن أضغط على زر إنهاء المكالمة وأغلق حاسوبي: «ليلة سعيدة، ستيلا».

أستلقي على ظهري، وأنا أضع يدي خلف رأسي، تبدو الغرفة هادئة على نحو غير مريح على الرغم من أنني لا أزال وحدي هنا، لكنني بينما أتقلب وأطفئ الضوء، أدرك لأول مرة منذ وقت طويل، أنني لا أشعر بالوحدة حقًّا.

الفصل التاسع

ستيلا

تعبس الطبيبة حاميد وأنا أرفع قميصي، تقطب حاجبيها الداكنين معًا بينما تنظر إلى الجلد المصاب حول أنبوب التغذية. أرمش بعينيَّ وهي تلمس بلطف الجلد الأحمر الملتهب، وتتمتم -على ردٍّ فعلي- باعتذار.

عندما استيقظت هذا الصباح، لاحظت أن الإصابة باتت أسوأ، عندما رأيت الإفرازات تنزُّ حول الفتحة، اتصلت بها على الفور.

بعد دقيقة من الفحص وقفت أخيرًا، وتنهدت.

- دعينا نجرب الباكتروبان، ونرى كيف ستبدو عليه في غضون يوم أو اثنين، قد يكون بإمكاننا تنظيفها، حسنًا؟

أنزل قميصي، وأرمقها بنظرة شك، لقد كنت بالفعل في المستشفى لأسبوع، وبينما زالت الحمى وشُفِي التهاب حلقي، هذه الوحيدة التي أضحت أسوأ. تمد يدها وتمنح ذراعي ضغطة مريحة، على الرغم من أنني تمنيت أن تكون على حق، لأنها إذا لم تكن كذلك، فهذا يعني الجراحة، وهذا سيُقلق أبي وأمي.

يبدأ هاتفي في الرنين فألقي نظرة عليه، متوقعةً أن يكون ويل، لكنني أرى رسالة من أمي:

«في الكافيتيريا لتناول الغداء؟ قابليني في غضون خمس عشرة دقيقة».

خمس عشرة دقيقة يعني أنها قد خرجت وهي في الطريق، لقد كنت أؤجلها طوال الأسبوع، وأقول لها إن الأشياء روتينية للغاية، لقد شعرت بالملل، لكنها الآن لن تقبل بالرفض كجواب، أجيب بنعم وأتنهد، أقف لأبدل ملابسي: «شكرًا، دكتورة حاميد».

تبتسم لي وهي تغادر: «أبقيني على اطلاع ستيلا، ستبقى بارب أيضًا تراقب الالتهاب».

أرتدي زوجين نظيفين من اللباس الداخلي وقميصًا، وأكتب ملاحظة لإضافة الباكتروبان إلى الجدول الزمني في تطبيقي، ثم أتجه إلى المصعد وأعبر إلى البناء 2. كانت أمي تقف خارج الكافيتيريا عندما وصلت إلى هناك، وشعرها مربوط على طريقة ذيل حصان بشكل فوضوي، والهالات السوداء تحتشد تحت عينيها.

تبدو أنحل مما أبدو عليه أنا.

أعانقها عناقًا كبيرًا، محاولة ألا يبدو عليَّ شيء عندما تحتكُّ بمكان أنبوب التغذية، تسألني وعيناها تتفحصانني: «هل كلُّ شيءٍ على ما يرام؟».

أومئ برأسي: «رائع! العلاج سلِس، تنفُّسي في تحسُّن».

أسألها وأنا أتفرس وجهها: «كلُّ شيء يسير على ما يرام معك؟».

تومئ برأسها وتعطيني ابتسامة كبيرة لا تكاد تصل إلى عينيها: «نعم، كلُّ شيء جيد».

نقف في طابور طويل ونأخذ أطباقنا المعتادة، سلطة السيزر لها، وبرجر مع مخفوق الحليب لي، وطبق مملوء بالبطاطس المقلية نتشاركه معًا.

نتمكن من الحصول على مقعد في الزاوية إلى جانب زجاج النافذة الواسع، تفصلنا عن أيِّ شخص آخر مسافة مريحة. ألقي نظرة إلى الخارج

بينما نتناول الطعام لأرى ما إذا كان الثلج يواصل الهطول بهدوء، وغطاء أبيض يتراكم على الأرض باطراد، أتمنى أن تغادر أمي قبل أن يزداد الوضع سوءًا في الخارج.

أنهي طبق البرجر و75% من طبق البطاطس في الوقت الذي تتناول فيه أمي نحو بضع لقيمات من طبق السلطة خاصتها. أطالعها وهي تتناول طعامها ببطء، ووجهها متعب، تبدو أنها عادت لتصفح جوجل حتى ساعات الصباح الأولى، تقرأ الصفحة تلو الصفحة، ومقالًا عقب المقال، عن زراعة الرئة.

كان أبي الشخص الوحيد القادر على أن يبقيها هادئة، يسحبها من دوامة القلق بنظرة، ويريحها بطريقة لا يستطيع فعلها أي شخص آخر.

- أمي، النظام الغذائي للطلاق لا يبدو ملائمًا لك.

ترفع نظرها إليَّ مندهشة: «ما الذي تتحدثين عنه؟».

- أنت نحيلة للغاية، وأبي يحتاج إلى حمام، أنتم يا رفاق تسرقون مظهري المعتاد.

أردت أن أقول: «ألا ترين أنكما بحاجة إلى بعضكما بعضًا».

تضحك وهي تختطف مخفوق الحليب خاصتي.

أصرخ: «لا»، بينما تأخذ رشفة درامية، أغوص عبر الطاولة، محاولة أن أستعيده بالقوة، لكن الغطاء يتطاير، ويغطي بالطبع شوكولا مخفوق الحليب كلا وجهينا، وللمرة الأولى منذ وقت طويل، ننفجر ضاحكتين.

تأخذ أمي كومة من المناديل، وتمسح برفق المخفوق عن وجهي، فجأة تفيض عيناها بالدموع، أمسك بيدها عابسة.

- أمي، ماذا هناك؟

- أنظر إليك وأفكر... لقد قالوا إنك لن....

تهز رأسها وتحضن وجهي بكلتا يديها، والدموع تنذرف من عينيها «لكن ها أنت ذي. وقد كبرت، وأصبحت جميلة، تواصلين إثبات أنهم مُخطئون».

تلتقط منديلًا وتمسح به دموعها: «لا أعرف ما بوسعي فعله من دونك».

تتألم أحشائي داخلي: «لا أعرف ما بوسعي فعله من دونك».

أبتلع اللقمة بصعوبة، وأضغط على يدها لأطمئنها، لكن عقلي يسافر على الفور إلى أنبوب التغذية، جداول البيانات، التطبيق. الـ 35% العملاقة التي تجثم فعليًّا على صدري، حتى أجري عملية زرع الرئة، لن أدع هذا الرقم يرتفع، إلى أن يحدث ذلك، أنا الشخص الوحيد الذي بإمكانه أن يبقيني على قيد الحياة، وعليَّ ذلك، عليَّ أن أبقى حية.

وذلك لأنني على يقين أن بقائي على قيد الحياة هو الشيء الوحيد الذي يبقي والديَّ واقفين على أقدامهما.

بعد مغادرة أمي، أتجه مع ويل إلى الصالة الرياضية، لأنني أريد تقوية رئتيَّ الضعيفتين قدر الإمكان، أوشك على إخباره بعدم المجيء لأتمكن من التفكير في كلِّ شيء، لكنني أعرف على الأرجح أن قدمه لم تطأ الصالة الرياضية منذ فترة طويلة.

علاوة على ذلك، فإنَّ قلق والديَّ المشترك وذاك التفكير سيكونان عبئًا كبيرًا عليَّ لأستطيع التركيز في أي شيء آخر، على الأقل، إن ذهاب ويل إلى الصالة الرياضية مشكلةٌ يمكنني حلها فورًا.

بدأت أدوس على الدراجة الثابتة، لم أعد أفكر في تمارين بعد الظهيرة منذ أن أصبحت الصالة الرياضية أحد أجمل الأماكن في المستشفى بأسره، لقد حدَّثوها منذ ثلاثة أعوام، وضاعفوا حجمها فعليًّا أربع مرات، وضعوا فيها ملاعب لكرة السلة، ومسبح مياه مالحة، وأجهزة هوائية جديدة لامعة، ورفوفًا ورفوفًا من الأوزان الحرة، هناك حتى غرفة منفصلة كاملة لممارسة اليوجا والتأمل، مع نوافذ واسعة تطل على الفناء. قبل ذلك كانت الصالة الرياضية غرفة قديمة قذرة، فيها مجموعة من الأثقال غير المتطابقة والأجهزة المتهالكة التي تبدو أنها صنعت في السنة التي تلت تقريبًا اختراع العجلة.

أنظر فأرى ويل متشبثًا بجهاز الجري خوفًا على حياته، يلهث ليلتقط أنفاسه بينما يمشي، وأكسجينه المحمول معلق على كتفيه بذاك الأسلوب الرائج الكلاسيكي لممارسة المصابين بالتليُّف الكيسي التمارين.

لقد سحبته فعليًّا إلى هنا، وعليَّ الاعتراف، إنه من الممتع بالنسبة إليَّ أن أراه يركز بشدة على أن يكون ساخرًا، لم يتمكن حتى من استخدام عذر «مُنعت من مغادرة الطابق الثالث»، لأن بارب في مناوبتها الليلية اليوم، وجولي كانت أكثر من متحمسة لتجعل ويل يفعل شيئًا ما يحسن بالفعل من وظيفة رئتيه وصحته العامة.

يتمكن من الخروج، وينظر عبر الغرفة بأكملها إليَّ بينما أدوِّس: «إذن، متى سيصبح اتفاقنا الصغير نفعيًّا بشكل متبادل؟».

يبطئ السرعة، وهو يلفظ الكلمات بين أنفاسه: «لقد فعلت كلَّ شيء طلبته دون عائد على استثماري».

أقول ونقطة من العرق تسقط على وجهي: «أنا مقززة، متعرقة للغاية».

يصفع زر الإيقاف على جهاز الجري، فتتوقف الآلة فجأة بينما يستدير ليقابل وجهي، يعدل قنيته الأنفية وهو يكافح ليلتقط أنفاسه: «وشعري متسخ، وأنا متعبة جدًّا، وعربة أدويتي...».

- هل تريد أن ترسمني وأنا متعرقة، حسنًا، سوف أتعرق بشدة.

أبدأ أدوس كما لو أن حياتي تتوقف على هذا الأمر، تتضاعف سرعتي نحو أربع مرات، تبدأ رئتاي تحترقان، وأبدأ بالسعال، يصدر أكسجيني المحمول صفيرًا من قنيَّتي الأنفية بينما أصارع من أجل الهواء، تبدأ ساقاي تتثاقلان كما لو أنني أدخل في نوبة سعال، قبل أن ألتقط أنفاسي أخيرًا.

يهز رأسه، أنظر خلفي على الفور إلى الأرقام الرقمية التي على الدراجة، محاولة أن أتجاهل الاحمرار الذي يزحف ببطء ليعتلي وجهي.

بعد ذلك يتجه كلانا بإرهاق إلى غرفة اليوجا الفارغة، أمشي إلى الأمام مسافة ست خطوات، أجلس مستندة إلى النافذة الواسعة، الزجاج باردٌ من الغطاء الأبيض على الجهة الأخرى، الذي يغطي كلَّ شيء في الأفق.

أسأل بينما أرفع يدي لأعدل شعري: «هل عليَّ أن أتخذ وضعية معينة أو ما شابه؟». أتخذ وضعية درامية، ما يجعله يضحك.

يخرج دفتر رسمه وقلمًا فحميًّا، يدهشني عندما يضع زوجين من الكفوف المطاطية الزرقاء: «لا لا، تصرفي على طبيعتك فحسب».

- أوه، جيد، نعم. سيكون هذا سهلًا.

أطالعه، عيناه الزرقاوان العميقتان تركزان على الورقة، وحاجباه الداكنان يتجعدان بينما يركز، يرتفع بنظره، تلاقي عيناه عينيَّ وهو يتفرَّسني مجددًا، أنظر بسرعة بعيدًا، وأخرج دفتر ملاحظاتي الجيبي وأقلِّبه إلى صفحة اليوم.

يسأل وهو يشير إلى دفتر ملاحظاتي بقلمه: «ما هو ذا؟».

أشرح: «قائمة مهامي»، وأشطب على المهمة رقم 12: «ممارسة التمارين»، وأتجه إلى أسفل قائمتي لأكتب «رسم ويل».

يسأل: «قائمة مهام؟ طراز قديم جدًّا بالنسبة إلى شخص يصمم تطبيقات».

- نعم، حسنًا، التطبيق لا يمنحني الرضا للقيام بهذا.

أتناول قلمي الرصاص وأرسم خطًا عبر «رسم ويل».

يزيِّف وجهًا حزينًا: «يؤذي هذا مشاعري الآن حقًّا».

أحني رأسي، لكنه يرى الابتسامة التي حاولت إخفاءها.

يسأل: «إذن، ماذا هناك أيضًا على قائمتك؟»، ينظر إلى الرسم في الأسفل ثم يعود فيرفع نظره إليَّ قبل أن يبدأ بتظليل شيء ما.

أسأل: «أيُّ قائمة؟ قائمتي الرئيسية أم قائمتي اليومية؟».

يضحك بحرارة وهو يهز رأسه: «بالطبع لديك قائمتان».

أجيب: «فورية وطويلة المدى، هذا منطقي». ما يجعله يبتسم فحسب.

- هاتي لي القائمة الرئيسية، تلك الأشياء المهمة.

أقلب الصفحات؛ لأصل إلى القائمة الرئيسية، لم أطالع هذه الصفحة منذ مدة، إنها ملأى بحبر مختلف الألوان، أحمر وأزرق وأسود، ولونين فلوريين برّاقين من مجموعة أقلام جل حصلت عليها في الصف السادس.

«دعنا نرى ماذا هنا». يشير إصبعي إلى أعلى الصفحة. ««التطوع في قضية سياسية مهمة».. تم».

أرسم خطًّا خلاله.

««مطالعة جميع أعمال ويليام شيكسبير».. تم».

أرسم خطًّا خلال ذلك.

««مشاركة كل ما أعرفه عن مرض التليف الكيسي مع الآخرين»، لديَّ هذا، نعم، صفحة اليوتيوب...»».

أرسم خطًّا خلالها، وأنظر إلى ويل لأرى شخصًا غير متفاجئ البتة.. شخصًا يتحقق مني.

يشير بقلمه خارج النافذة: «إذن، هذه خطتك للموت حقًّا، ذكية للغاية لتكوني ضمن فريق المناظرة للأموات؟ لم تفكري قطُّ فيَّ، لا أدري...السفر حول العالم أو ما شابه؟»».

أنظر مجددًا إلى الأسفل لأرى رقم 27، «قصر سيستين مع آبي». لا خطَّ يمرُّ من خلالها.

أبتلع ريقي، وأتابع: ««تعلم العزف على البيانو». تم! «تحدث الفرنسية بطلاقة»...»».

يقاطعني ويل: «جديًّا، هل سبق وفعلت شيئًا خارج القائمة؟ لا أقصد الإساءة، لكن لا يبدو أيٌّ منها ممتعًا». أغلق دفتر ملاحظاتي، فيكمل: «هل تريدين سماع قائمة مهامي؟ حضور صف رسم مع بوب روس، الكثير من الأشجار الصغيرة السعيدة وصبغات الكادميوم التي تعتقدين أنها لن تعمل، لكن بعد ذلك...»».

أقول له: «إنه ميت».

يعطيني ابتسامة مائلة: «أوه، حسنًا، أظن أنه سيكون عليَّ أن أستقر لممارسة الجنس في الفاتيكان».

أدور عينَي في وجهه: «أعتقد أن لديك فرصة أكبر لمقابلة بوب روس».

يرمش بعينيه لكن يبدو وجهه جديًّا بعد ذلك، جديًّا أكثر من أي وقت آخر رأيته فيه: «حسنًا، حسنًا، أودُّ أن أسافر حول العالم ورؤيته حقًّا، أتعرفين؟ ليس فحسب داخل المشافي».

يعود لينظر إلى الأسفل ويواصل الرسم: «إنها نوعًا ما الشيء ذاته، بالغرف العمومية ذاتها، وأرضيات البلاط ذاتها، ورائحة التعقيم ذاتها، لقد ذهبت في كلِّ مكان دون أن أرى أيَّ شيءٍ في الواقع».

أنظر إليه، أخمن، أنظر حقًّا، أشاهد الطريقة التي يتساقط بها شعره على عينيه وهو يرسم، نظرة التركيز على وجهه، لم تعد ملامح ابتسامة متكلفة، أتساءل ما سيبدو عليه الأمر عندما ترغب في الذهاب حول العالم دون أن تستطيع الخروج من جدران مستشفى، لا أهتم لكوني في المستشفى، أشعر بالأمان هنا، الراحة، لكنني قد أتيت فقط إلى مستشفى واحد فقط تقريبًا طوال حياتي، إنه المنزل.

لو كنت في كابو خلال الأسبوع الفائت لكنني كنت عالقة في مستشفى، لن أكون متضايقة فحسب، بل سأكون تعيسة.

أقول: «شكرًا لك».

يسأل وهو يرفع عينيه لينظر إليَّ: «على ماذا؟».

- لقولك شيئًا حقيقيًّا.

يتأملني للحظة قبل أن يمرر أصابعه عبر شعره، إنه الشخص غير المريح، لإحداثه تغييرًا، يقول وهو يشير إلى ضوء الشمس المتسرب عبر الزجاج من حولي: «عيناك عسليتان، لم أعرف ذلك إلى أن رأيتهما في ضوء الشمس، اعتقدت أنهما بنيتان».

ينبض قلبي بصوت عالٍ في صدري إثر كلماته، والطريقة الدافئة التي ينظر إليَّ بها.

يقول بعد ثانية، وقد زحف احمرار خفيف إلى خديه: «إنها حقًّا أعين جميلة». ينظر إلى الأسفل، يخربش ويبتلع ريقه: «أعني، مثلًا، لتُرسم».

أعض على شفتي السفلى لأخفي ابتسامتي.

إنها المرة الأولى التي أشعر فيها بثقل كلِّ سنتيمتر، كلِّ ميلليمتر، من الخطوات الست بيننا، أسحب قميصي أقرب إلى جسدي، أنظر بعيدًا إلى كومة من سجاد اليوجا في الزاوية، محاولةً أن أتجاهل حقيقة أن تلك المسافة، ستكون هناك دائمًا.

في تلك الليلة أتصفح الفيسبوك لأول مرة في ذلك اليوم، أشاهد جميع صور أصدقائي التي ينشرونها في كابو. أضع قلبًا لصورة ملف كاميليا الجديدة، تقف فيها على لوح تزلج في ملابس السباحة المخططة، وترتسم ابتسامة بلهاء على وجهها، كتفاها محروقتان تمامًا، فجميع تحذيراتي فيما يخص عامل الحماية من الشمس قد تجاهلتها، لكن ميا كانت قد أرسلت لي فيديو سناب لما خلف الكواليس مبكرًا هذا اليوم، صُوِّر بعد ثوانٍ من التقاط هذه الصورة، والذي يظهر أن كاميليا ما زالت لا تملك أيَّ فكرة عن ركوب الأمواج، ربما توازنت نحو ثلاث ثوانٍ ونصف فقط لتلتقط الكاميرا ابتسامة كبيرة قبل أن تسقط من على لوح التزلج بعدها بلحظة.

أجري رقصة النصر عندما أنتقل إلى الصورة التي نشرها ماسون، وذراعه المسمرّ يلتف حول كتف ميا. كدت أسقط من على كرسيي عندما رأيت التعليق عليها «لطيفة كابو»، بابتسامة عريضة، أضع أعجبني سريعًا قبل أن أغلق التطبيق لأرسل إليها رسالة.

أحسنتِ ميا! مع رموز تعبيرية بعينين على شكل قلب لأيام.

ألقي نظرة لأرى دفتر ملاحظاتي الجيبي لا يزال مفتوحًا على صفحة المهام الرئيسية، تعود عيناي لمهمة رقم 27، «كنيسة سيستين مع آبي». أفتح حاسوبي وأمرر بالفأرة على مجلد أزرق بعنوان «آبي».

أتردد للحظة قبل أن أضغط عليه، يملأ بحر من الصور والفيديوهات والأعمال الفنية لأختي شاشتي.

أضغط على فيديو جوبرو الذي أرسلته لي قبل عامين، وهي تتوازن على قمة جسر عالٍ متهالك، تمتلئ الشاشة بالصورة المذهلة للمسافة بين المكان حيث تقف عند النهر في الأسفل، والمياه تحتها قوية بما يكفي لتجرف أيَّ شيء في طريقها.

تقول بينما تتأرجح الكاميرا لتعود لها وهي تعدل حزامها مرةً أخرى: «مجنون للغاية، أليس كذلك ستيلا! اعتقدت أنك قد تَوَدّين رؤية ما أشعر به».

تضع خوذتها في مكانها، ويتحول مشهد جوبرو لإظهار حافة الجسر والطريق الطويل جدًّا للأسفل. تقول وهي تحمل الباندا المحشو خاصتي: «وقد أحضرت معي رفيقي في القفز» والذي بجواري الآن، تعطيه عصرة كبيرة.

«سوف أمسكه جيدًا، لا تقلقي». بعد ذلك، من دون التفكير حتى للحظة واحدة، تطلق نفسها من على الحافة، لقد طرت في الهواء معها، وصيحاتها المبتهجة تترد عاليًا عبر مكبرات الصوت.

ثم تأتي إلى القفز، نطير مجددًا، يظهر وجه الباندا على الشاشة، بصوت آبي اللاهث والطائش، بينما تمسك الباندا بقوة، تصرخ: «عيد ميلاد سعيد، ستيلا».

أبتلع ريقي بصعوبة، أغلق الحاسوب بقوة، فتندفع عبوة الصودا على الطاولة الجانبية، تنسكب فقاعات الصودا في جميع أنحاء الطاولة وعلى الأرض، رائع.

أصل لألتقط العبوة، ممتدة عبر البركة، وأرميها في سلة المهملات في طريقي إلى القاعة، بينما أمشي حول قسم الممرضات، ألاحظ بارب تغفو على كرسي، ورأسها يتدلى إلى جانب واحد، وفمها مفتوح بعض الشيء.

أفتح باب حجرة النظافة بحذر، وألتقط المناديل الورقية من رف مكتظ بلوازم النظافة محاولة ألا أوقظها، على الرغم من ذلك تسمعني، وتنظر إليَّ وعيناها ناعستان.

أقول بينما تراني: «أنت تعملين بجهد كبير».

تبتسم وتفتح ذراعيها كما اعتادت أن تفعل عندما كنت أصغر، إذا كنت أحظى بيوم عصيب في المستشفى.

أرتمي في حضنها كطفل، وألف ذراعي حول رقبتها، أشم الرائحة ذاتها، رائحة الفانيلا الآمنة لعطرها. أريح رأسي على كتفها.. أغلق عينَيَّ وأتظاهر...

الفصل العاشر

ويل

تغني جرلي: «حان وقت السيفافلومالين»، وهي تفتح بابي في الصباح التالي، وكيس من الدواء في يدها.

أومئ برأسي، لقد تلقيت مسبقًا الإشعار من تطبيق ستيلا وانتقلت من المكتب إلى سريري، حيث حامل الحقن الوريدي منتظرًا وصولها.

أشاهد جرلي وهي تعلق الكيس، وتأخذ أنبوب الحقن الوريدي وتلتفت باتجاهي. تذهب عيناها إلى الرسمة التي رسمتها لستيلا في غرفة اليوجا، معلقة إلى جانب رسمة الرئة التي وضعتها ستيلا فوق مكتبي، تنقلب زاوية شفتها بينما تحدق إليها.

تقول إذ تتقابل عيناي بعينيها: «أحب أن أراك هكذا».

أسأل وأنا أنزل قبة القميص: «كيف؟».

تولج أنبوب الحقن عبر منفذ في صدري: «مفعمًا بالأمل».

أفكر في ستيلا، تذهب عيناي إلى كيس السيفافلومالين، أمتد لألمسه برفق، وأشعر بوزن الكيس في راحة يدي، التجربة جديدة للغاية، تبقى جديدة حتى معرفة ما سيؤول إليه الأمر.

إنها المرة الأولى التي أسمح لنفسي بالتفكير بذلك... والذي قد يكون خطرًا، بل حتى غبيًّا.

لا أعرف، إن رفع سقف آمالي عندما يتعلق الأمر بالمستشفى لا يبدو فكرة جيدة بالنسبة إليَّ.

أسأل: «ماذا إن لم يُجدِ ذلك نفعًا؟».

لا أشعر بأيِّ شيءٍ مختلف، على الأقل، إلى الآن.

أشاهد كيس الحقن الوريدي، الدواء ينزل نقطة نقطة باستمرار ليشق طريقه في جسدي، أعيد نظري إلى جولي، يصمت كلانا للحظة.

تسأل، وهي تمسك كتفي: «لكن ماذا إن أجدى نفعًا؟».. أشاهدها تغادر.

لكن ماذا إن أجدى نفعًا؟

بعد الحقن الوريدي، ألتقط بحذر زوجًا من القفازات الزرقاء اللامعة، متأكدًا من إبقاء بكتيريا البيركهولدرية البصلية لديَّ بعيدة عن أيِّ شيءٍ يمكن أن تلمسه ستيلا.

أتناول واحدًا آخر وأنا أنظر إلى رسمي الذي قد رسمته في غرفة اليوجا، أقيِّمه بدقة بينما أنزله من على الحائط.

إنه شخصية كاريكاتورية لكنه حتمًا ستيلا، في معطف الأطباء الأبيض، والسماعات الطبية معلقة حول عنقها، تضع يديها الكرتونيتين الصغيرتين بغضب على خصرها، أحدِّق إلى الرسمة، أعتقد أن شيئًا ما ينقصها.

آها.

أتناول أقلام التلوين الأحمر والبرتقالي والأصفر، وأرسم نارًا خارجة من فمها، واقعية أكثر. أضحك داخلي، أتناول ظرف مانيلا كنت قد سرقته من قسم الممرضات، أضع الرسم داخله وأخربش عليه: «في الداخل، يوجد قلبي وروحي، فكوني لطيفة».

أمشي عبر الممر إلى غرفتها، أتخيلها وهي تفتح الظرف، متوقعة شيئًا بليغًا وعميقًا، أنظر في كلا الاتجاهين قبل أن أمرر الظرف تحت الباب، وأستند إلى الحائط مستمعًا.

أسمع وقع قدميها الخفيف على الجهة الأخرى من الباب، والتقاطها للقفازات لارتدائها، ثم انحنائها لالتقاط الظرف، هناك صمت، المزيد من الصمت، وأخيرًا... ضحكة! ضحكة دافئة صادقة حقيقية.

النصر! أمشي في الممر وأنا أصفِّر، ثم أنطرح في فراشي وألتقط هاتفي عندما يرن تطبيق فيس تايم، مكالمة واردة من ستيلا كما كنت آمل.

أرد على المكالمة، فيظهر وجهها، ترتفع زوايا شفتيها إلى الأعلى: «هل هي امرأة التنين؟ عنصريٌّ للغاية».

- هيه، أنتِ محظوظة لقولك من دون تعرٍّ.

- تضحك مجددًا، وهي تنظر إلى الرسم ثم تعود لتنظر إليَّ: «لماذا هو كاريكاتوريّ؟».

- إنها متمردة، هل تعرفين؟ يمكن أن تبدو سهلة ومضحكة من الخارج، لكنَّها معبرة.

بإمكاني الحديث عن ذلك اليوم بطوله، إذا كان هناك شيء شغوفٌ به، فهو ذاك، رفعت كتابًا على طاولتي فيه أفضل الرسومات الكاريكاتورية السياسية لمجلة نيويورك تايمز. «السياسة، الدين، المجتمع. أعتقد أن الرسم الكاريكاتوري الجيد يمكن أن يقول ما لا تستطيع الكلمات قوله، تعرفين؟ يمكن أن يغير العقول».

تنظر إليَّ مندهشة، ولا تتفوه بكلمة.

أهز كتفي، وأدرك مدى قوة انسياقي لذلك: «أعني، أنا مجرد رسام كاريكاتير طامح، هذا ما أعرف».

أشير إلى الرسم خلفها، صورة جميلة لرئتين، تتدفق الأزهار من داخلها، وخلفية من النجوم تحيط بها. «الآن، هذا هو الفن». أسحب حاسوبي أقرب إليَّ لأدرك ما تعنيه. «رئتان سليمتان! هذا رائع، من رسمها؟».

تنظر إليها إلى الخلف، مترددةً تقول: «أختي الكبرى، آبي».

- لديها بعض المواهب، أودُّ لو ألقي نظرة على أعمالها الأخرى.

تبدو نظرة غريبة على وجهها، ويصبح صوتها باردًا: «انظر، نحن لسنا أصدقاء، نحن لا نتشارك قصصنا، إنه يتعلق فحسب بتلقي علاجنا، حسنًا؟».

تنهي المكالمة فجأة، تبدو الحيرة على وجهي، ما كان هذا بحق الجحيم؟ أقفز غاضبًا، وأفتح باب غرفتي بقوة، أندفع خلال الممر كالطوفان، أسلك طريقًا سريعًا إلى غرفتها، على استعداد لأصارحها عن رأيي فيها.

يأتي صوت من خلفي: «ويل، مرحبًا».

أستدير مندهشًا، لأرى هوب وجاسون يمشيان باتجاهي، كنت أراسل جاسون منذ ما يقارب الساعة، وقد نسيت تمامًا أنهما قادمان اليوم، كما يفعلان دائمًا في أيام الجمعة. يرفع جاسون كيسًا من الطعام، ويبتسم إليَّ بينما تفوح رائحة البطاطس المقلية من غدائي المفضل على بُعد مبنى واحد عن مدرستنا في الممر، محاولًا استمالتي.

أتسمَّر في مكاني، أنظر بين باب ستيلا وزوَّاري.

وحينها تباغتني الفكرة.

لقد سبق ورأيت كلا والديها يأتيان ويذهبان، ورأيت أصدقاءها يزورونها في اليوم الأول الذي جاءت فيه إلى هنا.

لكن آبي؟ إنها لم تتكلم عن آبي قط.

أين هي آبي؟

أمشي إلى هوب وجاسون، ألتقط الكيس منهما وأومئ برأسي لهما ليتبعاني إلى غرفتي: «تعالا معي».

أفتح حاسوبي المحمول، يقف كلاهما خلفي وهو يقلع، وتعابير الدهشة تملأ وجهيهما.

يقول جاسون وهو يحدِّق إليَّ من فوق كتفي: «سعدنا برؤيتك أيضًا يا صديقي».

أقول وأنا أقابلهما: «إذن، لقد قابلت فتاة». أهز رأسي عندما تعطيني هوب تلك الابتسامة، بعينين متحمستين، جاسون مطلع تمامًا على جميع الأمور الخاصة بسنيلا، لكنني لم أخبر هوب بها بعد، غالبًا لأنني عرفت أنها ستتفاعل هكذا: «ليس الأمر كذلك، حسنًا، ربما نحو هذا القبيل، لكن لا يمكن له أن يكون كذلك، أيًّا كان».

أعود مجددًا لحاسوبي، وأفتح علامة التبويب لصفحة ستيلا على اليوتيوب، وأنزل إلى فيديو من السنة الماضية بعنوان «حفل استئصال السليلة» وأنقر عليه، قبل أن أضغط على شريط المسافة لإيقاف الفيديو وتدويره لملء الشاشة.

- إنها مصابة بالتليف الكيسي، إنها مجنونة مهووسة بالسيطرة، لقد جعلتني أبدأ بتلقي علاجي جميعه وبكل وسيلة.

ملأت الراحة عينَي هوب وابتهج جيسون بإيجابية.

تسترسل هوب: «هل بدأت مجددًا بتلقي علاجك؟ ويل، هذا رائع».

ألوِّح لثنائها بعيدًا، على الرغم من أنني متفاجئ قليلًا أنها اتخذت ردَّ الفعل الكبير هذا، لقد ألحَّت عليَّ هوب بشأن علاجي لفترة، لكنني عندما أخبرتهما أن يدعواني وشأني، لم يجعلا من الأمر قضية، كنت أعتقد نوعًا ما أننا جميعًا متفقون.

لكن الآن يبدو كلاهما مرتاحًا للغاية، أقطب حاجبيَّ، لا أريدهما أن يفرطا في التفاؤل.

«نعم، نعم. على أيِّ حال، إليكما هذا، لديها أخت اسمها آبي». تقدمت سريعًا بضع دقائق في الفيديو، وضغطت على تشغيله إذ يتمكن كلاهما من المشاهدة.

ستيلا وآبي جالستان في غرفة المستشفى، والأعمال الفنية مصطفة على الجدران كما في غرفتها الآن. الطبيبة حاميد هناك، تضغط بالسماعات الطبية على صدر ستيلا بينما تستمع إلى رئتيها، تهتز قدما ستيلا بقلق بينما تنقل عينيها بين الطبيبة حاميد والكاميرا.

- حسنًا، إذن لديَّ بوليب أنفي...

تقول الطبيبة حاميد وهي تعتدل: «استئصال السلائل، سنزيل السلائل من الممرات الأنفية لديك».

تبتسم ستيلا للكاميرا: «أحاول أن أتكلم مع الطبيبة في عملية الأنف بينما هي هنا».

تعانقها آبي، وتضمها بشدة: «ستيلا متوترة، لكنني سأكون هنا لأغني لها لتنام، تمامًا كالمعتاد».

تبدأ بالغناء، صوتها ناعم وعذب: «أحبك، بقدر مكيال ومغرفة...».

تقول ستيلا وهي تضع يدها على فم أختها: «توقفي، ستجلبين النحس إليها».

أوقف الفيديو مؤقتًا، وأستدير لأقابل أصدقائي.

يحاران في أمرهما، من الواضح أنهما لم يصلهما الإدراك الذي خطر لي، ينظران إلى بعضهما بعضًا، ترتفع حواجبهما، ثم تعطيني هوب ابتسامة كبيرة، وتنحني لتحدِّق إلى الشرح الجانبي.

- شاهدت جميع فيديوهاتها؟

أتجاهلها.

أقول موضحًا: «حسنًا، لقد فزعت منذ نحو خمس دقائق مضت عندما طلبت رؤية أعمالٍ فنية أخرى لأختها، هذا الفيديو من العام الماضي».

يسأل جاسون عابسًا: «حسنًا، ثم؟».

- آبي ليست موجودة في أيِّ فيديو بعد هذا.

يومئان برأسيهما، ثم يفهمان الأمر ببطء، تخرج هوب هاتفها، تعبس وهي تكتب: «لقد وجدت حساب آبي جرانت على الانستجرام، معظمه أعمال فنية، وصور لها ولستيلا». تنظر إليَّ وتومئ برأسها، «لكنك على حق، لم تنشر منذ سنة».

أنقل نظري بين جاسون وهوب: «أعتقد أنَّ شيئًا ما قد حدث لآبي».

في الصباح التالي يرن هاتفي بصخب، يذكرني بجلسة تدريب قد برمجتها ستيلا ضمن نظامي العلاجي، لم أَرَها منذ اكتشفت أنَّ شيئًا ما قد حدث لآبي، وأنَّ التفكير في رؤيتها لعدة دقائق فحسب يجعلني متوترًا بشكل غريب، لم أتمكن بالفعل من الاستمتاع ببقية الزيارة مع هوب وجاسون، حتى خلال تناولنا للبطاطس المقلية والتحدث بشأن جميع مسرحيات المدرسة الأخيرة ما بعد عيد الشكر في أثناء مشاهدة حلقة جديدة لمسلسل ويست وورد، دائمًا ما ننتظر مشاهدة الحلقات الجديدة معًا، حتى ولو كنت في قارة مختلفة كليًّا في منطقة زمنية أخرى واحتجت إلى التواصل معهم عبر سكايب.

آخذ نفسًا عميقًا، أتجه إلى الصالة الرياضية لأقابل ستيلا، أفتح الباب وأمشي متجاوزًا أجهزة المشي وأجهزة التدريب البيضاوية والدراجات الثابتة.

أسترق النظر إلى غرفة اليوجا، فأراها تجلس على سجادة التأمل الخضراء، ساقاها متقاطعتان، وعيناها مغمضتان.

أفتح الباب ببطء، ماشيًا بهدوء بقدر الإمكان عبر الغرفة إلى السجادة بعيدًا عنها.

على بعد ست خطوات.. أجلس وأشاهد كم تبدو مسالمة، وجهها ناعم وهادئ، لكنها تفتح عينيها ببطء لتقابل عينَيَّ وهي متيبسة.

- لم ترك بارب، أليس كذلك؟

أقول من دون تفكير، أدخل في الموضوع مباشرة: «آبي ماتت، أليس كذلك؟». تحملق فيَّ، لا تتفوه بشيء.

أخيرًا تبتلع ريقها، وهي تهز رأسها: «لطيفٌ حقًّا ويل، حساسٌ كما المطرقة».

- من لديه الوقت للحساسية ستيلا؟ نحن بصراحة لن...

تقاطعني: «توقف، توقف عن تذكيري بأنني أموت، أعرف، أعرف أنني أموت».

تهز رأسها، ووجهها جديٌّ: «لكنني لا أستطيع، ويل، ليس الآن، عليَّ أن أفعلها».

أرتبك: «لا أفهم...».

تهز رأسها، وتلمع عيناها العسليتان بالدموع: «لقد كنت أموت طوال حياتي، في كلِّ عيد ميلاد، نحتفل كما لو كان عيد ميلادي الأخير، لكن فيما بعد آبي هي التي ماتت، كان من المفترض أن أكون أنا، ويل، الجميع كان مستعدًا لذلك».

تأخذ نفسًا عميقًا، وكأن ثقل العالم بأسره على كتفيها: «سيُقضى على والديَّ إن متُّ أنا أيضًا».

يصدمني ذلك كطُنٍّ من القرميد، لقد كنت مخطئًا طوال الوقت.

- النظام الصحي، لقد اعتقدت طوال الوقت أنك كنت تخافين الموت، لكنه ليس كذلك على الإطلاق.

أطالع وجهها وأنا أتابع كلامي: «أنت فتاة ميتة لديها عقدة الناجي، هذا خلل نفسي مكتمل، كيف تعيشين مع...؟».

ترد، وهي تقف وتحدِّق إليَّ: «العيش هو الخيار الوحيد الذي لديَّ، ويل».

أقف محدِّقًا إليها، أريد أن أخطو أقرب وأقلص الفجوة بيننا، أريد أن أهزها لأجعلها ترى: «لكن، ستيلا، هذا ليس عيشًا».

تستدير، وهي تشد قناع وجهها وتندفع إلى الباب.

«ستيلا، انتظري، تعالي» أمشي بضع خطوات خلفها، متمنيًا لو أتمكن من الوصول والتقاط يدها، لأستطيع إصلاح ذلك.

- لا تذهبي، نحن من المفترض أن نكون في التدريب، صحيح؟ سوف أصمت، حسنًا؟

ينطبق الباب خلفها، سحقًا، لقد أفسدت الأمر برمَّتِه حقًّا.

أحني رأسي لأحدِّق إلى السجادة حيث كانت تجلس للتو، أعبس في المكان الفارغ حيث كانت.

وأدرك أنني أفعل الشيء الوحيد الذي أخبرت نفسي طوال هذا الوقت أنني لم أكن لأفعله، أرغب في شيء لا يمكنني أبدًا الحصول عليه.

الفصل الحادي عشر

ستيلا

أفتح باب غرفتي، تتلطخ لوحات آبي جميعها معًا أمامي، إذ يظهر كلُّ الألم والذنب الذي كنت أدفعه بعيدًا شيئًا فشيئًا برأسه القبيح، جاعلًا ركبتيَّ تنثنيان من تحتي، أنهار على الأرض، وأصابعي تتشبث بمشمع الأرضية البارد بينما أسمع صراخ أمي يدق في رأسي كما حدث في ذلك الصباح.

كان من المفترض أن أكون معها في عطلة نهاية الأسبوع تلك في أريزونا، لكنني كنت أعاني بشدة صعوبة التنفس في الليلة التي سبقت الرحلة، ما اضطرني إلى البقاء. اعتذرت مرارًا وتكرارًا، كان من المفترض أن تكون هدية عيد ميلادها رحلتنا الأولى معًا، وحدنا، لكنَّ آبي ودَّعتني، عانقتني بشدة وأخبرتني أنها ستعود في غضون أيام ومعها من الصور والقصص ما يكفي لتجعلني أشعر وكأنني كنت معها هناك طوال الوقت.

لكنها لم تعد قطُّ.

أتذكر أنني سمعت الهاتف يرن في الطابق السفلي، أمي تنتحب، وأبي يطرق على بابي يخبرني أن أنزل إلى الأسفل، شيء ما قد حدث.

لم أصدقه.

هززت رأسي، وضحكت، كان الأمر خدعة من آبي، عليه أن يكون كذلك، لقد كان مستحيلًا.. لقد كنت الشخص الذي يُفترض به أن يموت، قبلهم جميعًا بوقت طويل، آبي كانت فعليًّا تعريفًا للحياة.

لقد استغرق الأمر مني أيامًا ثلاثة لأصاب بالحزن، فقط عندما كان من المفترض لرحلتنا أن تهبط، عندها أدركت أن آبي لن تعود للمنزل حقًّا. كنت بعد ذلك مصدومة، طُرحت في فراشي لأسبوعين متتاليين، متجاهلةً سترتي الهزازة ونظامي الصحي، وعندما نهضت، لم تكن رئتاي فحسب في حالة فوضى، لم يتمكن والداي من التحدث إلى بعضهما بعضًا، لم يتمكَّنا من النظر إلى بعضهما حتى.

لقد رأيت ذلك يحدث قبل الحادثة بوقت طويل، وقد هيأت آبي لما سيترتب عليه فعله لتبقيهما معًا بعد أن أرحل.

لكنني لم أتوقع مطلقًا أن أكون من سيفعل ذلك.

لقد بذلت قصارى جهدي، نظمت رحلات العائلة؛ حضرت لهما الغداء عندما لم يتمكنا من فعل أيِّ شيء سوى التحديق في الفراغ.

لكن ذلك كله كان هباءً، إذا كانت آبي تخرج، فإن الشجار يتبعها دائمًا، إن لم تكن تفعل، فإن حضورها كان يخنق الصمت، انفصل والداي بعد أشهر ثلاثة، وتطلقا بعد ستة، مبتعدين عن بعضهما مسافة قدر الإمكان، وتركاني مجزَّأةً.. متداخلةً بين بين.

لكن ذلك لم يساعد، منذ ذلك الحين، يبدو الأمر وكأنني كنت أعيش حلمًا، في كل يوم أركز على إبقاء نفسي قيد الحياة لاستمرارهما في العيش، أضع قائمة المهام وأتحقق منها، في محاولةٍ لإبقائي منشغلةً، مبتلعةً حزني وألمي لكيلا يشغلا نفسيهما.

والآن وفوق كلِّ ذلك، يحاول ويل -من بين كلِّ الناس- أن يخبرني ما يجدر بي أن أفعل، كما لو أن لديه أدنى فكرة عمَّا يعني العيش بحق.

والجزء الأسوأ من هذا، أن الشخص الوحيد الذي أريد أن أحدثه عنه هو آبي.

أمسح دموعي بظهر يدي بغضب، أخرج هاتفي من جيبي وأكتب رسالة إلى الشخص الوحيد الآخر الذي أعرف أنه سيتفهم.

«الصالة متعددة الأغراض. الآن».

أفكر في كلِّ الرسوم في جميع أنحاء غرفتي. كلٌّ منها رحلة منفصلة إلى المستشفى مع آبي لتأخذ بيدي.

والآن هناك ثلاث رحلات، ثلاث رحلات كاملة من دون رسوم لأذهب معها.

أتذكر اليوم الأول الذي أتيت فيه إلى سانت جريس، إذا لم يسبق لي أن شعرت بالخوف، فإن حجم المكان كان واسعًا بما يكفي ليُشعر فتاة في السادسة من عمرها بالارتباك، النوافذ الكبيرة، الآلات، الضجة العالية، مشيت عبر المدخل، متشبثة بيد آبي للنجاة وحاولت جاهدة أن أكون شجاعة.

تحدث والدي إلى بارب والطبيبة حاميد، قبل حتى أن يعلماني، لقد فعلا أفضل ما بوسعهما ليساعداني على الشعور بأن مستشفى سانت جريس كمنزلي الثاني منذ اللحظة التي وصلت فيها إليه.

لكن من بين الجميع، كانت آبي هي من فعل ذلك فعلًا، لقد أعطتني ثلاث هدايا قيِّمة في ذلك اليوم.

الأولى كانت دُبي الباندا المحشو، باتشز، الذي اختارته بيدها بعناية من محل هدايا المستشفى، والثانية كانت الرسمة الأولى من بين كُثر، إعصار النجوم، القطعة الأولى من «ورق الجدران» الذي جمعته منها.

وبينما كان يتحدث والداي إلى بارب عن أحدث منشآت الفن، ركضت آبي ووجدت لي آخر هدية في ذلك اليوم.. أفضل ما حصلت عليه خلال كل سنواتي في سانت جريس.

قالت أمي: «ذلك مذهل بالطبع»، بينما شاهدتُ آبي تهرول بعيدًا في الممر ذي الألوان الزاهية لجناح الأطفال، وتختبئ في إحدى الزوايا.

قالت بارب وهي تعطيني ابتسامة دافئة: «ستكون ستيلا هنا في منزلها». أتذكر أنني تشبثتُ بباتشز واستجمعت شجاعتي لأبادلها الابتسامة.

استدارت آبي عند الزاوية، وكادت أن تصطدم بممرضة بينما تجري مرة أخرى لتعود لنا، وصبي صغير جدًّا، ونحيل جدًّا، بشعر بني، يرتدي قميصًا فضفاضًا لمنتخب كولومبيا في إثرها.

- انظري، هناك أطفال آخرون هنا.

لوحت للصبي قبل أن تتوقف بارب بيننا، وثوبها الملون يبني جدارًا بيننا.

قالت موبخةً الطفل الصغير، بينما تُمسك آبي يدي بيدها: «بو، أنت تعرف جيدًا».

لكن آبي هي من أثار الأمر، حتى على بعد ست خطوات، أصبح بو أعز أصدقائي، وهذا السبب في كونه الشخص الوحيد الذي بإمكانه مناقشتي في ذلك.

أخطو إلى الأمام بسرعة، والصالة ضبابية أمامي، أحاول التركيز على حوض السمك أو التلفاز أو الثلاجة التي تطنُّ في الزاوية، لكنني ما أزال مغتاظة من شجاري مع ويل.

يقول بو من خلفي، وهو ينظر إليَّ بتركيز من على حافة الأريكة الثنائية: «تعرفين أن لديه مشكلات فيما يتعلق بالحدود، إن كان الأمر يستحق، لا أعتقد أنه كان يقصد أن يؤذيكِ».

أستدير لأواجهه، وأنا أقبض على طاولة المطبخ: «عندما قال «آبي» و«ماتت» -انهار صوتي وقبضت بأصابعي على الرخام البارد للطاولة - كما لو كان الأمر لا يعني شيئًا، أنا فقط...».

يهز بو رأسه، وعيناه حزينتان.

أقول بصوت مخنوق، وأنا أمسح دموعي بظهر يدي: «كان عليَّ أن أكون معها بو». كانت موجودة على الدوام، لتقف إلى جانبي عندما احتجت إليها، وعندما كانت في أمسِّ الحاجة إليَّ لم أكن هناك.

- لا، ليس مجددًا، إنه ليس خطأك، كانت ستخبرك أنه ليس خطأك، ألهث والهواء يتناقصُ في صدري: «هل كانت تتألم؟ ماذا إن كانت خائفة؟»،

لا أنفكُّ أرى أختي تهبط إلى الأسفل، كما كانت تفعل في فيديوهات جوبرو، وملايين المرات قبلها، تقفز بالحبال وتغوص في الهاوية بتهور.

كانت المرة الوحيدة، التي لم يكن فيها صراخ طائش للمتعة والحماس، ارتطمت بالماء ولم تطفُ مرة أخرى.

لم يكن من المفترض أن تموت.

كان من المفترض أن تكون الشخص الوحيد الذي يبقى حيًّا.

- هيه! توقفي، انظري إليَّ.

أحدِّق إليه، والدموع تنهمر من عينيَّ.

يقول وهو يقبض على مسند الذراع للأريكة، وقد تحولت مفاصل أصابعه إلى اللون الأبيض: «عليك أن تتوقفي، أنت لا تعرفين. أنت فقط...لا تستطيعين. سوف تُودين بنفسك إلى الجنون».

آخذ نفسًا عميقًا وأنا أهزُّ رأسي، يقف ويخطو نحوي وهو يئنُّ في إحباط: «هذا المرض سجنٌ لعين! أريد أن أعانقك».

أشهق وأومئ برأسي في موافقة.

يقول: «عُدِّيني فعَلْت، حسنًا؟»، أرى عينيه تطفران أيضًا بالدموع. «واعلمي أنني أحبك، أكثر مما أحب الطعام! أكثر مما أحب الفريق الوطني الكولومبي».

أبتسم وأومئ برأسي: «وأنا أحبك أيضًا بو». يتظاهر بإرسال قُبلة لي، دون أن ينفخ نحوي فعلًا.

أهوي على مقعد الأريكة الثنائية الخضراء المقابلة لأريكة بو، وألهث سريعًا في ألم وقد ازدوجت رؤيتي. أجلس متصلِّبة وأنا أقبض على جانبي، وأنبوب معدتي يحرقني كما لو كان نارًا بحق.

يتحوَّل لون وجه بو إلى الأبيض: «ستيلا، هل كلُّ شيء على ما يرام؟».

أقول وقد خمد الألم: «أنبوب معدتي». أقف وأهز رأسي وأنا ألهث لالتقاط أنفاسي «أنا بخير.. أنا بخير».

آخذ نفسًا عميقًا وأرفع قميصي لأرى أن العدوى قد ازدادت سوءًا، الجلد أحمر ومنتفخ، وأنبوب معدتي والمنطقة المحيطة به تنزُّ، تتسع عيناي في دهشة، لم يمر عليَّ هنا سوى سبعة أيام، كيف لم ألاحظ كم تدهورت؟

يرمش بو بعينيه وهو يهز رأسه: «دعيني أعيدك إلى غرفتك حالًا».

بعد خمس عشرة دقيقة، تلمس الطبيبة حاميد برفقٍ الجلد المصاب حول الأنبوب، وأكشِّرُ بينما يعبر الألم إلى معدتي وصدري، تبعدُ يديها، وتهز رأسها وهي تنزع القفازات وتضعها بحذر في سلة المهملات بجانب الباب.

- علينا الاهتمام بذلك، لقد بلغ حدًّا كبيرًا، علينا أن نكشط الجلد ونستبدل الأنبوب لننظف العدوى.

أشعر بالدوار على الفور، وبالبرودة في أحشائي، إنها الكلمات التي كنت أخشاها منذ أن بدأت الإصابة.

أنزل قميصي، محاولة ألا يحتكُّ القماش بالمنطقة.

- لكن...

تقاطعني: «لا اعتراضات، لا بُدَّ من فعل ذلك، ربما يحصل الإنتان هنا، إذا تفاقم الأمر، فيمكن أن تصل العدوى إلى مجرى دمك».

يخيم الصمت على كلتينا، إذ نعرف مدى حجم الخطر هنا، إذا تعرضت للإنتان، حتمًا سأموت، لكنني إذا خضعت للجراحة، قد لا تغدو رئتاي قويتين بما يكفي للعبور بي إلى الجانب الآخر.

تجلس إلى جانبي، تربِّتُ على كتفي وتتبسَّمُ إليَّ: «سيكون الأمر على ما يرام».

أقول وأنا أبتلع ريقي بتوتر: «أنت لا تعرفين ذلك».

تومئ برأسها، بوجهٍ متفكّر: «أنت على حق، لا أعرف». تأخذ نفسًا عميقًا، وتقابل نظرتي القلقة: «إنه أمر خطر، لا أقول إنه ليس كذلك، لكنَّ الإنتان وَحْشٌ أكبر بكثير ,أكثر احتمالًا».

يزحف الخوف إلى عنقي، ويلتفُّ حول جسدي بأكمله، لكنها محقة.

تلتقط الطبيبة حاميد الباندا بجانبي، وهي تنظر إليه وتبتسم وتقول بصوت خافت: «أنت محاربةٌ ستيلا، لطالما كنت». ترفعه في وجهي، وتنظر في عينيَّ: «غدًا صباحًا إذن؟».

أمد يدي وآخذ الباندا، وأومئ برأسي: «غدًا صباحًا».

تقول: «سأتصل بوالديكِ وأُعلمهما». أتسمر في مكاني وقد صدمتني موجة من الفزع.

- هل لك أن تمهليني بضع دقائق لأتمكن من إعلامهما؟ سيكون الأمر أسهل لو كان من خلالي.

تومئ برأسها، وتضغط على كتفي بشدة قبل أن تغادر، أستلقي على ظهري، متشبثة باتشز، والقلق يملؤني بينما أفكر في المكالمات التي عليَّ إجراؤها، لا أنفكُّ سمع أمي في الكافيتيريا، وصوتها يحلق فوق رأسي في دوائر.

لا أعرف ما بوسعي فعله من دونك

لا أعرف ما بوسعي فعله من دونك

لا أعرف ما بوسعي فعله من دونك

أسمع ضجة في الخارج أمام باب غرفتي، أدرتُ رأسي لأرى ظرفًا ينزلق من الأسفل، أرى النورَ يُضاء من أسفل الباب بينما تقف قدمان هناك للحظة قبل أن تستديرا ببطء وتبتعدا.

أقف بحذر وأنحني لألتقط الظرف.

أفتحه، وأسحب رسمًا كاريكاتوريًّا، الألوان فيه حزينة وباهتة، إنها صورةٌ لويل عابسًا، يحمل في يده باقة زهور ذابلة، وتعليق بشكل فقاعة كُتب فيه «آسف».

أعود فأستلقي على سريري، أضمُّ الرسم إلى صدري وأغمضُ عينيَّ بقوة.

لقد قالت الطبيبة حاميد إنني محاربة.

لكنني حقًّا لا أعرف ما أنا بعد الآن.

الفصل الثاني عشر

ويل

لقد أخفقت، أعرف ذلك.

أتسلل من جناحنا وحول المدخل الشرقي للمستشفى بعد أن مرَّرتُ الرسمة، ممسكًا هاتفي بيدي بينما أنتظر شيئًا ما. رسالة، مكالمة فيس تايم، أيَّ شيء.

يجب أن تكون قد رأت الرسم الآن، أليس كذلك؟ كان نور غرفتها مُضاءً، لكنها في صمت تام منذ أن تشاجرنا.

أكتب إلى جاسون، مكشِّرًا في نفسي: «ماذا يجدر بي أن أفعل؟ لم تتحدث إليَّ حتى». بإمكاني رؤيته يحظى بالمتعة حال أن يراني متعلقًا بشخص ما بما يكفي لأطلب نصيحته.

«فقط امنحها بعض الوقت يا رجل، سوف تجيب».

أتنهد بصوت عالٍ محبطًا، يمر الوقت، كل هذا الانتظار عذاب.

أجلس على مقعد، أشاهد الناس يمرون بينما يعبرون الأبواب المنزلقة للمستشفى، يمسك الأطفال الصغار بأيدي والديهم بقلق، وتفرك الممرضات أعينهن بنعاسٍ إلى أن تتسنَّى لهن المغادرة، ويرتدي الزوار معاطفهم بينما

يتجهون إلى المنزل بحلول الليل، لأول مرة منذ عدة أيام تمنيت لو كنت واحدًا منهم.

تقرقر معدتي بصوت عالٍ فأقرر التوجه إلى الكافيتيريا لأشغل نفسي ببعض الطعام، أمشي نحو المصعد، لأتجمد عندما أسمع صوتًا مألوفًا يصدر من غرفة مجاورة.

يقول الصوت بنبرة حزينة: «ليس هناك مالٌ لدفعه، لا يمكن تحمل ذلك..». تلقيت لعامين اللغة الإسبانية في المدرسة الثانوية وبإمكاني قول بعض الجمل، لكنني تعرفت على تلك الكلمات. مددت رأسي إلى الداخل لأرى أنها كنيسة، بنوافذ زجاجية ملونة كبيرة ومقاعد خشبية تقليدية، منظر الكنيسة القديمة مختلف للغاية عن تصميم بقية المستشفى الحديث الأنيق.

تقع عيناي على بو، يجلس في الصف الأول، ومرفقاه مرتكزان إلى ركبتيه بينما يتحدث إلى شخص ما عبر فيس تايم.

يقول: «وأنا أشتقت إليك أيضًا، أحبك ماما».

يغلق الخط، ويضع رأسه بين يديه.

أفتح الباب الثقيل أوسع قليلًا، فتصدر المفصلات صوتًا خلال ذلك.

يستدير في دهشة.

أسأل وصوتي يتردد عاليًا بين جدران المكان الواسع بينما أشق طريقي عبر الممر باتجاهه: «الكنيسة؟».

ينظر حوله، ويبتسم قليلًا: «تحب أمي أن تراني هنا، أنا كاثوليكي، لكنها كاثوليكية متدينة».

يتنهد مسندًا رأسه إلى المقعد: «لم أَرَها منذ عامين، تريدني أن أزورها».

تتسع عيناي في دهشة وأجلس على الطرف الآخر، تفصل بيننا مسافة آمنة، إنه حقًّا لوقتٌ طويل: «لم ترَ أمك منذ عامين؟ ما الذي فعلته بك؟».

يهز رأسه وعيناه الداكنتان تفيضان حزنًا: «ليس الأمر كذلك، لقد جرى ترحيلهم إلى كولومبيا، لكنني وُلدت هنا ولم يرغبا في إبعادي عن أطبائي. أنا «تحت وصاية الدولة» إلى أن أبلغ الثامنة عشرة».

سحقًا، لا يمكنني حتى أن أتخيل حدوث ذلك، كيف أمكنهم أن يُرحِّلوا والدَيْ مصاب بالتليف الكيسي؟ والدَي شخص مصاب بمرض عضال.

أقول: «هذا سُخف».

يومئ بو برأسه: «لقد اشتقت إليهم.. كثيرًا».

أقطب حاجبيَّ وأنا أمرر أصابعي من خلال شعري: «بو، عليك أن تذهب، عليك زيارتهم».

يتنهد وعيناه تركزان على الصليب الخشبي الكبير خلف المنبر، وقد تذكرت ما سمعته، المال: «إنه مكلف، تريد أن ترسل المال، لكن لا يمكنها تحمل تكلفة ذلك. وأنا بالتأكيد، لن أتسبب بقطع الطعام عن مائدتها...».

- اسمع، إذا كان الأمر بشأن المال، بإمكاني المساعدة، جدِّيًا، لا أحاول أن أبدو ديكًا ثريًا، لكنها ليست مسألة....

لكن قبل حتى أن أُنهي كلامي، أدرك أن الأمر ليس متاحًا.

يدير رأسه لينظر إليَّ قبل أن يبسط ملامح وجهه: «بحقك، توقف، سوف.. سوف أجد حلًّا لذلك».

يخيِّم الصمت على كلينا، وقد جعل الهواء الطلق الهادئ للغرفة الشاسعة أذنيَّ تطنان، ليست مسألة مال. علاوة على ذلك، أنا أعرف أكثر من أي شخص آخر أن المال لا يمكنه إصلاح كل شيء، ربما أمي تعي ذلك يومًا ما.

يقول بو أخيرًا وهو يبتسم إليَّ: «برغم ذلك شكرًا لك من كلِّ قلبي».

أومئ برأسي بينما نعود للصمت مجددًا، كيف يكون من العدل أن تكون أمي بجانبي، بينما يُبعَد والدا شخص آخر عنه؟ ها أنا أبدأ العد التنازلي لبلوغ الثامنة عشرة، بينما يحاول بو إبطاء الوقت، ويتمنى المزيد منه.

المزيد من الوقت.

بالنسبة إليَّ، كان من السهل أن أستسلم، كان من السهل معاداة علاجي والتركيز على الوقت الذي لديَّ، التوقف عن العمل الجاد لعدة ثوانٍ إضافية أخرى، لكن ستيلا وبو يجعلانني أرغب في كلِّ ثانية أخرى أكثر مما يمكنني الحصول عليه، وهذا ما يرعبني أكثر من أيِّ شيء آخر.

في تلك الليلة تمددت على سريري، محدِّقًا إلى السقف بينما أجري علاج الرذاذ من دون ستيلا.

يرسل جاسون إليَّ «أي شيء؟». وهو ما لا يساعد، إذ إن الجواب سيدوِّي بـ«لا».

ليس هناك أي شيء منها إلى الآن، ولا حتى ملاحظة، لكنني لا أستطيع التوقف عن التفكير بها. وكلما طال صمتها، ازداد الأمر سوءًا، لا أستطيع التوقف عن التفكير بما سيبدو عليه الأمر بالقرب منها، إن مددتُ يدي فعلًا ولمستُها سأجعلها تشعر بحال أفضل بعد أن أفسدتُ الأمر.

بإمكاني الشعور بشيء ما يمتد من أعماق صدري، من أطراف أصابعي، ومن تجويف معدتي، يمتد ليتحسس البشرة الناعمة لذراعها، والندوب البارزة التي أنا على يقين بوجودها على جسدها.

لكنني لن أتمكن من ذلك أبدًا، المسافة التي بيننا لن تتلاشى أبدًا أو تتغير، ست خطوات إلى الأبد.

يرن هاتفي فألتقطه، أتفاءل، لكنه مجرد إشعار من تويتر، أرمي هاتفي على السرير مستاءً.

ماذا بحق الجحيم ستيلا؟ لا يمكنها البقاء غاضبة إلى الأبد.

هل يمكنها؟

أحتاج إلى إعادة الأمور لنصابها.

أطفئ الرذاذ وأنزل قدميَّ من على السرير، أنتعل حذائي وأحدق إلى الممر لأتأكد أن الطريق آمن، أرى جولي تدخل غرفة بعيدة في نهاية الممر وهي تحمل كيس حقن وريديّ، فأتسلل خلسة من غرفتي، وأنا أعرف أن لدي وقتًا،

أمشي بهدوء عبر الممر، أتجاوز قسم الممرضات الخالي وأقف أمام باب غرفتها، وأنا أسمع موسيقى تُعزف بهدوء على الجهة الأخرى.

إنها هناك.

آخذ نفسًا عميقًا، وأطرق الباب، وصوت مفاصلي يتردد صداه على الخشب البالي.

أسمع الموسيقى تتوقف ثم أسمع وقع خطواتها بينما تقترب شيئًا فشيئًا، وتتوقف عند باب الغرفة، مترددة.

يفتح الباب أخيرًا، عيناها العسليتان تجعلان قلبي يخفق بشدة في صدري.

كم من الجميل رؤيتها!

أقول بصوت خافت: «أنت هنا».

تقول بفتور: «أنا هنا».

وتستند إلى إطار الباب كما لو أنها لم تتجاهلني طوال اليوم: «لقد حصلت على رسمك الكاريكاتوري. سامحتك، تراجع».

أعود بسرعة لأصل إلى الحائط المقابل، تاركًا بيننا الخطوات المزعجة الست، نحدِّق إلى بعضنا بعضًا، ترمش بعينيها، وتنظر بعيدًا لتتأكد من خلو الممر من الممرضات قبل أن تخفض نظرها إلى أرضية البلاط.

- لقد فوَّتِّ علاجنا.

تنظر مندهشة من أنني تذكرت فعلًا لكنها تبقى صامتة، ألاحظ عينيها حمراوين، كما لو أنها كانت تبكي، ولا أعتقد أن ذلك هو السبب.

- ما الذي يحدث؟

تأخذ نفسًا عميقًا، وعندما تبدأ الكلام، أستطيع سماع التوتر يطوِّقُ كلماتها: «الجلد حول أنبوب معدتي ملتهبٌ للغاية، الطبيبة حاميد قلقة من الإنتان، سوف تكشط جلدي المصاب وتستبدل أنبوب معدتي في الصباح».

عندما أنظر في عينيها، أرى أن الأمر أكثر من مجرد توتر، إنها خائفة، أود أن أضع يدها في يدي. أريد أن أخبرها أن كلَّ شيء سيكون على ما يرام وأنه ليس لذلك أن يكون سيئًا.

- سوف أخضع للتخدير العام.

ماذا؟ التخدير العام؟ مع وظيفة رئتين بنسبة 35%؟ هل فقدت الطبيبة حاميد صوابها؟ أقبض على سور الجدار لأبقي نفسي في المكان.

- سحقًا، هل رئتاك مستعدتان لذلك؟

نحدق إلى بعضنا بعضًا للحظة، وكأن الهواء الطلق بيننا يمتد إلى أميال وأميال.

تنظر بعيدًا، وتتجاهل سؤالي، وتقول: «تذكَّر تناول أدوية النوم خاصتك، ثم أعِدَّ أنبوب تغذية معدتك من أجل الليل، حسنًا؟». ودون أن تعطيني وقتًا للرد، تغلق الباب.

أمشي ببطءٍ نحو الباب، أمد يدي لأبسطها عليه، وأنا أعرف أنها على الجهة الأخرى منه، آخذ نفسًا عميقًا، مسندًا رأسي إليه، وصوتي بالكاد يهمس «سيسير الأمر على ما يرام ستيلا».

تقع أصابعي على لافتة معلقة على الباب، أنظر إليها، وإذ بها قد كُتِب عليها: «لا طعام أو شراب بعد منتصف الليل، العملية الجراحية في السادسة صباحًا».

أبعد يديَّ قبل أن تمسك بي إحدى الممرضات، وأمشي في الممر نحو غرفتي، أرتمي على سريري. عادةً ما تفرض ستيلا سيطرتها، لماذا في هذا الوقت ليست كذلك؟ هل هو بسبب والديها؟ أم بسبب مدى انخفاض وظيفة رئتيها؟

أنقلب إلى جانبي، فتقع عيناي على رسمة الرئة خاصتي، ما يجعلني أتذكر الرسمة في غرفتها.

آبي.

بالطبع هذا سبب كونها فزعة للغاية.. إنها عمليتها الأولى من دون آبي.

لا أزال بحاجة إلى وضع الأمور في نصابها. تخطر في بالي فكرة فأجلس باعتدال، ألتقط هاتفي من جيبي، وأضبط منبهًا على الساعة الخامسة صباحًا، ربما لأول مرة على الإطلاق، ثم أتناول صندوق اللوازم الفنية لديَّ من على الرف وأبدأ التخطيط.

مكتبة ياسمين
telegram @
yasmeenbook

الفصل الثالث عشر

ستيلا

أضم باتشز إلى صدري وأنقل نظري بين أمي وأبي بينما يجلسان إلى جانبيَّ، وكلاهما يعطيني ابتسامات بشفاه مشدودة لا تصل إلى عينيه وهما يتحاشيان نظرات بعضهما. أنظر إلى صورتنا جميعًا المعلقة على الجزء الخلفي لباب غرفتي، أتمنى لو كان بإمكاني استعادة هذين الوالدين، اللذين لطالما أخبراني أن كلَّ شيء سيكون على ما يرام.

آخذ نفسًا عميقًا، وأنا أكتم السعال، بينما يحاول والدي أن يُجري حديثًا قصيرًا.

يرفع التقويم ذا اللون الزهري الذي جرى إرساله إلى جميع الغرف متضمنًا العروض اليومية للكافيتيريا هنا: «أعتقد أنه سيكون لديهم حساء البروكولي على العشاء الليلة، طبقك المفضل ستيل».

تصدمه أمي بقولها: «على الأرجح أنها لن تكون مستعدة لتناول الطعام مباشرةً بعد الجراحة توم»، فتبدو خيبة الأمل على وجهه.

أحاول إظهار الحماس: «إذا كنت جاهزة لذلك الليلة، فحتمًا سأحصل على البعض منه».

يُطرق الباب ويدخلُ ممرض، يرتدي غطاءَ رأس جراحيًّا وقفازات مطاطية زرقاء، يقف كلا والديَّ، ويمد والدي يده ليمسك بيدي.

لقد تطلب الأمر كلَّ شيء فيَّ للإقدام عليه.

تقول أمي: «نراك قريبًا صغيرتي»، بينما يعانقني كلٌّ منهما عناقًا شديدًا، والذي يستغرق وقتًا طويلًا بعض الشيء، أرمش عندما يحتكُّ أنبوب معدتي بهما، لكنني أمسكهما بشدة، إذ لا أريد أن أدعهما يرحلان.

يسحب الممرض العوارض على جوانب نقَّالتي، ويثبتها في مكانها بنقرة. أحدق إلى رسم آبي وهم يطرحونني، الرئتان السليمتان تنادياني، أتمنى أكثر من أي شيء آخر لو كانت معي الآن هنا، تمسك بيدي وتغنِّي لي.

يدحرجني الممرض عبر الممر، ووجها والديَّ يتلاشيان بينما يبتعدان شيئًا فشيئًا، ثم ندخل المصعد في نهاية الممر. بينما تغلق الأبواب، يبتسم إليَّ الممرض، أحاول أن أبادله الابتسامة، لكنْ فمي يرفض رسمها، أتشبث بالملاءات وأصابعي تتداخل مع القماش.

يُفتح الباب، وتطلُّ الممرات المألوفة، ويبدو كلُّ شيء ساطعًا جدًّا وأبيض جدًّا فلا يمكن تحديد التفاصيل.

نمر عبر الأبواب المزدوجة الكبيرة إلى منطقة ما قبل العمليات، ثم إلى غرفة منخفضة قليلًا عن الممر، يدفع الممرض النقالة داخلها، ويسأل: «هل تحتاجين إلى أيِّ شيء قبل أن أخرج؟».

أهز رأسي، وأحاول أن آخذ نفسًا عميقًا بينما يغادر، تصبح الغرفة ساكنة تمامًا عدا الطنين المستمر لشاشات المراقبة لديَّ.

أحدق إلى السقف، محاولة أن أدفع الذعر المتزايد الذي ينخر في أحشائي، لقد فعلت كلَّ شيء على نحو صحيح، كنت حذرة ووضعت الفوسيدين، تناولت أدويتي في أوقاتها المحددة، وها أنا مُمددة هنا على وشك الخضوع لعملية جراحية على أي حال.

كلُّ هوسي بنظامي الصحي راح سُدَى، أعتقد أنني فهمت ذلك الآن، لماذا يصعد ويل إلى السطح؟ كنت سأفعل أيَّ شيء لأنهض من النقالة وأجري بعيدًا، بعيدًا جدًّا.

إلى كابو، إلى مدينة الفاتيكان لأرى قصر سيستين، إلى كلِّ الأشياء التي قد تجنبتها خوفًا من أن أصبح مريضة، فقط لأجد نفسي ممددة هنا على أي حال، وعلى وشك الخضوع لعملية جراحية أخرى قد لا أخرج منها.

تلتف أصابعي حول العوارض المثبتة في مكانها على جميع جوانبي، ترتعد فرائصي بينما أحكم قبضتي عليها، أريد لنفسي أن تكون محاربة كما قالت الطبيبة حاميد البارحة، إذا أردت فعل هذه الأشياء، أحتاج إلى المزيد من الوقت.

عليَّ أن أحارب من أجل ذلك.

تفتح الأبواب ببطء، فيدخل شخص نحيل طويل، يرتدي الرداء الجراحي الأخضر ذاته، وقناع وجه، وقفازات زرقاء كالتي يرتديها ممرضو ما قبل العمليات، لكن شعره البني المجعد يخرج من تحت غطاء الرأس الجراحي الشفاف.

تجد عيناه عينَيَّ، فأترك العوارض في دهشة.

أهمس: «ماذا تفعل هنا؟»، بينما أشاهد ويل يجلس إلى مقعد بجانبي، ويرجعه إلى الخلف ليحافظ على مسافة آمنة بيننا.

يقول شارحًا: «إنها عمليتك الجراحية الأولى من دون آبي»، وقد ملأ تعبيرٌ جديد -لم أدركه تمامًا- عينيه الزرقاوين، لم تكن ساخرة أو مازحة، كانت مفتوحة تمامًا وكليًّا.. مخلصة تقريبًا.

أبتلع ريقي بصعوبة، محاولة إيقاف جميع المشاعر التي فاضت، وقد غمرت الدموع عينيَّ: «كيف عرفت ذلك؟».

يقول وقد تشكلت التجاعيد حول عينيه وهو يبتسم إليَّ: «لقد شاهدت جميع فيديوهاتك، يمكن أن تقولي إنني معجب».

جميعها؟ حتى المحرج ذاك عندما كنت في الثانية عشرة؟

يقول وهو يتنحنح ويسحب ورقة من جيبه: «قد أفسد ذلك».

يبدأ في الغناء، برقة.

- أحبك، بمقدار مكيال ومغرفة...

أقول وأنا أنتحب وأمسح دموعي بظهر يدي وأهز رأسي: «ابتعد.. أبدو غبية».

- مكيال ومغرفة وحُضن حول العنق.

أغنية آبي، إنه يغني أغنية آبي، تبدأ الدموع تنهمر على وجهي أسرع مما قد أتداركها بينما أشاهد عينيه العميقتين الزرقاوين، وهو يركز على كلِّ كلمة في قطعة الورق المجعدة تلك.

أشعر أن قلبي قد ينفجر، أشعر بالكثير من الأشياء في آن واحد: «اعتادت جدتنا على غناء تلك الأغنية لنا، لم أكن أحبها قط، لكن آبي كانت».

يضحك وهو يهز رأسه: «لقد ترتب عليَّ البحث عنها في جوجل، إنها قديمة جدًّا».

أضحك معه وأنا أومئ برأسي: «أعرف، ما هذا بحق الجحيم...».

نقول معًا: «برميل وكومة؟»، يضحك كلانا، وتلتقي عيناه بعيني مما يجعل قلبي يرقص داخل صدري، وقد أصبحت شاشة مراقبة القلب بجواره تطنُّ أسرع وأسرع، يميل إلى الأمام بشكل طفيف، بالكاد يبقى في منطقة الخطر، لكن بما يكفي ليزيح ألم أنبوب المعدة.

- سوف تكونين بخير ستيلا.

صوته عميق، ورقيق، عرفت في تلك اللحظة -حتى بالرغم من كون الأمر من أسخف ما يكون- أنني إذا متُّ حينها، لن أموت دون الوقوع في الحب.

أسأله: «تعدني».

يومئ برأسه ويمد ذراعه بعيدًا، رافعًا خنصره المغطى بالقفاز، أمسك به ونجري وعدًا بالخنصر، كان الاتصال الأصغر، لكنها المرة الأولى التي نلمس فيها بعضنا.

وهذا الآن لا يخيفني.

ينخطف رأسي إلى جهة الباب عندما يقترب صوت وقع خطوات أكثر فأكثر، تظهر الطبيبة حاميد، ومعها ممرضة جراحية تندفع عبر الباب.

تقول وهي ترفع إبهامها نحوي: «جاهزة لذلك؟».

يلتف رأسي إلى الكرسي حيث كان يجلس ويل، والخوف يقبض صدري.

إنه فارغ.

ثم أراه، خلف الستارة الرمادية، يضغط بظهره على الحائط، يرفع إصبعه إلى فمه ويسحب قناع وجهه ليبتسم إليَّ.

أبادله الابتسامة، وبينما أنظر إليه، أبدأ بتصديق ما قال.

سأكون بخير.

بعد دقائق عدة أتمدد على سرير العمليات، الغرفة مظلمة باستثناء الضوء الساطع مباشرة فوق رأسي.

يقول صوت، وهو يرفع قناع وجه بيدٍ ترتدي قفازًا أزرق: «حسنًا ستيلا، تعرفين ما عليك فعله».

يبدأ قلبي يخفق بقلق، وأدير رأسي لأقابلهم، أنظر في أعينهم الداكنة وهم يضعون قناعًا على أنفي وفمي، عندما أستيقظ، سينتهي كلُّ شيء.

أقول «عشرة»، وأنا أنظر وراء طبيب التخدير إلى جدار غرفة العمليات، تقع عيناي على شكل مألوف بشكل غريب.

رسمة الرئتين لأبي.

كيف؟

لكنني أعرف بالطبع، ويل، قد تسلل إلى غرفة العمليات، تسقط دمعة من عيني لكنني أواصل العدَّ.

«تسعة، ثمانية».. تبدأ الزهور جميعها تسبح معًا، الزرقاء والزهرية والبيضاء جميعها تلتفُّ وتدور وتختلط ببعضها، تخرج الألوان من الورقة وتقترب مني.

«سبعة، ستة، خمسة».. تدب الحياة في السماء السوداء فجأة، تسبح عبر الزهور، وتملأ النجوم الهواء من حولي.

تتلألأ وترقص فوق رأسي، وتقترب بما يكفي لأمد يدي وألمسها.

أسمع صوتًا يهمهم، في مكان ما في الأفق.. «مكيالًا ومغرفة».

- أربعة، ثلاثة.

تصبح حواف رؤيتي مظلمة، ويغدو عالمي أسود شيئًا فشيئًا، أركز على نجمة واحدة، نقطة واحدة من الضوء، تزداد إشراقًا ودفئًا وغموضًا.

تتوقف الهمهمة وأسمع صوتًا، بعيدًا ومشوشًا.

آبي، يا إلهي! إنه صوت آبي.

- ...عودي... لا.

أهمس «اثنان»، لست متأكدة إن كان في رأسي أم بصوت عالٍ، ثم أراها، أرى آبي، هناك أمامي، تكون صورتها في البداية ضبابية، ثم تصبح جَليَّة كوضوح النهار، بشعر أبي المجعَّد، وابتسامة أكبر من ابتسامتها الحقيقية، وعينيها العسليتين المطابقتين لعينيَّ.

- ...وقتًا... أكثر...

تدفعني بعيدًا عن الضوء.

- واحد.

ظلامٌ دامس.

الفصل الرابع عشر

ويل

أفتح الباب بهدوء، وأنظر في كلا الاتجاهين قبل أن أتسلل خارج منطقة ما قبل العمليات وأكاد أصطدم بممرضة، أنظر بعيدًا بسرعة ثم أرفع قناع وجهي لأموِّه عن نفسي بينما تتجه إلى الداخل.

آخذ بضع خطوات سريعة وأختبئ خلف الحائط إلى جانب السلالم، وألاحظ وجود رجل وامرأة يجلسان على جانبين متقابلين في غرفة الانتظار الخالية.

أحدِّق، أنقّل نظري من أحدهما إلى الآخر.

لقد رأيتهما في مكان ما.

يقول الرجل: «هل يمكنني أن أسألك سؤالًا؟»، فترفع المرأة رأسها لتنظر إليه مطبقةً على فكها.

تبدو كستيلا ولكن أكبر سنًّا، الشفاه الممتلئة ذاتها، والحواجب الكثيفة ذاتها، وحتى الأعين المعبرة ذاتها.

إنهما والدا ستيلا.

تومئ برأسها لمرة واحدة فقط، وقد بدت قلقة، كان الجوُّ متوترًا جدًّا، أعلم أن عليَّ الرحيل.. أعلم أن عليَّ فتح باب السلالم والذهاب قبل أن أقع في مشكلة، لكن شيئًا ما يجعلني أبقى.

- البلاط في حمَّامي، آه، أرجواني؟ ما لون سجادة الحمام التي...

تقول «أسود»، وقد أسندت رأسها إلى الخلف ونظرت إلى يديها، شعرها يتساقط أمام وجهها.

تسود لحظة صمت، وأرى الباب في الممر يُفتح بهدوء، وتخرج بارب من خلاله، لم يلحظ أحدهما دخولها. يتنحنح والد ستيلا «والمناشف؟».

تنفض يديها ساخطة: «لا يهم توم».

- كان مهمًّا عندما كنا نطلي المكتب، قلت إن سجادة الحمام...

ترد ووجهها حانق: «ابنتنا في العمليات وتريد التحدث عن المناشف؟». لم أرَ بارب من قبل مستاءة هكذا. مشبّكة ذراعيها، وتقف باستقامة قليلًا بينما تشاهد الأخذ والردَّ بينهما.

يقول والدها بصوت خافت: «أردت فقط التحدث... عن أيِّ شيءٍ».

- يا إلهي! أنت تقتلني، توقف....

يتلاشى صوتها بينما ينظر كلاهما نحو بارب، يزداد وجهها غضبًا شيئًا فشيئًا إلى أن تبدو عليها تلك النظرة التي ترمقنا بها عندما نقع في ورطة.

تأخذ نفسًا عميقًا، وقد سحبت كلَّ الهواء في الغرفة، تقول وصوتها بالغ الجدية: «لا يمكنني تخيل ما تمرَّان به، لقد خسرتما آبي، لكن ستيلا... -تشير إلى أبواب منطقة ما قبل العمليات، حيث في مكان ما هناك، تتمدد ستيلا على سرير وهي على وشك أن تخضع لعملية- ستيلا تحارب لبقائها حية هناك، وهي تفعل ذلك من أجلكما».

ينظر كلاهما بعيدًا، خجِلًا.

تثور بارب في وجهيهما، وصوتها ملؤه الخيبة: «لا يمكنكما أن تكونا صديقين؟ كونا راشدين».

اللعنة، بارب.. أعيديهما إلى وعيهما.

تهز والدة ستيلا رأسها: «لا يمكنني أن أكون على مقربة منه، إنني أنظر في وجهه فأرى آبي».

يرفع والدها رأسه سريعًا، وبالكاد يلتفت إليها قبل أن يشيح بنظره بعيدًا: «أنا أرى ستيلا عندما أنظر إليك».

تقول بارب، وهي تنظر إلى الأعلى: «أنتما والداهما، هل نسيتما هذا الجزء من الموضوع؟ هل تعرفان أنها عندما اكتشفت أمر الجراحة، أصرت على إخباركما بنفسها لأنها كانت خائفة للغاية من كيفية تقبلكما للأمر؟».

يا إلهي، لا عجب أن ستيلا كانت مهووسة للغاية بالبقاء على قيد الحياة، هؤلاء الأشخاص فقدوا ابنتهم، ثم فقدوا بعضهم، إذا ماتت هي، على الأرجح سيفقدون عقولهم.

غادر أبي قبل أن أصبح مريضًا أكثر فأكثر، قبل أن يتمكن التليف الكيسي من التأثير سلبًا على جسدي، لم يستطع أن يتقبل أمرَ طفل مريض، وحتمًا لم يكن ليستطيع أن يتقبل طفلًا ميتًا، لكن الاثنين؟

أشاهد والديها أخيرًا وهما ينظران إلى بعضهما، ينظران إلى بعضهما حقًّا، وصمتٌ باكٍ يخيِّم عليهما.

لقد كانت ستيلا تعتني بنا جميعًا، والدتها، والدها، أنا. لقد بقيت أعد تنازليًّا لأبلغ الثامنة عشرة، لأكون بالغًا، وأمسك بزمام الأمور. ربما حان الوقت لأتصرف فعلًا على هذا النحو، ربما قد حان الوقت لأعتنيَ بنفسي.

أنظر خلسة إلى بارب، فتتسع عيناها في الوقت ذاته الذي تفعل عيناي الشيء نفسه.

يا للهول! إنني كغزالٍ اكتُشف على أضواء السيارات، غير متأكد إن كان يجدر بي الفرار أم أن أتلقى ما ينتظرني، أتردد لوقت طويل فتنقضُّ عليَّ، تمسك بذراعي وتسحبني عبر الممر إلى المصعد: «أوه، تبًّا».

أبقى صامتًا بينما تفتح أبواب المصعد وهي تجرني إلى الداخل.

تضغط على زر الطابق الثالث، مرات ومرات ومرات، وهي تهز رأسها، لقد استطعت رؤية الغضب حرفيًّا يتصاعد منها.

- انظري بارب، أعرف أنك غاضبة، لكنها كانت خائفة، كان لا بُدَّ أن أراها...

تغلق الأبواب فتستدير لتنظر إليَّ، ووجهها كالرعد: «يمكن أن تقتلها ويل، يمكن أن تدمر أيَّ فرصة لديها لرئتين جديدتين».

أرد: «إنها معرضة للخطر تحت ذاك التخدير أكثر منه عندما تكون معي».

تصرخ بارب: «مخطئ!»، بينما يتباطأ المصعد ليتوقف، ثم تُفتح الأبواب، تندفع خارجًا وألحق بها، وأنا أناديها من خلفها.

- ما حكايتك بارب؟

تقول بارب، وهي تستدير لتقابلني: «تريفور فون وإيمي بريسلي، كانا شابين مصابين بالتليف الكيسي، تمامًا مثلك أنت وستيلا، جاءت إيمي ومعها بكتيريا البيركهولدرية البصلية».

كانت عيناها جادَّتين، لذلك أغلقت فمي قبل أن ألقي أحد تعليقاتي المعتادة وتركتها تواصل حديثها: «كنت صغيرة، تقريبًا بعمر جولي، جديدة على ذلك، جديدة على الحياة».

نظرت خلفي، سارحة في وقت زمنيٍّ مختلف.

- كان تريفور وإيمي واقعين في الحب، جميعنا كنا نعلم القوانين. لا تماسّ، على بعد ست خطوات. وأنا -أشارت إلى نفسها- تركتهما يخرقان القوانين لأنني أردتهما أن يكونا سعيدين.

سألت، وأنا أعرف النهاية قبل إخبارها لي بوقت طويل: «دعيني أخمن، مات كلاهما؟».

قالت وهي تنظر مباشرة في عينيَّ: «نعم»، وتقاوم البكاء: «التقط تريفور عدوى بكتيريا البيركهولدرية البصلية من إيمي، عاشت إيمي لعقدٍ آخر، لكن

تريفور؟ نُزع اسمه من أعلى قائمة الزرع وعاش فقط لعامين آخرين بعد أن استنزفت البكتيريا وظيفة رئتيه».

سحقًا.

أبتلع ريقي، وأنا أنقل نظري بينها وبين غرفة ستيلا مباشرة خلف قسم الممرضات، قائمة الأشياء التي يمكن أن تحدث لنا نحن المصابين بالتليف الكيسي، وقصص الأشباح التي تروى لنا، لا تُحصى، لكن سماع بارب تتحدث عن تريفور وإيمي، لا يشبه قصص الأشباح على الإطلاق.

تقول، وهي تشير إلى نفسها: «كان ذلك في أثناء مناوبتي».

تهز رأسها بعناد: «لتحلَّ عليَّ اللعنة إذا حدث ذلك مجددًا».

تستدير وتمشي بعيدًا، وتتركني عاجزًا عن الكلام.

أنظر فأرى بو يقف على مدخل غرفته، والتعبير على وجهه لا يمكن تفسيره، لقد سمع كلَّ شيء، يفتح فمه ليهمَّ بقول شيء ما، لكنني أرفع يدي، مقاطعًا إياه. أتوجه مباشرة إلى غرفتي، مغلقًا الباب بصوت عالٍ ورائي.

ألتقط حاسوبي المحمول من على طاولتي وأجلس على السرير، أمرر أصابعي على لوحة المفاتيح، ثم أبحث عنها، عن بكتيريا البيركهولدرية البصلية.

تقفز الكلمات في وجهي.

التلوث

المخاطر

العدوى

بسعلة واحدة فقط، بلمسة واحدة فقط، يمكن أن أدمر حياتها بأسرها، يمكن أن أدمر أيَّ فرصة لديها للحصول على رئتين جديدتين. يمكن أن أوذي ستيلا، كنت أعرف ذلك، على ما أعتقد، لكنني لم أكن أراه حقًّا.

التفكير في ذلك يجعل كلَّ عظمة في جسدي تؤلمني، الأسوأ من العمليات الجراحية، أو العدوى، أو النهوض في صباح سيِّئ وبالكاد يمكنك التنفس، وأسوأ حتى من ألم الوجود معها في الغرفة ذاتها دون القدرة على لمسها.

الموت.

هذا ما أنا عليه.. هذا ما أعنيه لستيلا.

الشيء الوحيد الأسوأ من ألا أكون قادرًا على أن أكون معها أو إلى جانبها هو العيش في عالم ليست موجودة فيه على الإطلاق، خصوصًا إن كان ذلك خطئي.

الفصل الخامس عشر

ستيلا

يقول صوت من مكان ما بعيد: «حان الوقت للنهوض يا صغيرتي».

إنه صوت أمي، الآن أقرب، من جانبي مباشرة.

آخذ نفسًا عميقًا، يتأرجح العالم ليؤول إلى الوضوح، رأسي مشوش. أرمش بعينيَّ بينما يظهر لي وجهها، وأبي يقف إلى جانبها.

أنا على قيد الحياة.. لقد فعلتها.

تقول أمي: «ها هي أميرتي النائمة»، أفرك عينيَّ بترنُّح، أعرف أنني قد استيقظت للتوِّ، لكنني مرهقة.

يسألني أبي: «كيف تشعرين؟»، فأجيب بتأوُّهٍ نَعِس، مبتسمة لكليهما.

يُطرق الباب، فتندفع من خلاله جولي ومعها كرسي متحرك لإنزالي إلى غرفتي وسريري.. شكرًا لله.

أحرك يدي في الهواء، رافعةً إبهامي بنمط المسافر، وأصدح: «هل يمكنني الحصول على توصيلة؟».

تضحك جولي، ويساعدني أبي على النهوض من النقالة إلى الكرسي المتحرك، مهما كانت قوة مسكنات الألم المؤثرة عليَّ الآن، لا يمكنني الشعور بوجهي، ناهيك بالألم الصادر عن أنبوب معدتي.

يقول أبي: «سنمر لاحقًا للاطمئنان عليك»، وأرفع لهما إبهامي إلى الأعلى، مذهولة.

انتظر.

سنمر.

سنمر لاحقًا للاطمئنان عليك؟

أستهجن، وأنا أفرك عينيَّ وأحدق إليهما: «هل استيقظتُ في عالمٍ بديل؟».

تبتسم أمي وتمسِّدُ شعري بشكل مريح بينما تنظر إلى أبي: «أنت ابنتنا، ستيلا. لطالما كنتِ، وستبقين دائمًا».

مسكنات الألم هذه قوية.

أفتح فمي لأقول شيئًا ما، لكنني مصعوقة ومرهقة جدًّا وعاجزة عن ربط جملة ببعضها، أومئ فحسب، ورأسي يتأرجح بشدة إلى الأعلى والأسفل.

تقول أمي، وهي تطبع قبلة على جبهتي: «خذي قسطًا من النوم يا حُلوتي».

تأخذني جولي عبر الممر وتدخلني المصعد، يكاد من المستحيل أن أُبقي عينيَّ مفتوحتين، أشعر بجفنيَّ أثقل من كيس من البطاطا.

أقول واشيةً وأنا أعطيها نظرة خبيثة وأرى بطنها على مستوى نظري خلف كتفي مباشرةً: «هووه جولي، لقد تبولت».

تفتح أبواب المصعد وتدحرجني داخل غرفتي، وتقفل عجلات الكرسي: «يبدو الجلد والأنبوب أفضل بكثير، ستكونين يقظة وبإمكانك المشي لوحدك بحلول الظهيرة، رغم ذلك، لا حركات ترهق البطن».

أعاني بينما تساعدني لأقف ببطء وتضعني في السرير، أشعر بساقيَّ وذراعيَّ كما لو كانت أثقالًا من الرصاص، تُعدل وسائدي وتريحني برفق، ساحبة الأغطية فوق جسدي.

أقول وأنا أتنهد بنعس، حزينة: «ستتولين رعاية طفلك».

تلاقي جولي نظراتي، تجلس على حافة سريري، وهي تخرج زفرة طويلة، تبتسم إليَّ، وعيناها الزرقاوان دافئتان: «سأحتاج إلى المساعدة ستيلا، لا يوجد غيري، لا يمكنني التفكير بأيِّ شخص قد أثق به أكثر».

أمد يدي، محاوِلةً الرفق بقدر ما تستطيع يدي المنهكة مربتَةً على معدتها مرة، اثنتين.

أثبتها.

أعطيها ابتسامة كبيرة: «سأكون الخالة الأفضل على الإطلاق».

الخالة ستيلا، أنا.. خالة؟ أنخفض في نعاس، وأخيرًا ظهر تأثير مسكنات الألم والجراحة عليَّ. تقبِّلني على جبهتي وتغادر، وقد أغلقت الباب برفق وراءها، أغرق في وسادتي، ملتفةً على نفسي وأنا أضمُّ الباندا خاصتي جيدًا، أنظر إلى طاولة سريري، وعيناي تغمضان ببطء... لحظة! أجلس، وألتقط صندوقًا ورقيًّا من عليها، مربوطًا بشريطة حمراء.

أسحب الشريطة، فيُفتح الصندوق لتظهر باقة بارزة من الزهور الملونة والمصنوعة يدويًّا، مع ليلكٍ بنفسجي وأرطاسيا زهرية وزهور برية بيضاء كما في رسمة آبي، دبَّت الحياة فيها فجأة.

ويل.

أبتسم، وأضعه خلفي برفق بينما أبحث بالجوار عن هاتفي. ألتقطه، ويتطلب الأمر كل ما لديَّ لأركز على الشاشة بينما أمرر الأرقام من خلالها لأصل إلى رقم ويل، أضغط على زر الاتصال، أستمع إليه يرن، وعيناي تغمضان بينما ينتقل إلى البريد الصوتي. عند الانتقال إلى الصافرة، يتلعثم صوتي إذ أبدأ الكلام: «إنه أنا! ستيلا. لا تتصل بي، حسنًا؟ لأنني قد أجريت جراحةً مؤخرًا وأنا متعبة جدًّا، لكن اتصل بي عندما... يصلك هذا. لكن لا، لا تفعل. حسنًا؟ لأنني إذا سمعت صوتك الفاتن، لن أتمكن من النوم، نعم. لذا، اتصل بي، حسنًا؟».

أتحسس الهاتف وأنا أضغط على زر إنهاء المكالمة، ألتف على نفسي، وأشد أغطيتي أقرب إلى جسدي وألتقط دب الباندا مجددًا، أستمر في التحديق إلى الأزهار عندما أستغرق أخيرًا في النوم.

يبدأ هاتفي يرن، يسحبني من نوم ما بعد الجراحة العميق. أتقلب، وعيناي أقل ثقلًا إذ أفتحهما، أرى بو يتصل بي عبر الفيس تايم، أتحسس الشاشة، لأضغط أخيرًا على الزر الأخضر، فيظهر وجهه.

أنت حيَّة!

أبتسم، وأفرك عينيَّ وأجلس، لا أزال نعِسة، لكن المسكنات زالت بما يكفي لئلا أشعر برأسي يبدو كثقالة الورق.

أقول وعيناي تتسعان بينما تقعان على باقة الزهور الجميلة التي على طاولة سريري: «مرحبًا، أنا حية، يبدو الأنبوب على ما يرام».

ويل.. أتذكر بغموضٍ فتح الباقة.

أتحقق بسرعة من الرسائل النصية لديَّ، اثنتان من أمي، ثلاثٌ من كاميليا، واحدة من ميا، أربع من أبي، الجميع يطمئن على حالي.

لا توجد أي رسالة من ويل.

يسقط قلبي من على ارتفاع عشرين طابقًا.

أسأل مُقطبة حاجبي: «هل كلمت ويل؟».

يقول بو وهو يهز رأسه: «لا». يبدو وكأنه يريد قول شيء آخر، لكنه لا يفعل.

آخذ نفسًا عميقًا، أسعل، يؤلمني جانبي حيث كان التهاب الجلد، أوه، أتمدد، هناك حتمًا ألم لكنه معقول.

لديَّ رسالة على الانستجرام، أمرر لأرى أنها رد من مايكل تلقيته عندما كنت نائمة، لقد راسلني الليلة الماضية ليرى ما حال بو، ويسأل عن التهاب القصبات الهوائية لديه. و-الأكثر غرابة- ليسأل ما إذا كان بو سيذهب لزيارة والديه في كولومبيا، ليست لديَّ أي فكرة حتى عن تفكيره بذلك.

نتحدث ساعة تقريبًا، عن مدى سعادته لأنني هنا مع بو في المستشفى، عن مدى روعة بو.

عن أنه لا يفهم ما الخطأ الذي حدث.

إنه حقًّا يهتم بشأنه.

أقول: «لقد راسلني مايكل»، وأنا أختلس النظر لأرى رد فعل بو على كلماتي بينما أعود مجددًا لبرنامج فيس تايم.

يسأل مندهشًا: «ماذا؟ لماذا؟».

«يسأل إن كنت على ما يرام». يبدو تعبير بو غير واضح، وعيناه الداكنتان جديتان: «إنه لطيف، يبدو فعلًا أنه يحبك».

يدوِّرُ عبنيه: «الحديث مجددًا في شؤوني الخاصة.. من المؤكد أنكِ قد تعافيت تمامًا».

بو محرومٌ من الحب لأنه خائف، خائف من الاستمرار حتى النهاية، خائف من إقحام شخص ما بكل السخافات التي علينا التعايش معها، أعرف ما يبدو عليه الأمر مع ذلك الخوف، لكن ذلك الخوف لا يمنع الأمور المروعة من الحدوث.

لا أريده بعد الآن.

أقول وأنا أهز كتفي بعفوية، حتى ولو كانت كلماتي جدية: «أقول فحسب، إنه لا يأبه بكونك مريضًا».

لا يهتم مايكل بأن بو مصاب بالتليف الكيسي، بل يهتم لكونه لا يستطيع أن يكون هنا من أجله.

عندما تكون مصابًا بالتليف الكيسي، لا تعرف كم تبقى لديك من الوقت. لكن بصراحة، لا تعرف كم تبقى من الوقت للشخص الذي تحبه أيضًا، يسافر نظري إلى باقة الزهور البارزة.

- وماذا عن زيارتك إلى عائلتك... ستذهب بلا شك، أليس كذلك؟

يقول وهو يحدِّق إليَّ: «اتصلي بي عندما يزول عنك تأثير المسكنات»، وينهي المكالمة.

أرسل رسالة سريعة إلى كلا والديَّ، أطلب منهما أن يعودا للمنزل ويحظيا ببعض الراحة، إذ إن الوقت قد تأخر بالفعل وأحتاج إلى أن أنام وقتًا أطول. لقد بقيا عالقين هنا لساعات، ولا أريدهما أن ينتظراني لأستيقظ فهما يحتاجان إلى الاهتمام بنفسيهما.

يحتجُّ كلاهما، ويطرق باب غرفتي بعد عدة دقائق، ويُطلان برأسيهما، معًا، لينظرا إليَّ.

أتذكر بغموض «سنمر» منذ أن صحوت أول مرة، كلاهما في جبهة موحدة للمرة الأولى منذ وفاة آبي.

تسأل أمي وهي تبتسم إليَّ، وتطبع قبلة على جبهتي: «كيف تشعرين؟».

أجلس، أهز رأسي: «اسمعا، عليكما الرحيل حقًّا، أنتما هنا...».

يقول أبي وهو يأخذ يدي ويضغط عليها: «نحن والداكِ ستيل، حتى ولو لم نكن معًا، نحن دائمًا هنا من أجلك. أنت دائمًا في المقام الأول، وفي الأشهر القليلة الماضية... لم نظهر ذلك نهائيًّا».

تقول أمي وهي تشاركه نظرة تفهم: «الأشهر القليلة الماضية كانت وقتًا عصيبًا بالنسبة إلينا جميعًا، لكن ليس عليك أن تجعلينا نشعر بشكل أفضل، حسنًا؟ نحن والداك يا حلوتي. أكثر من أي شيء آخر، نريدك أن تكوني سعيدة ستيلا».

أومئ برأسي، ما كنت لأتوقع ذلك ولا حتى في مليون عام.

يقول أبي وهو يجلس على كرسي بجانب سريري: «بالمناسبة، كان الحساء رائعًا، قولي ما شئت عن طعام الكافيتيريا، لكنهم يصنعون أفضل بروكولي بالشيدر».

أنظر أنا وأمي إلى بعضنا بعضًا، والابتسامات تفسح المجال لضحك عميق كان لا بُدَّ لي من كبته لئلا يتضرر أنبوب معدتي الجديد. لا يزال الحزن قائمًا،

لكنني أشعر بقليل من الثقل ينزاح شيئًا فشيئًا من على كتفيَّ، أتنهَّد، وأتنفس بشكل أسهل قليلًا مما كنت عليه منذ وقت طويل، ربما لم تكن هذه الجراحة الشيء الأسوأ على أي حال.

أغفو لمدة أطول قليلًا بعد أن غادر والداي، يذهب النوم بما تبقى من التشويش، وعندما أستيقظ بعد نحو ساعة، أكون تمامًا خارج وطأة المخدر، أنهض ببطء، أتمدد، وألم العملية يمتد إلى جانبي وصدري. فمسكنات الألم أيضًا قد زال تأثيرها.

أرفع قميصي لألقي نظرة، ما زال جلدي مكشوطًا ومتقرِّحًا إثر العملية، لكن المنطقة حول أنبوب المعدة تبدو بالفعل أفضل ملايين المرات.

تقع عيناي على باقة الزهور البارزة وأبتسم بحماس، أقف بحذر وآخذ نفسًا عميقًا، يكافح الهواء في دخوله وخروجه من رئتيَّ، أتناول الأكسجين المحمول خاصتي من على طاولة سريري، أضع قنية الأنف وأشغِّلها لأمدَّ لها يد العون.

أرد على ميا وكاميليا ليعرفا أنني استيقظت ولا يقلقا، أنا جيدة كما لو كنت جديدة. أو على الأقل قد عدت لنسبة 35% من وظيفة رئتي.

لا يزال عليَّ أن أطلعهما على ما حدث مؤخرًا مع والديَّ، لكنهما على متن قارب وأنا لديَّ مكانٌ عليَّ أن أكون فيه أيضًا.

لأغير ملابسي، أتحرك ببطء وحذر، أسحب طقمًا داخليًّا وقميصًا ملونًا جلبته لي آبي عندما ذهبت إلى جراند كانيون. ألقي نظرة على نفسي في المرآة، الهالات السوداء أسفل عيني تبدو أعمق مما كانت منذ شهور، أسرح شعري سريعًا وأربطه في ذيل حصان أنيق، أعبس عندما لا يبدو جيدًا كما أملت.

أعود فأسدله، وأومئ في رضا عن انعكاسي عندما ينزل شعري برفق على كتفيَّ، ألتقط محفظة مكياجي من أسفل خزانتي، أضع بعض المسكارا وملمع الشفاه، وأبتسم لفكرة أن ويل لن يراني حية فحسب، بل وأضع المكياج، وعيناه الزرقاوان تحدقان إلى شفاهي اللامعة، هل سيرغب في تقبيلي؟

أعني، لن نتمكن أبدًا، لكن هل سيرغب في ذلك؟

أتورَّدُ خجلًا، أهز رأسي وأنا أرسل له رسالة سريعة، أخبره فيها أن يقابلني في البهو في غضون عشر دقائق.

أسحب حزام الأكسجين المحمول الخاص بي على نحو أبعد على كتفي، أسلك الطريق السريع، وأستقل المصعد لأعبر الجسر إلى المبنى 2، ثم أنزل السلالم إلى البهو، والذي يشغل كاملَ الجزء الخلفي للمبنى، أجلس على مقعد، وأحدِّق إلى جميع الأشجار والنبات من حولي، ونافورة حجرية تصدر خريرًا هادئًا من خلفي.

يخفق قلبي بلهفة عندما أفكر أنني سأراه في غضون عدة دقائق قصيرة.

بانفعال واضطراب، أتناول هاتفي متفقدةً الوقت، لقد انقضت عشر دقائق منذ أن أرسلت الرسالة لويل ولم يأتِ بعد.

أرسل له رسالة أخرى: أنا هنا، هل تلقيت رسالتي؟ أين أنت؟

تنقضي عشر دقائق أخرى.. ثم أخرى.

قد يكون في قيلولة؟ أو قد يكون أصدقاؤه في زيارة له ولم يتسنَّ له تفقُّد هاتفه؟

ألتفت عندما أسمع صوت الباب يفتح من خلفي، أبتسم، وأتحمس أخيرًا لرؤية... بو، ماذا يفعل بو هنا؟

ينظر إليَّ، ووجهه جديٌّ: «ويل لن يأتي».

بالكاد أنطق: «ماذا؟ لماذا لن يأتي؟».

- لا يريد أن يأتي، لن يأتي.

لا يريد أن يراني؟ ماذا؟ يمدَّ بو يده وفيها علبة من المناديل الورقية، فأتمدد لألتقطها، مقطبة حاجبيَّ في ارتباك.

- أخبرني أن أقول لك إنَّ ذاك الشيء الصغير بينكما قد انتهى.

تتحول الصدمة والأذى إلى غضب عميقٍ وحقيقي، يخدش في معدتي، لماذا قد غنى لي أغنية آبي قبل العملية؟ لماذا قد يتسلل إلى منطقة ما قبل

العمليات ويعرض نفسه لأن يقبض عليه؟ لماذا قد يصنع لي باقة زهور مصنوعة يدويًّا إذا كان هذا «الشيء الصغير» بيننا قد انتهى؟

تنهمر دمعة إحباط على وجهي فأمزق علبة المناديل لأفتحها، أقول وأنا أمسح عينَيَّ بغضب: «أكرهه».

يقول بو وهو يستند إلى الحائط وينظر إليَّ: «لا، أنت لا تكرهينه». صوته رقيق لكنه أمر واقع.

أضحك وأنا أهز رأسي: «على الأرجح قد ضحك كثيرًا بشأن غريبة الأطوار المهووسة في الغرفة 302، ها؟ لم يرد أن يخبرني بكلٍّ ذلك بنفسه لئلا يضحك في وجهي؟ على غير عادته».

آخذ نفسًا، وأصمت لأنني حتى ولو كنت غاضبة، لا يبدو هذا صائبًا، هذا لا يعني شيئًا: «هل هو بخير؟ هل حدث شيء ما؟».

يهز بو رأسه: «لا، لم يحدث شيء». يتردد، وعيناه تسافران لينظر خلفي، إلى نافورة الماء.

- حسنًا، دعيني أصحح ذلك.

يقابل عيني: «بارب هي الفاعلة».

يخبرني بشأن ما سمعه في الممر، كيف أن بارب واجهت ويل بشأننا، كيف أن بقاءنا معًا يمكن أن يقتل كلينا.

لم أدعه يكمل حتى، إلى متى سأعيش حياتي خائفة من الافتراضات؟ حياتي تتمحور حول الهوس بالنظام العلاجي والنسب المئوية، وبما إنني قد خضعت للجراحة مؤخرًا، فإنَّ الخطرَ لا يبدو أنه سيزول أبدًا. كلُّ دقيقة من حياتي تتمحور حول «ماذا لو»، والأمر لا يختلف بالنسبة إلى ويل.

لكن بإمكاني قول شيء واحد.. سيكون الأمر مختلفًا من دونه.

أمشي متجاوزة بو، أندفع خلال الأبواب الكبيرة وأصعد السلالم وأعبر الجسر إلى المصاعد.

يناديني من خلفي: «ستيلا، انتظري!»، لكنني أحتاج أن أرى ويل، أريد أن يخبرني أن هذا ما يريده.

أضرب زر المصعد، مرات ومرات، لكنه يستغرق وقتًا طويلًا، أنظر في كلا الاتجاهين لأرى بو يلحق بي، ووجهه مضطرب، أمضي قدمًا إلى الدَّرج، أسعل وأمسك بجانبي، ألم الجراحة يجعل رأسي يدور. أدفع الباب وأنزل السلالم بسرعة.

أعود من خلالها لطابقنا، أفتح بقوة الأبواب المزدوجة وأطرق بقوة على باب الغرفة 315. أنظر خلسة إلى قسم الممرضات، وأرتاح لكونه خاليًا.

ألهث وصدري يتنهَّد: «ويل، لن أغادر حتى تتحدث إليَّ».

هناك صمت، لكنني أعرف أنه هناك.

تضرب خطوات بو على أرضية الممر، ثم يتوقَّف على بُعد ست خطوات عني.

يلهث وهو يهز رأسه: «ستيلا»، وصدره يتنهَّد من تعقُّب أثري.

أتجاهله وأطرق الباب مجددًا، أقوى هذه المرة: «ويل».

يقول صوته من خلال الباب: «اذهبي، ستيلا»، يصمت ثم يقول: «رجاءً».

رجاءً، هناك شيء ما بشأن الطريقة التي يقولها بها، بشكل طويل، عميقة وقوية.

أنا متعبة من الحياة من دون العيش بحق، أنا متعبة من الرغبة في الأشياء، ليس لدينا الكثير من الأشياء، لكن يمكننا الحصول عليها.

أعرف ذلك.

- ويل، فقط افتح الباب لنتمكن من التحدث.

تنقضي دقيقة كاملة، لكن فيما بعد يُفتح الباب قليلًا، فقط بما يكفي لأتمكن من رؤية ظله على بلاط الأرضية، عندما لا يخرج، أبدأ أتراجع إلى الخلف لأستند إلى الجدار البعيد، كما أفعل دائمًا.

- سوف أتراجع إلى الوراء، حسنًا؟ كلُّ المسافة إلى الحائط، سأكون بعيدة بما يكفي.

تنهمر الدموع من عيني مجددًا، أبتلع ريقي، وأجبرها على العودة.

يقول برفق: «لا أستطيع، ستيلا»، وأرى يده تمسك بإطار الباب عبر الشق.

- لِمَ لا؟ ويل، هيا...

يقاطعني بصوت حازم: «أنت تعرفين أنني أريد ذلك، لكنني لا أستطيع». صوته يغصُّ في حنجرته، وأنا أعرف.

أعرف في تلك اللحظة أن ذاك «الشيء الصغير» بيننا لم ينتهِ، لقد بدأ للتوِّ.

أخطو خطوة نحو الباب، وأنا أرغب في رؤيته الآن أكثر من رغبتي حتى في التنفس: «ويل...».

يُغلق الباب في وجهي، ومزلقة الباب تدخل في مكانها. أحدق إليه مذهولة، أشعر أن أنفاسي انقطعت.

يقول صوت من خلفي: «ربما الأمر أفضل هكذا».

ألتفت لأرى بو، لا يزال يقف هناك، عيناه حزينتان لكن صوته حازم.

أهز رأسي: «لا، لا، يمكنني إيجاد حلٍّ. عليَّ... إيجاد حلٍّ بو، أنا فقط...».

ينخفض صوتي وأنظر إلى الأسفل، يجب أن تكون هناك طريقة.

يقول بو بهدوء: «نحن لسنا عاديين ستيلا، لا يحق لنا أن نحصل على هذا النوع من الفرص».

أرفع رأسي وأنا أحدِّق إليه، من بين كلِّ الناس الذين هم ضدنا: «أوه! هيا، ليس أنت أيضًا».

يرد على الفور، وهو يشبِّه إحباطي بإحباطه: «فقط اعترفي بما يجري في الواقع هنا». نحدِّق إلى بعضنا بعضًا ويهز رأسه: «ويل متمرد. إنه شخص يخاطر، تمامًا كآبي».

يتجمد الدم في أحشائي، أصرخ: «هل تريد أن تملي عليَّ ما يجب عليَّ فعله في حياتي؟ ماذا عن حياتك؟ أنت وتيم، أنت وريك، ماركوس، مايكل؟».

يقبض على فكه: «لا تتمادي في هذا ستيلا».

أُصفِّقُ: «أوه! يمكنني الاستمرار في التمادي في ذلك! جميعهم كانوا يعرفون أنك مريض، وأحبوك على أيِّ حال، لكنك من هرب بو ليس هم، أنت، في كلِّ مرة». أخفض صوتي، وأنا أهز رأسي وأتحداه: «ما الذي تخاف منه بو؟».

يصرخ في وجهي، وملأ صوته الغضب: «أنت لا تعرفين ما الذي تتحدثين عنه!»، أعرف أنني قد ضربت على وتر حساس.

آخذ بضع خطوات أقرب، وأنظر مباشرة في عينيه: «لقد أفسدتَ كلَّ فرصة للحبِّ اعترضتْ طريقك. لذا، رجاء، أبقِ نصائحك لنفسك».

أستدير وأمشي في اتجاه غرفتي، لا يزال الهواء يعج بالغضب، أسمع صوت باب غرفته يُطبق بصوت عالٍ من خلفي، ويدوي في جميع أنحاء الممر، أتجه إلى غرفتي، وأصفق الباب بمقدار القوة نفسه.

أحدِّق إلى الباب المغلق، رئتاي ترتفعان وتنخفضان بينما أعاني لالتقاط أنفاسي، كلُّ شيء يسوده الصمت عدا طنين الأكسجين المحمول وصوت ضربات قلبي، تخور ساقاي، فأنزلق على الأرض، وكلُّ عرقٍ في جسدي يُجهد فجأة من العملية ومن ويل ومن بو.

لا بُدَّ أن هناك طريقة، هناك طريقة، أحتاج فقط إلى إيجادها.

•••

كانت الأيام التالية تشبه بعضها، يأتي والداي لزيارتي، كلٌّ منهما على حدة، ثم يأتيان مرة أخرى معًا بعد ظهيرة يوم الأربعاء. إنهما يتصرفان -إن لم يكن كصديقين- على الأقل بوديَّة مع بعضيهما. أحادث ميا وكاميليا على الفيس تايم، لكن لفترات قصيرة من الوقت فقط خلال رحلتهما في كابو. أتجول في المستشفى، أضع علامات على علاجي في تطبيقي بفتور وأمر عبر الاقتراحات لنظامي العلاجي، تمامًا كما يفترض بي ذلك، لكنه لا يشعرني بالرضا.

لم أشعر بهذه الوحدة من قبل.

أتجاهل بو، وويل يتجاهلني، وأنا أستمر في التفكير بطريقة لإصلاح ذلك، لكن لا أجد شيئًا.

في مساء الثلاثاء، أجلس على سريري، أبحث عن بكتيريا البيركهولدرية البصلية للمرة المليون، ثم يُطرق باب غرفتي. أقف وأنا عابسة، مَن قد يكون؟ أمشي وأفتح الباب ببطء لأرى برطمانًا موضوعًا أمام إطار الباب مكتوب عليه بخط أنيق: كمأ *أسود شتوي*، أنحني، وألتقطه لأرى ملحوظة ملصقة زهرية في أعلاه «أنت محقة، للمرة الأولى».

بو، يملؤني الارتياح.

أخرج ابتسامتي الحقيقية الأولى منذ أربعة أيام، أحدِّق إلى الممر، فأرى باب غرفته مغلقًا، ألتقط هاتفي، وأتصل به.

يجيب ما إن يرن.

أسأله: «أتريد الدونات؟».

نتقابل في الغرفة متعددة الأغراض، أجلب له علبة من حلوى الشوكولا المفضلة لديه من آلة البيع، وأرميها إليه على مقعده.

يلتقطها، وهو ينظر إليَّ بينما أشتري علبة لي: «شكرًا».

أقول وأنا أجلس على الجهة المقابلة، وعيناه تحدِّقان إليَّ بشدة: «على الرحب والسعة».

يرد عليَّ: «حقيرة».

- مغفل.

نبتسم إلى بعضنا بعضًا، وقد انتهى شجارنا رسميًا.

يفتح العلبة، يسحب قطعة ويقضم منها. يعترف وهو ينظر في عينيَّ: «أنا خائف، هل تعرفين على ماذا يحصل من يقع في حبي؟ يتعين عليه مساعدتي على دفع تكاليف جميع علاجي، ثم سيشاهدني وأنا أموت، كيف يكون هذا عادلًا لكلينا؟».

أستمع إليه، وأتفهم كيف يشعر، أعتقد أن معظم الناس المصابين بأمراض مستعصية يعانون ذلك. يشعرون أنهم عبء، لقد شعرت بهذا مع والديَّ مرات أكثر مما قد أحصيه، خصوصًا في الأشهر القليلة الفائتة.

- الخصومات، الأدوية، الإقامة في المستشفيات، العمليات الجراحية، عندما أبلغ الثامنة عشرة، لن تعود هناك تغطية شاملة.

يأخذ نفسًا عميقًا، وصوته يرتعش: «هل ينبغي أن تكون تلك مشكلة مايكل؟ أو مشكلة عائلتي؟ إنه مرضي ستيلا، إنها مشكلتي أنا».

تنهمر دمعة على خدِّه، ويمسحها سريعًا.

أنحني إلى الأمام، أرغب في مواساته، لكن كالعادة، أنا على بُعد ست خطوات.

يضحك قبل أن تصبح ملامحه جدية مجددًا: «آسف، بشأنك أنت وويل».

- وأنا أيضًا.

أبتلع ريقي، وعيناي تركزان على لوحة الإعلانات مباشرةً خلف رأسه، مملوءة بالأوراق والملاحظات و... ملاحظات عن النظافة، وهي مؤلفة من رسمات كاريكاتورية دقيقة، يشرح كلٌّ منها للناس الطريقة الصحيحة لغسل الأيدي أو الطريقة الصحيحة للسعال في الأماكن العامة.

أقفز إذ بدأت فكرة ما تلوح في رأسي.

لقد ازدادت قائمة مهامي واحدة للتوِّ.

الفصل السادس عشر

ويل

أُدلِّي ساقيَّ من على حافة السطح وأستمع إلى بريدها الصوتي مرارًا وتكرارًا، فقط لسماع صوتها على الجهة الأخرى، غرفتها مظلمة عدا ضوء مكتبها، وأنا أراها تكتب بنهم على حاسوبها المحمول، وشعرها البني الطويل مشدود في كعكة فوضوية.

ما الذي قد تفعله في هذا الوقت المتأخر من الليل؟

هل لا تزال تفكر بي؟

أنظر إلى الأعلى، أشاهد موجة لطيفة من الثلج قد بدأت تتساقط، تحطُّ على خدَّيَّ وجفنيَّ وجبهتي.

لقد جلست على سقف عشرات المستشفيات خلال السنوات الماضية، لقد ألقيت نظرة على العالم في الأسفل واختبرت الشعور ذاته في كلِّ مرة، وأنا أتوق إلى المشي في الشوارع أو السباحة في المحيط أو عيش الحياة بطريقة لم تسنح لي الفرصة قطُّ للعيش بها.

أرغب في شيء لا يمكنني الحصول عليه.

لكن ما أرغب به الآن ليس في الخارج، إنه هنا، قريب بما يكفي للمسه، لكن لا يمكنني، لم أكن أعرف أنه من الممكن أن ترغب بقوة في شيء ما لدرجة أن تشعر به في ذراعيك وساقيك وفي كلِّ نَفَسٍ تأخذه.

يرن هاتفي، وأنظر لأرى إشعارًا من تطبيقها، رمزًا تعبيريًّا لعلبة دواء صغيرة تتراقص.

أدوية ما قبل النوم.

لا يمكنني حتى شرح لماذا ما زلت مستمرًا في هذا، لكنني ألقي عليها نظرة طويلة أخرى وأقف، أمشي إلى باب السلالم وألتقط محفظتي قبل أن ينغلق، أنزل السلالم ببطء وأعود للطابق الثالث، وأتأكد أن الممر خالٍ قبل أن أتسلل إلى غرفتي.

أخطو إلى عربة الأدوية، أتناول حبوب ما قبل النوم مع بودينغ الشوكولا، تمامًا كما علمتني، أحدِّق إلى الرسمة التي رسمتها لنفسي كحاصد أرواح مؤخرًا، وقد كُتب على نصل منجله «الحب».

ترسل إليَّ هوب: «*هل تُبلي حسنًا؟*».

أتنهد، أنزع قلنسوتي وأرسل لها، وأنا أتلاعب بعض الشيء بالحقيقة: «نعم، *أنا* بخير».

أضبط أنبوب تغذية معدتي وأضجع على السرير، ألتقط حاسوبي المحمول من على طاولة سريري وأفتح اليوتيوب، أضغط بكلِّ وقار على فيديو مقترح لستيلا كنت قد رأيته، لأنني فحسب قد أصبحت الآن ذاك الشخص المثير للشفقة.

لم يكن هوب وجاسون ليتعرَّفا عليَّ حتى.

أكتم الصوت، وأشاهد الطريقة التي تدسُّ بها شعرها خلف أذنها عندما تركز، والطريقة التي ترجع بها رأسها للخلف عندما تضحك، والطريقة التي تُقاطع بها ذراعيها أمام صدرها عندما تكون متوترة أو منزعجة، أشاهد الطريقة التي تنظر بها إلى آبي، وإلى والديها، وحتى الطريقة التي تلقي بها النكات بين أصدقائها... لكن، الأهم من ذلك كله، أشاهد الطريقة التي

يحبها الناس بها، أراها من خلال ما هو أبعد من عائلتها. أراها في عينَي بارب، وعينَي بو، وعينَي جولي، أراها في كلِّ طبيب وكلِّ ممرضة وكلِّ شخص يعترض طريقها.

اللعنة! حتى التعليقات ليست كتلك التعليقات السيئة التي تتعرض لها معظم فيديوهات يوتيوب.

لم أستطع الاستمرار في المشاهدة طويلًا، أغلق حاسوبي وأطفئ النور، وأستلقي هناك في الظلام، وأنا أشعر بكلِّ خفقة قلب في صدري، بصوت عالٍ وثبات.

في اليوم التالي كنت أحدِّق خارج النافذة، أشاهد شمس الشتاء في الظهيرة تقترب من الأفق ببطء عندما ينبض الاهتزاز المنتظم لسترتي الهزازة في صدري، أتفقد هاتفي، وأتفاجأ برؤية رسالة من أمي، تطمئن من خلالي، لا من خلال أطبائي، للمرة الأولى منذ زيارتها من أسبوعين تقريبًا: سمعت أنك تتلقى علاجك، سعيدة لرؤيتك قد استفقت من غفلتك.

أدور عينيَّ، وأرمي هاتفي على سريري، ثم أسعل كومة من البلغم في سلة السرير التي أحملها، ألمح الباب عندما يمرر ظرف من تحته، وقد كُتب اسمي عليه.

أعرف أنه لا ينبغي لي أن أتحمس، لكنني أفصل سترتي الهزازة على أيِّ حال، وأقفز لألتقطه من على الأرض، أمزق الظرف لأفتحه، وأسحب منه قطعة ورق مطوية بعناية، أفتحها بكلِّ الطرق لأكشف عن رسم كاريكاتوري رُسم بكامله بأقلام التلوين.

صبيٌّ طويل بشعر مجعَّد يواجه فتاة قصيرة، وقد كُتب فوق كلٍّ منهما بقلم تلوين أسود ويل وستيلا. ألاحظ القلوب الوردية الصغيرة التي تحوم فوق رأسيهما، وأضحك عند رؤيتي السهم العملاق بينهما يمر من خلال الكلمات «خمس خطوات في كلِّ الأوقات» مكتوبة بحروف حمراء زاهية كبيرة.

من المؤكد أنها لم ترث المهارات الفنية ذاتها مثل آبي، لكنها لطيفة، ما الذي تحاول قوله بالضبط؟ وخمس خطوات؟ إنها ست وهي تعلم ذلك.

يرن حاسوبي من خلفي، فأهرع إليه، وأنا أمرر أصابعي على لوحة التتبع لأرى رسالة جديدة، من ستيلا.

ما فيها إلا رابط لفيديو على اليوتيوب، عندما أنقر عليه، يأخذني إلى فيديو ستيلا الأحدث، والذي نُشر منذ ثلاث دقائق تمامًا.

«بكتيريا البيركهولدرية البصلية... نظري».

أبتسم بريبة إلى العنوان، أشاهد ستيلا وهي تلوح للكاميرا، وشعرها مربوط في الكعكة الفوضوية ذاتها التي رأيتها أمس من على السطح، وكومة من الأشياء قد وضعتها بحذر أمامها على سريرها.

«مرحبا، جميعًا، إذن، هناك شيء مختلف أريد التحدث عنه اليوم، بكتيريا البيركهولدرية البصلية، المخاطر، التقييدات، قواعد الانخراط مع الآخرين، وكيف تقولها عشر مرات بسرعة بنجاح. أعني، بحقك، هذا اسم فعلًا».

أشاهد مرتبكًا: «حسنًا، إذن، بكتيريا البيركهولدرية البصلية هي بكتيريا شديدة التحمل، إنها تتكيف للغاية لدرجة أنها تتغذى فعليًا على البنسلين بدلًا من أن تُهاجم من قبله، لذلك فإن خط دفاعنا الأول هو...» تسكت قليلًا، وتمد يدها لتلتقط عبوة سائل بحجم الجيب وترفعها إلى الكاميرا: «كال ستات، هذا ليس مطهر يديك العادي، إنه معقم يدين من المستشفى، طبِّقه مرارًا وبسخاء».

تلتقط زوجين من القفازات المطاطية الزرقاء، وتحرك أصابعها لتدخله بسهولة في يديها: «التالي هو القفازات المطاطية التقليدية الجيدة، مجربة وفعالة، وتستخدم للحماية في -نظرت إلى الأسفل، وبلعت ريقها وتفحصت كومة الأشياء على سريرها- جميع أنواع النشاطات».

أهز رأسي، وقد تسللت ابتسامة إلى وجهي: «جميع أنواع النشاطات؟ ما الذي تفعله؟».

بعد ذلك، أشاهدها وهي تسحب كومة من أقنعة الوجه الجراحية، وتعلقها حول رقبتها: «بكتيريا البيركهولدرية البصلية تنمو أفضل في بيئة اللعاب

والبلغم، يمكن للسعلة أن تسافر ست خطوات، ويمكن أن تقطع العطسة مئتي ميل في الساعة، لذا لا تطلقها في مجتمع مزدحم».

مئتا ميل في الساعة، رائع! من الجيد أنني لست مصابًا بالحساسية، كان سيُقضى علينا جميعًا.

تأخذ نفسًا عميقًا: «لا لعاب يعني لا تقبيل»، تنظر مباشرة إليَّ عبر الكاميرا: «أبدًا».

أتنهد وأومئ بجدية، إنها مشكلة كبيرة، التفكير في تقبيل ستيلا هو... أهز رأسي.

تتضاعف سرعة قلبي بمجرد التفكير في ذلك.

تقول قبل أن تنحني لتلتقط عصا بلياردو من جانب سريرها: «خط دفاعنا الأفضل هو المسافة، ست خطوات هو القاعدة الذهبية، هذه خمس خطوات، خمس. خطوات».

أنظر إلى الرسم الكاريكاتوري لنا، تلمع الحروف الحمراء أمامي: «خمس خطوات في كلِّ الأوقات».

من أين أتت بحق الجحيم بعصا بلياردو؟

تمسك بها، وتحدِّق إليها بقوة ملحوظة: «لقد فكرت كثيرًا بشأن الخطوة السادسة، ولأكون صادقة، جنَّ جنوني».

تنظر إلى الكاميرا: «كجميع المصابين بالتليف الكيسي، يؤخذ هذا البُعد على مسافة منا، إننا نعيش كلَّ يوم رهن العلاج والأدوية».

أمشي ذهابًا وإيابًا، مستمعًا إلى كلماتها.

«معظمنا لا يمكنه إنجاب الأطفال، والكثير منا لا يعيش طويلًا بما يكفي حتى لمحاولة ذلك، فقط المصابون الآخرون بالتليف الكيسي يعرفون كيف يبدو عليه ذلك، لكن لا ينبغي لنا أن نقع في حب بعضنا بعضًا». تقف عاقدة العزم: «إذن، بعد كلِّ ما قد سرقه التليف الكيسي مني -منا- سأسرق منه شيئًا في المقابل».

ترفع عصا البلياردو في تحدٍّ، محاربةً من أجلنا جميعًا: «سأسرق 304.8 ميلليمتر، اثني عشر إنشًا. قدمًا واحدة لعينة من الحد، من المسافة، من الطول».

أحدق إلى الفيديو وكُلِّي إعجاب.

- لن يسرق التليف الكيسي مني بعد الآن، من الآن فصاعدًا، سأكون أنا السارق.

أقسم إنني سمعت هتافًا في مكان ما، لحشدٍ يؤيدها، تصمت، وتنظر مباشرة في الكاميرا، مباشرة إليَّ.

أقف هناك مذهولًا، وأقفز عندما يُطرق باب غرفتي ثلاث طرقات قوية.

أفتح الباب فتكون هي، حقيقةً.

ستيلا.

ترفع عصا البلياردو، وطرفها يلامس صدري، وترفع حاجبيها الكثيفين في تحدٍّ: «على بُعد خمس خطوات، اتفقنا؟».

أتنهد وأنا أهز رأسي، فكلامها في الفيديو قد جعلني أرغب في تقليص المسافة بيننا وتقبيلها: «سيكون هذا صعبًا عليَّ، لن أكذب».

تنظر إليَّ، بعينين ثابتتين: «فقط أخبرني ويل، هل أنت موافق؟».

لا أتردد حتى: «موافق جدًّا».

- إذن كُن في البهو.. عند التاسعة.

وبهذا، تخفض عصا البلياردو، وتلتف حولها وتمشي عائدة لغرفتها، أراها تذهب، وأنا أشعر بالإثارة تتخطى الشك القابع بثقل في أعماقي.

أضحك عندما ترفع عصا البلياردو في نصر كما في نهاية فيلم نادي الإفطار، وتبتسم إليَّ قبل دخولها الغرفة 302.

آخذ نفسًا عميقًا وأنا أومئ برأسي.

لن يسرق التليف الكيسي مني بعد الآن.

الفصل السابع عشر

ستيلا

أشكو إلى بو، الذي يتكئ عند المدخل يساعدني: «لماذا لم أحزم معي أيَّ شيء لطيف؟». أرمي البيجامات والبناطيل الرياضية والقمصان الفضفاضة من خزانتي، بينما أنهمك في البحث عن شيء ما أرتديه الليلة.

يتذمر: «حسنًا، لأنك عادة ما تحزمين أمتعتك من أجل موعد غرامي في المستشفى؟».

أسحب زوجين من الملابس الشفافة وطقمًا داخليًّا حريريًّا، وأتفحصها، لا يمكنني، هل يمكنني ذلك؟ أعني، هذه أم زوجين من البناطيل الفضفاضة التي حصلت عليها كوِرثٍ عن آبي.

- لديَّ ساقان جميلتان، أليس كذلك؟

يقول: «لا تفكري حتى في هذا.. عاهرة!»، ويعطيني نظرة قبل أن ينفجر كلانا ضاحكًا.

أفكر في أصدقائي في الليلة الأخيرة لهم في كابو، وللمرة الأولى منذ أتيت إلى هنا لا أتمنى لو كنت هناك، أتمنى لو كانوا هنا، يساعدونني لأتجهز، إذا حدث أيُّ شيء، فأنا مسرورة لأنني لست على بعد أميالٍ الآن.

أنظر إلى الساعة على طاولتي الجانبية، إنها الخامسة، لديَّ أربع ساعات لأجد شيئًا.

أمشي عبر أبواب البهو، فألاحظ مزهرية مملوءة بورود بيضاء، ألتقط واحدة، وأثني ساقها حتى تتكسر، وأضعها خلف أذني، ألقي نظرة على انعكاسي في زجاج الباب، أبتسم، وألقي بتوتر نظرة فاحصة سريعة على نفسي، شعري مُسدَل، والأمامي منه مربوط إلى الخلف بشريطة من الأزهار البارزة من باقة ويل، وأنا أرتدي الطقم الداخلي الحريري مع قميص بلا أكمام، على الرغم من سخرية بو. أبدو جميلة جدًّا باعتبار أنني استجمعت هذا من أسوأ خزانة لموعد غرامي في التاريخ.

من الجيد معرفة أن ويل حتمًا يحبني لشخصي أنا، أعني، لم يَرَنِي إلا في البيجامات أو في رداء المستشفى، لذا من المؤكد أنه ليس هنا من أجل مظهري الجيد وخزانة «مجموعة مستشفيات خريف 2018» المثالية.

أعدل القفازات المطاطية الزرقاء على يديَّ، وأتحقق من أن الكال ستات لا يزال معلقًا على حزام الأكسجين المحمول الخاص بي.

أجلس على مقعد، وأنظر إلى باب جانبي يؤدي إلى غرفة ألعاب الأطفال، فتصدمني موجة من الحنين. اعتدت أن أتسلل إلى هنا لألعب مع الأطفال الناشئين غير المصابين بالتليف الكيسي، حسنًا، ومع بو. لم يتغير البهو كثيرًا عبر السنين، الأشجار الطويلة ذاتها، والأزهار الملونة الزاهية ذاتها، وحوض الأسماك الاستوائية بجوار الأبواب تمامًا، حيث وقعت أنا وبو مع بارب في ورطة لإلقائنا فُتات الدونات للأسماك.

ربما لم يتغير البهو كثيرًا منذ أن أتيت إلى مستشفى سانت جريس، لكنني بالطبع فعلت، لقد كانت لديَّ الكثير من التجارب الأولى في هذا المستشفى، من الصعب إحصاؤها جميعًا.

عمليتي الجراحية الأولى، وصديقي المفضل الأول، ومخفوق الحليب بالشوكولا الأول.

والآن، موعدي الغرامي الحقيقي الأول.

أسمع الباب يفتح ببطء، فأحدِّق لأرى ويل بالقرب من الزاوية.

أهمس: «إلى هنا»، وأقف لأرفع له عصا البلياردو.

ترتسم ابتسامة كبيرة على وجهه، ويتناول الطرف الآخر من العصا في يده المغطاة بالقفاز، وعبوة بحجم سفريٍّ من الكال ستات قد دسَّها في جيبه الأمامي.

يقول: «يا للروعة!» وعيناه محتفيتان بي بينما ينظر إليَّ، وقد جعل قلبي يتقافز في صدري، يرتدي قميصًا منقوشًا يحتضن جسده النحيل، ويجعل عيناه تبدوان أكثر إشراقًا باللون الأزرق، شعره أكثر أناقة. ممشط، لكن يحافظ على تلك الفوضى المثيرة بشكل لا يصدق.

يقول، في حين تبقى عيناه على ساقيَّ المكشوفتين، والحفرة في قميصي الحريري: «إنها وردة جميلة».

أتورَّد خجلًا، وأنا أشير إلى الوردة المدسوسة خلف أذني: «أوه، هذه الوردة؟ هذه؟ في الأعلى؟».

يقول وهو يزيح نظره، ويعطيني نظرة لم يرمقني بها أيُّ صبي آخر من قبل وقد أومأ برأسه: «هذه هي».

أشد عصا البلياردو، ونمشي عبر البهو في اتجاه الممر الرئيسي. ينظر جانبًا، فيرى المزهرية المملوءة بالورود البيضاء على الطاولة، يتجعد حول عينيه بينما يبتسم: «سرقت وردًا ستيلا؟ في البداية خطوة كاملة والآن هذه؟».

أضحك، وأمد يدي لألمس الوردة المدسوسة خلف أذني: «أمسكت بي، لقد سرقتها».

يشدُّ الطرف الآخر من العصا، وهو يهز رأسه: «آه. لقد منحتِها موطنًا أفضل».

الفصل الثامن عشر

ويل

لا أستطيع أن أزيح عينيَّ عنها.

الشريطة الحمراء على شعرها، الوردة المدسوسة خلف أذنها، الطريقة التي تبقي بها عينيها عليَّ.

لا أشعر أن أيًّا من هذا حقيقي، لم أشعر قطُّ على هذا النحو حيال أي أحد، غالبًا لأن جميع علاقاتي السابقة كانت تتمحور حول العيش بسرعة والموت في الشباب وانتقالي على الدوام إلى مستشفى جديد.

لم أبق في أيِّ مكان أو مع أيِّ أحد طويلًا بما يكفي لأقع حقًّا في حبه.

ليس هذا حتى لو أتيحت لي الفرصة، فلم يكن أيٌّ منهم ستيلا.

نتوقف أمام حوض أسماك استوائية كبير، ويتطلب الأمر كلَّ ما فيَّ لأبعد عينيَّ عنها إلى الأسماك ذات الألوان الزاهية خلف الزجاج، تتبع عيناي سمكتين برتقالية وبيضاء، تدور وتدور حول الشعاب المرجانية في أسفل الحوض.

تقول وهي تتابع نظري: «عندما كنت صغيرة جدًّا، اعتدت على التحديق فحسب إلى هذه الأسماك، والتساؤل عما سأشعر به إذا كنت قادرة على حبس أنفاسي طويلًا بما يكفي لأسبح كما تفعل».

يدهشني ذلك، عرفت أنها كانت تأتي إلى سانت جريس لفترة من الزمن، لكنني لم أكن أعرف أنها كانت هنا منذ أن كانت طفلة صغيرة.

- كم كان عمرك؟

تقول وهي تراقب السمكات تسبح إلى الأعلى قبل أن تغوص إلى الأسفل من جديد: «الطبيبة حاميد وبارب وجولي قد اعتنوا بي منذ السادسة من عمري».

السادسة، رائع! لا يمكنني حتى تخيل بقائي في مكان واحد كلَّ هذه المدة.

نمشي عبر الأبواب إلى الممر الرئيسي، وبيت الدرج الكبير يلوح أمامنا، تنظر إليَّ في الخلف، وتجذب طرف عصا البلياردو وتومئ للدرج: «دعنا نصعد السلالم».

السلالم؟ أنظر إليها كما لو أنها معتوهة بالفعل، رئتاي تحرقانني من مجرد التفكير بهذا عندما أتذكر إرهاقي من رحلتي إلى السطح، لم يكن مثيرًا، إذا كانت تريد أن يستمر هذا الموعد لأكثر من ساعة، فليس هناك مفر سنوشك على صعود تلك السلالم.

ينفرج وجهها بابتسامة: «أمزح فحسب».

كنا نجوب المستشفى شبه الخالي، والساعات تمر بسرعة ونحن نمشي، نتحدث عن عائلاتنا وأصدقائنا وعن كلِّ شيء بينهما، والعصا تتأرجح إلى الأمام والخلف بيننا. توجهنا إلى الجسر المفتوح بين المبنى 1 والمبنى 2 ومشينا ببطء عبره ونحن نرفع أعناقنا لننظر عبر السقف الزجاجي إلى سماء الليل الرمادية العاصفة، والثلج يتساقط باستمرار على سطح الجسر ومن حولِنا.

تسأل أخيرًا: «ماذا عن والدك؟»، فأهز كتفيَّ.

- لقد لاذ بالفرار عندما كنت صغيرًا، أن يكون لديه طفل مريض لم تكن ضمن خطته.

تتأمل وجهي، محاولة أن ترى ردَّ فعلي لهذا الكلام: «لقد حدث ذلك منذ وقت طويل، أحيانًا يبدو وكأنني أروي فحسب قصة شخص آخر، حياة شخص آخر قد حفظتها».

ليس لديك وقت من أجلي؛ ليس لديَّ وقت من أجلك، بهذه البساطة.

تمضي قدمًا عندما ترى أنني أعني ما أقول: «ووالدتك؟».

أحاول أن أبقي لها الباب مفتوحًا، والذي يبدو أنه صعب للغاية عندما تكون ممسكًا بعصا بلياردو وعليك أن تكون على بُعد خمس خطوات في كلِّ الأوقات، لكنني شاب شهم، سحقًا.

أتنهَّد، وأعطيها المختصر، ردًّا عامًّا: «جميلة، ذكية، منساقة، وتركز عليَّ وعليَّ أنا فقط».

تعطيني نظرة كما لو أن للكلام تتمة: «بعد أن رحل، بدا أنها قررت أن تتكبد عناء اثنين، أحيانًا أشعر أنها لا تراني، لا تعرفني، إنها ترى فحسب المصاب بالتليف الكيسي، أو الآن المصاب ببكتيريا البيركهولدرية البصلية».

تسأل: «هل تحدثت معها بشأن ذلك؟».

أهز رأسي متجاهلًا الموضوع: «إنها ليست هنا بما يكفي لتنصت، دائمًا ما تُملي الأمور، ثم تخرج من الباب، لكن بعد يومين اثنين، عندما أبلغ الثامنة عشرة، سأمسك بزمام الأمور».

تتوقف فجأة، فأتراجع إلى الخلف عندما يهتز طرف عصا البلياردو في اتجاهها.

- تمهل، عيد ميلادك بعد يومين.

أبتسم إليها، لكنها لا تبادلني الابتسامة: «نعم! لحسن الحظ، الثامن عشر».

تقول وهي تضرب بقدمها على الأرض منزعجة: «ويل، ليست لديَّ هدية من أجلك».

هل يمكنها أن تكون ألطف من ذلك؟

أنقر على قدمها بعصا البلياردو، لكن هذه المرة لا أمازحها، هناك شيء أريده حقًّا: «إذن، ما رأيك في قطع وعد؟ بأن تبقي إلى جانبي حتى عيد ميلادي المقبل؟».

تبدو متفاجئة، وتومئ برأسها: «أعدك».

تأخذني إلى الصالة الرياضية، فتومض أضواء مستشعرات الحركة عندما تسحب الطرف الآخر لعصا البلياردو متجاوزة معدات التمرين إلى باب في الزاوية البعيدة لم أكلف نفسي عناء اكتشافه من قبل.

تنظر في كلا الاتجاهين، وتفتح غطاء للوحة مفاتيح وتدخل كودًا.

أسأل عندما يفتح الباب بنقرة واحدة، وتنير لوحة المفاتيح بضوء أخضر: «إذن لديك صلاحيات واسعة في المكان، أليس كذلك؟».

تبتسم، وترمقني بنظرة وهي تغلق الغطاء: «إنها إحدى مزايا أن تكون مُدلل المعلم».

أضحك، مُحاكة جيدًا.

يصدمني دفء حمام السباحة عندما نفتح الباب، تدوي ضحكتي في أنحاء المكان المفتوح، الغرفة مظلمة، عدا الأضواء في المسبح، والتي تسطع عندما يتموج الماء حولها، نخلع أحذيتنا ونجلس على الحافة، الماء بارد في البداية على الرغم من حرارة الغرفة، لكنه يسخن ببطء عندما نحرك أقدامنا إلى الأمام والخلف.

يخيم علينا صمت مريح، فأنظر إليها، وعصا البلياردو تفصل بيننا.

- إذن، ماذا برأيك يحدث عندما نموت؟

تهز رأسها مبتسمة: «لا يعد هذا حديثًا مثيرًا بالنسبة إلى الموعد الأول».

أضحك مستهجنًا: «بحقك ستيلا. نحن مصابون بمرض مستعصٍ، ينبغي أن يكون لديك فكرة عن ذلك».

- حسنًا، إنه على قائمة مهامي.

بالطبع هو كذلك.

تنظر إلى الماء في الأسفل، وهي تحرك أقدامها في دوائر: «هناك نظرية واحدة تعجبني، تقول إننا لكي نفهم الموت، علينا أن ننظر إلى الولادة».

تبدأ تلهو بشريطتها التي في شعرها وهي تتكلم.

- لذا، بينما نحن في الرحم، نعيش ذلك الوجود، صحيح؟ لا تكون لدينا أدنى فكرة عن أن وجودنا التالي يبعد فحسب شبرًا عنا.

تهز كتفيها وتنظر إليَّ: «ربما يكون الموت كذلك، ربما يكون مجرد حياة لاحقة، يبعد فحسب شبرًا عنا، الحياة اللاحقة تبعد فحسب شبرًا عنا».. أعبس وأفكر في الأمر.

- إذن، إذا كانت البداية هي الموت والموت هو النهاية أيضًا، فما البداية الحقيقية؟

ترفع حاجبيها الكثيفين في وجهي، غير مستمتعة بمعضلتي: «حسنًا إذن، دكتور سوس، لماذا لا تخبرني ما رأيك».

أهز كتفيَّ وأميل إلى الوراء: «إنه النوم الكبير يا عزيزتي، السلام، غمضة عين، نهاية وزوال».

تهز رأسها: «مستحيل، من المستحيل أن آبي قد «أغمضت» عينيها فحسب، أرفض تصديق ذلك».

أصمت أشاهدها، أريد أن أسألها السؤال الملح الذي أحتفظ به منذ أن اكتشفت موت آبي، أسأل: «ماذا حدث.. لآبي؟».

تتوقف قدماها عن الدوران في المسبح، وتبقى المياه تدور حول ساقيها، لكنها تخبرني: «كانت تقفز من المنحدر في أريزونا فهبطت على نحو خاطئ عندما اصطدمت بالماء، كُسرت رقبتها وغرقت، لقد قالوا إنها لم تشعر بأي ألم». تنظر في عينيَّ، وتعبيرها مضطرب: «كيف لهم أن يعرفوا ويل؟ كيف لهم أن يعرفوا أنها لم تتألم؟ لطالما كانت إلى جانبي عندما كنت أتألم، ولم أكن هناك لأفعل الشيء نفسه».

هززت رأسي، عليَّ أن أحارب جميع رغباتي، والتي تخبرني أن آخذ يدي بيدها، لا أعرف ما أقول. ليست هناك طريقة لمعرفة ذلك، تعيد نظرها إلى الماء وعيناها تلمعان، وعقلها يسافر، إلى أعلى المنحدر في أريزونا.

- كان من المفترض أن أكون هناك، لكنني كنت مريضة، كما أفعل على الدوام.

تزفر أنفاسها ببطء، بجهد، وعيناها لا ترفّان، تركز على نقطة في أسفل المسبح.. «لا أزال أتخيل ذلك، مرارًا وتكرارًا، أريد أن أعرف بماذا شعرت أو فكرت، ولأنني لا أستطيع معرفة ذلك، لا تتوقف عن الموت أبدًا بالنسبة إليَّ، إنني أراها مرات ومرات ومرات».

أهز رأسي، وأضغط على قدمها بطرف العصا، ترمش، ثم تنظر إليَّ وعيناها صافيتان: «ستيلا، إذا كنتِ هناك، فلن تعرفي ذلك أيضًا».

تقول، وهو شيء لا أستطيع نكرانه: «لكنها ماتت وحيدة ويل».

- لكننا جميعًا سنموت وحيدين، ألسنا كذلك؟ لن يأتي الناس الذين نحبهم معنا.

أفكر في هوب وجاسون، ثم في أمي، أتساءل هل ستكون أكثر انزعاجًا لخسارتي، أم للخسارة أمام المرض.

تحرك ستيلا قدميها في الماء: «هل تعتقد أن الغرق يُؤلم؟ هل هو مخيف؟».

أهز كتفي: «هذا ما نحن في طريقنا إليه، أليس كذلك؟ نغرق، لكن من دون ماء، تعمل السوائل في أجسادنا عملًا قذرًا».

أرى ارتعاشها من طرف عينَيَّ، فأنظر إليها: «اعتقدت أنك لا تخافين الموت؟».

تتنهد بصوت عال، وهي تنظر إليَّ بسخط: «لست خائفة من كوني سأموت، لكن من جزء الاحتضار الحقيقي، هل تعرف كيف يبدو عليه ذلك؟».
عندما بقيت صامتًا، تابعت كلامها: «لستَ خائفًا من أي من ذلك؟».

أكتم رغبتي المعتادة في السخرية، أريد أن أكون حقيقيًّا معها: «أفكر في تلك اللحظة الأخيرة، أستجدي الهواء، أسحب وأسحب ثم لا أحصل على شيء، أفكر في عضلات صدري تتمزق وتكتوي، تالفة تمامًا. لا هواء، لا يوجد شيء، الظلام فقط». أنظر إلى الماء يدور حول قدمي، والصورة التفصيلية في رأسي مألوفة وتغوص في أعماقي، أرتعش، وأهز بكتفي وأبتسم إليها: «لكن، هيه، هذا فقط في أيام الاثنين، بخلاف ذلك، لا أتطرق إلى ذلك».

تمد يدها، وأعرف أنها تريد أن تمسك بيدي، أعرف ذلك لأنني أريد أن أمسك بيدها كذلك، تتباطأ دقات قلبي، وأراها تتوقف منتصف الطريق، تلف أصابعها لراحتها وتخفض يدها.

تقابل عيناها عيني، في تفاهم تام، إنها تعرف ذاك الخوف، لكنها تعطيني بعد ذلك تلك الابتسامة الصغيرة، وأدرك أننا هنا على الرغم من كلِّ ذلك، والسبب يعود لها.

أكافح لآخذ نفسًا عميقًا، وأنا أشاهد وهج أضواء المسبح تتراقص على ترقوتها ورقبتها وكتفيها.

أقول: «يا إلهي، كم أنت جميلة، وشجاعة! إنها لجريمة ألا أستطيع لمسك!».

أرفع عصا البلياردو، وأتمنى أكثرَ من أيِّ شيءٍ آخرَ أن تكون أطراف أصابعي موجهة على بشرتها. برفق، أتتبع بنهاية العصا ذراعها، وعلى الزاوية الحادة لكتفها، ببطء أشق طريقي إلى رقبتها، ترتجف إثر «لمستي»، عيناها معلقتان بعينَيَّ، وتظهر على خديها بعض الحُمرة بينما أمرر العصا.

أقول: «شعرك»، وأمرر حيث ينزل على كتفيها.

أقول: «رقبتك»، وقد انعكس ضوء المسبح على رقبتها.

أقول: «شفاهك»، وأشعر بسحب الجاذبية الخطير بيننا، يتحداني لأقبلها.

تنظر بعيدًا، وقد خجلت فجأة: «لقد كذبت، في اليوم الذي تقابلنا فيه، لم أمارس الجنس من قبل». تأخذ نفسًا قويًّا، وهي تلمس جانبها بينما تتكلم: «لم أرغب في أن يراني أحد، الندوب، الأنبوب، ليس هناك أي شيء مثير بشأن...».

أقاطعها: «كلُّ ما يتعلق بك مثير». تنظر إليَّ فأريد أن ترى ذلك على وجهي، أقصد، أن أتأملها: «أنت مثالية».

أشاهدها وهي تدفع عصا البلياردو بعيدًا، وتقف وهي ترتعش، تمد يدها إلى قميصها الحريري، وعيناها مثبتتان على عينيَّ، بينما تنزعه ببطء لتكشف عن حمالة صدر سوداء من الدانتيل، تسقط القميص على حافة المسبح، ويسقط فكي معه.

ثم تنزل سروالها، وتخطو بحذر خارجه وتستقيم، تدعوني أن أنظر.

تنقطع أنفاسي، أحاول أن أستوعب ما استطعت، وأنا أشق طريقي صعودًا ونزولًا إلى جسدها، أحدق إلى ساقيها وصدرها وفخذيها، والأضواء تتراقص على ندوب المعركة البارزة على صدرها وبطنها.

أتمكن من الخروج عن صمتي: «يا إلهي». لم أعتقد قطُّ أنني قد أحسد عصا بلياردو، لكنني أريد أن أشعر ببشرتها على بشرتي.

تبتسم إليَّ بحياء قبل أن تغطس داخل المسبح، وتنزل كليًّا تحت الماء، كانت تحدق إليَّ، وشعرها الطويل ينتشر حولها كما لو أنها حورية بحر، أحكم قبضتي على عصا البلياردو عندما تلهث لتتنفس.

تبتسم: «كم كان هذا؟ خمس ثوان؟ عشرة؟».

أغلق فمي وأنا أتنحنح، ربما كانت كسنةٍ حسب علمي: «لم أعدّ.. كنت أحدق».

تقول وهي تتحداني: «حسنًا، أريتك ما لديَّ».

وأنا عادةً ما أقبل التحدي.

أقف، وأحلُّ أزرار قميصي، الآن هي الشخص الذي ينظر إليَّ، ولا تتفوَّه بأيِّ شيء، لكن شفتيها مفترقتان، غير عابسة، وغير مشفقة.

أمشي إلى درجات المسبح، وأخلع بنطالي، وأقف هناك للحظة في سروالي فقط، الماء وستيلا يناديانِني، أخطو ببطء داخل المسبح، وأعيننا معلقة ببعضها بينما نتنفس بصعوبة.

لأول مرة، لم يكن للتليف الكيسيّ أيٌّ علاقة.

أغوص تحت المياه فتتبعني، وفقاعات صغيرة تطفو إلى السطح بينما ننظر إلى بعضنا عبر العالم الباهت تحت الماء، وشعرنا يطفو إلى الأعلى ومن حولنا، وينسحب إلى اسطح، ترمي الأضواء بظلال أجسادنا النحيلة.

نبتسم إلى بعضنا بعضًا، وعلى الرغم من أن هناك مليونَ سبب يمنعني من ذلك، لكنني أنظر إليها الآن، ولا أشعر إلا أنني وقعت في حبها.

الفصل التاسع عشر

ستيلا

نغادر المسبح، يجف شعرنا ببطء بينما يتحول الليل إلى الصباح الباكر، نمر عبر الأشياء التي رأيتها ملايين المرات خلال سنواتي في سانت جريس، غفوة حراس الأمن، وغضب الجراحين وهم يهزون آلة البيع المكسورة في الممر، بلاط الأرضيات الأبيض ذاته وأضواء الممرات الخافتة ذاتها، لكن كلَّ شيء يبدو مختلفًا وويل إلى جانبي، إنه يبدو كرؤية كلِّ شيء للمرة الأولى، لم أكن أعرف أنه من الممكن لشخص ما أن يجعل الأشياء القديمة جديدة مرةً أخرى.

نمشي ببطء متجاوزين الكافيتيريا، ونقف أمام نافذة زجاجية كبيرة جانبية، بعيدًا عن أيِّ مارة، نشاهد السماء تضيء تدريجيًّا، لا يزال كلُّ شيء هادئًا على الجانب الآخر من الزجاج، تقع عيناي على أضواء الحديقة في الأفق.

آخذ نفسًا عميقًا وأشير إليها: «أترى تلك الأضواء؟».

يومئ ويل برأسه وهو ينظر إليَّ، وشعره ممشّط إلى الخلف من مياه المسبح: «نعم، أنظر إليها دائمًا عندما أجلس على السطح».

يشاهدني وأنا أنظر مجددًا إلى الأضواء: «كنا أنا وآبي في كلِّ عام نذهب إلى هناك، اعتادت أن تسميهم بالنجوم لأنهم كانوا كثيرين». أبتسم ثم أضحك: «اعتادت عائلتي على أن تسميني بالنجمة الصغيرة».

أسمع صوت آبي في أذني، تناديني باسمي المستعار، إنه يؤلم، لكنه ليس حادًّا: «كانت تتمنى أمنية، ولم تكن إطلاقًا تخبرني ما هي، اعتادت أن تمزح بأنها إذا قالتها عاليًا فلن تتحقق أبدًا». النقاط الصغيرة من الضوء تتوهج في الأفق، تناديني، كما لو كانت آبي هناك، «لكنني أعرف، كانت دائمًا تتمنى رئتين جديدتين لي».

أتنفس، وأنا أشعر بالصراع الدائم لرئتي لترتفع وتهبط، وأتساءل كيف سيبدو عليه الأمر مع رئتين جديدتين. تلك الرئتان اللتان -ولفترة وجيزة- ستغيران الحياة تمامًا كما أعرفها، رئتان من الممكن أن تعملا فعلًا، رئتان ستسمحان لي بأن أتنفس، وتسمحان لي بأن أركض، وتعطيانني وقتًا أكبر للعيش بحق.

يقول ويل: «آمل أن تتحقق أمنيتها»، أسند رأسي إلى الزجاج البارد، وأحدق إليه.

أقول: «أتمنى ألا تذهب حياتي سدى». هذه هي أمنيتي في هذه الأضواء المتلألئة.

ينظر إلي نظرة طويلة: «حياتك كل شيء ستيلا، أنت تؤثرين في الناس أكثر مما تعرفين، يلمس صدره وهو يتكلم، واضعًا يده على قلبه: «أتكلم من وحي تجربة»».

يشكل تنفسي ضبابًا على الزجاج، فأمد يدي وأرسم قلبًا كبيرًا، ننظر إلى بعضنا بعضًا في انعكاس الزجاج، وأشعر بجاذبيته تسحبني عبر الفضاء المفتوح، تشدني من كل جزء فيَّ، صدري وذراعيَّ وأطراف أصابعي، أريد أن أقبِّله أكثر من أي شيء آخر على الإطلاق.

بدلًا من ذلك، أميل وأقبِّلُ انعكاس صورته على الزجاج.

يمد يده ببطء، ويلمس فمه بأطراف أصابعه، كما لو شعر بالقبلة، ونستدير لنواجه بعضنا بعضًا، أنظر إليه بينما تشرق الشمس في الأفق، تلقي وهجًا دافئًا على وجهه، وعيناه لامعتان ومملوءتان بشيء جديد لكنه مألوف بطريقة ما.

يبدأ جلدي بالتنميل.

يأخذ خطوة صغيرة في اتجاهي، تزحف يده المغطاة بالقفاز على طول عصا البلياردو، وعيناه حذرتان بينما يتسارع نبض قلبي، أخطو أقرب، لأسرق بضع سنتيمترات إضافية مجددًا، لأكون فحسب أقرب إليه.

لكن هاتفي يرن، يرن مرارًا وتكرارًا فيطير سحر اللحظة كبالون، ألتقط هاتفي من جيبي الخلفي لأرى رسالة من بو، أشعر بمزيد من الحزن والراحة بينما نتباعد أنا وويل عن بعضنا.

نداء

بارب تبحث عن كليكما!

أين أنتما يا رفاق؟

يا إلهي! يتملك الذعر كلَّ شبر مني، ثم أنظر إلى ويل وعيناي متسعتان، إذا وجدتنا معًا، لن يكون لدينا أبدًا موعد ثانٍ: «يا إلهي! ويل، بارب تبحث عنَّا».

ماذا علينا أن نفعل؟ لا يمكننا أن نكون أبعد عن جناحنا.

يبدو مذعورًا أيضًا لجزء من الثانية، ثم يتمالك نفسه ويقطب حاجبيه بينما يتخذ وضع السيطرة على الضرر: «ستيلا، أين ستبحث عنا أولًا؟».

تتزاحم أفكاري: «غرفة العناية المركزة لحديثي الولادة».

المدخل الغربي، ستأتي بارب إليه من الجانب الآخر، إذا حجزته، قد أستطيع الوصول هناك في الوقت المناسب.

أتجه برأسي بسرعة إلى المصعد، فأرى الأبواب تُغلق ببطء، أميل عابسةً عصا البلياردو عكس الحائط، وأتربسها باتجاه بيت الدرج بينما يحجزها ويل في الاتجاه المعاكس، عائدًا لطابقنا.

أضع قدمًا تلو الأخرى، أصعد الدرجات وتبدأ ذراعاي وقدماي في الاشتعال وأنا أجر جسدي صعودًا إلى الطابق الخامس، أسحب أكسجيني المحمول بعيدًا على كتفي، أتجه عبر الممر الخالي، وقدماي تطرقان الأرضية بصخب، وأتنفس في لهثات محمومة.

هذا سيِّئ للغاية، بارب سوف تقتلني، حسنًا، ستقتل ويل أولًا ثم حتمًا أنا.

أشعر برئتَيَّ تحترقان بينما أدفع الباب بجسدي وقد طُبعت عليه يدٌ حمراء كبيرة، تلوح وحدة العناية المركزة لحديثي الولادة في الأفق، أحاول سحب أكبر قدر ممكن من الهواء، وأسعل للغاية وأنا أفتح غطاء لوحة المفاتيح، وترتجف يداي للغاية لدرجة لا أستطيع فيها كتابة الأرقام.

سوف يقبض عليَّ، تأخرت كثيرًا.

أمسك يدي اليمنى بيدي اليسرى، لأثبتها بما يكفي لأكتب 6428. وحدة العناية المركزة لحديثي الولادة. يفتح الباب بنقرة، وأرمي نفسي على أريكة فارغة، ورأسي يدور وأنا أغلق عينيَّ لأتظاهر بالنوم.

بعد أقل من ثانية، يُفتح باب المدخل الشرقي، وأسمع وقع خطوات، ثم أشم رائحة عطر بارب عندما تقف على مسافة قصيرة إلى جانبي، يحرقني صدري وأنا أحاول السيطرة على تنفسي، أحاول جاهدة أن أبقى ساكنة وجسدي يتوق إلى الهواء.

أشعر بغطاء يوضع فوقي، ثم أسمع خطواتها تغادر ببطء، وباب المدخل الشرقي يفتح ويغلق خلفها.

أجلس معتدلة، أسعل وعيناي ممتلئتان بالدموع وألم قاتل يضرب صدري وجسدي بأكمله، يخمد الألم تدريجيًّا، وتتضح رؤيتي عندما يأخذ جسدي حاجته من الأكسجين، مقدار الارتياح الذي أشعر به لا يضاهيه سوى مقدار الأدرينالين المتدفق عبر جسدي.

أخرج هاتفي، وأرسل رمزًا تعبيريًّا بالإبهام لويل، يجيب بعد نصف ثانية: لا أصدق أنه لم يُلق القبض علينا.

أضحك، وأغوص في الأريكة الدافئة، ولا يزال إعصار الليلة السابقة يجعل قلبي يهيم عاليًا أميالًا فوق المستشفى.

يُطرق على باب غرفتي، فأستيقظ منزعجة من غفوتي غير المريحة على الكرسي الأخضر الشنيع إلى جانب النافذة، أفرك عينيَّ نعسة وأنا أتفقد هاتفي، محدقة إلى شاشته.

إنها بالفعل الواحدة ليلًا، ما قد يفسر وجود ملايين الرسائل من كاميليا وميا وبو يسألون كيف سارت الليلة الماضية.

الليلة الماضية.

أبتسم بمجرد أن أفكر فيها، وأشعر بموجة من السعادة تغمرني، أقف وأخطو إلى الباب وأفتحه، أحار عندما لا أجد أحدًا، هذا غريب! ثم أنظر إلى الأسفل، فأرى مخفوق الحليب بالشوكولا من الكافيتيريا موضوعًا على الأرض، وقد وضعت تحته ملاحظة.

أنحني وألتقطها، وأبتسم عندما أقرأ: «قال بو إنك تحبين الشوكولا، الفانيليا هي النكهة الأفضل بكل تأكيد، لكنني سأتغاضى عن الأمر لأنني معجب بك».

لقد استغرق وقتًا حتى لرسم منصة كرتونية، مع مثلجات بنكهة الفانيليا تتفوق على الشوكولا والفراولة لتأخذ وسام المركز الأول.

أضحك، وأنظر عبر الممر لأرى ويل خارج غرفته، يضع قناع وجه ويرتدي قفازات، ينزع قناع وجهه ويبتسم، بينما تقف بارب بالقرب من الزاوية، يغمزني ويفتح باب غرفته، ويختفي داخلها سريعًا قبل أن تراه.

أخفي مخفوق الحليب والملاحظة وراء ظهري، وأضع ابتسامة كبيرة: «صباح الخير بارب».

ترفع عينيها من سجل المرضى إليَّ، وتنظر إليَّ بعين الريبة: «إنها الظهيرة».

أومئ برأسي، وأنا أعود للداخل: «بالطبع، صحيح.. الظهيرة». أومئ بيدي الفارغة: «كلُّ هذا الثلج، كما تعرفين، يجعل من الصعب... تحديد الوقت من النهار».

أدور عينيَّ، وأغلق الباب قبل أن أتفوه بشيء أكثر سخفًا.

نتوارى عن الأنظار لبقية اليوم لكي لا نجعل بارب أكثر اشتباهًا بنا، لا نخاطر حتى بالاتصال عبر سكايب أو الرسائل النصية، أتصنَّع مشهدًا كبيرًا لإعادة ترتيب عربة أدويتي، وأنا أمرر سرًّا الملاحظات أسفل باب ويل في كلِّ مرة أمر فيها من الممر لأجلب المزيد من المستلزمات.

يتوجه ويل إلى آلة البيع نحو عشرات المرات، تأتي ردوده مع كلِّ كيس جديد من الشيبس أو لوح حلوى.

يكتب: «متى سيكون الموعد الثاني؟»، فأبتسم وأخطف نظري إلى دفتر ملاحظاتي، إلى ما قضيت كل يومي أعمل عليه.

خطتي لعيد ميلاده غدًا.

telegram @
yasmeenbook

الفصل العشرون

ويل

أشاهد أمي وأنا نعس من حافة سريري وهي تجادل الطبيبة حاميد ذهابًا وإيابًا، كما لو أنَّ الصراخ يمكن أن يساعدَ في تغيير نتائج إحصاءاتي، ليس هناك أيُّ تغير من السيفافلومالين.

ليست بالضبط تلك الهدية الأمثل لعيد ميلادي.

تقول وعيناها مضطربتان: «قد يكون هناك تداخل دوائي سلبي، شيء ما يمنع الدواء الجديد من العمل كما ينبغي».

تأخذ الطبيبة حاميد نَفَسًا عميقًا، وهي تهز رأسها: «البكتيريا في رئتَيَّ ويل مستعمرة بعمق، يتطلب تغلغل المضادات الحيوية في أنسجة الرئة وقتًا بالنسبة إلى أي دواء». تشير إلى حامل الحقن الوريدي اليومي من السيفافلومالين: «هذا الدواء لا يختلف عن غيره».

تأخذ أمي نَفَسًا عميقًا، وتمسك بحافة السرير: «لكن إذا لم يكن فعَّالًا...».

ليس مجددًا، لن أغادر مجددًا، أقف، وأقاطعها: «يكفي! انتهى الأمر أمي، أنا الآن أبلغ الثامنة عشرة، تتذكرين ذلك؟ لن أذهب إلى أي مستشفيات أخرى».

تستدير لتنظر إليَّ، ويمكنني القول إنها جاهزة لهذه اللحظة، وعيناها ملؤهما الغضب: «آسفة أنني أفسد متعتك لمحاولتي الحفاظ على حياتك ويل، أسوأ أم خلال العام، صحيح؟».

تتراجع الطبيبة حاميد ببطء نحو الباب، وأعرف أن ذلك تلميح لمغادرتها، تعود عيناي لأمي، وأحدق إليها: «تعرفين أنني قضية خاسرة، ألا تعرفين؟ أنت تجعلين الأمور أسوأ فحسب، ليس هناك علاج لإنقاذي».

ترد: «جميل! لنوقف العلاج، لنوقف إنفاق المال، لنوقف المحاولة، ثم ماذا ويل؟ -وتحدق إليَّ ساخطة- تتمدد على شاطئ استوائي وتدع المد يأخذك؟ شيء ما غبي وشاعري؟».

تضع يديها على خاصرتها، وهي تهز رأسها: «آسفة، لكنني لا أعيش في قصة خيالية، بل أعيش في العالم الحقيقي، حيث يحل الناس...».

ينخفض صوتها، فأمشي خطوة نحوها، وأرفع حاجبي، أتحداها لتقولها: «مشكلاتهم، تفضلي أمي، قوليها».

إنها الكلمة التي تختصر ما عنيته لها على الدوام.

تزفر ببطء، وعيناها ترتخيان لأول مرة منذ وقت طويل: «أنت لست مشكلة ويل.. أنت بُنيَّ».

أصرخ ونظرتي غاضبة: «إذن كوني أمي! متى كانت آخر مرة كنتِ فيها أمي، ها؟».

تقول وهي تخطو خطوة باتجاهي: «ويل، أنا أحاول أن أساعدك، أحاول أن...».

- هل تعرفينني حتى أصلًا؟ هل اطلعتِ على رسمة واحدة من رسوماتي؟ هل تعرفين أن هناك فتاة أنا معجب بها؟ أراهن على أنك لا تعرفين.

أهز رأسي والغضب يخرج مني: «كيف يمكنك ذلك؟ وكل ما ترينه فيَّ هو مرضي اللعين!».

أشير إلى كلِّ كتب الفنون والمجلات المكدسة على مكتبي: «مَن فناني المفضل أمي؟ ليست لديك أيُّ فكرة، أليس كذلك؟ تريدين مشكلة لإصلاحها؟ أصلحي نظرتك إليَّ».

نحدق إلى بعضنا بعضًا، تبتلع ريقها، وتتمالك نفسها وتمد يدها لتأخذ محفظتها من على السرير، وتقول بصوت ناعم وثابت: «أراك بخير ويل».

تغادر مغلقة الباب خلفها بهدوء، بالتأكيد غادرت، أجلس على سريري محبطًا، وأنظر لأرى هدية ملفوفة بإتقان، بشريطة حمراء كبيرة مربوطة بعناية حولها، كدت أرميها، لكن بدلًا من ذلك ألتقطها، مستعدًا لرؤية ما الذي من الممكن أن تعتقد أنني أريد فحسب، أمزق الشريطة وورق التغليف لأكشف عن إطار.

لا أستطيع فهم ما أراه، ليس لأنني لا أتعرفه، بل لأنني كذلك.

إنها رسم كاريكاتوري سياسي يعود لعام 1940، النسخة الأصلية للصورة التي أعلقها في غرفتي،

موقعة ومؤرخة وكل شيء، نادرة للغاية، لم أعتقد حتى إنها لا تزال موجودة.

سحقًا.

أستلقي على سريري، التقط وسادتي وأضعها فوق وجهي، الإحباط الذي كنت أشعر به حيالها قد تحول إلى نفسي.

كنت مستاءً للغاية من الطريقة التي لطالما نظرت بها إليَّ لدرجة أنني لم أكن أدرك أنني أفعل الشيء ذاته بالضبط.

هل أعرف إلى أين هي خارجة الآن؟ هل أعرف ما تحب أن تفعل؟ لطالما كنت مركزًا على الطريقة التي أريد أن أعيش بها حياتي الخاصة، لقد نسيت تمامًا أن لديها حياتها الخاصة.

إنه أنا.

من دوني، أمي وحيدة، كلُّ هذا الوقت وأنا أعتقد أنها ترى مرضي فحسب، كمشكلة تحتاج إلى حلٍّ، لكن، بدلًا من ذلك، كانت تنظر إليَّ مباشرة، محاولة حملي على محاربته إلى جانبها، عندما كان كلُّ ما أفعله هو بذل قصارى جهدي في محاربتها، كل ما أرادته مني البقاء والمحاربة، عندما كان كلُّ ما أواصل فعله هو الاستعداد للمغادرة.

أجلس، أنزل الصورة وأستبدلها بالنسخة الأصلية ذات الإطار.

أرادت الشيء ذاته الذي أرادته ستيلا: المزيد من الوقت، أرادت وقتًا أكثر معي.

أدفع كرسيَّ إلى الوراء، وأنا أنزع سماعات أذني، لقد قضيت الساعتين الماضيتين أرسم، محاولًا تناسي مواجهتي مع أمي.

أعرف أنني يجب أن أقول شيئًا، باتصال، بمكالمة أو رسالة، لكن لا يمكنني المساعدة إلا في أن أكون منزعجًا قليلًا، أعني، كان الخطأ من الجهتين، فهي بالتأكيد لم تكن تقوم بعمل مثالي من جهتها أيضًا، لو كانت فقط تريني أنها تنصت، حتى ولو قليلًا...

أتنهد، وألتقط كوب حلوى البودينغ وحبوب ما بعد الظهيرة من على عربة أدويتي وأتناولها بإخلاص، أخرج هاتفي، وأجلس على حافة سريري وأمرر بلا هدف عبر رسائلي على الانستجرام لأرى الكثير من أمنيات عيد الميلاد من زملائي القدامى.

لا شيء من ستيلا بعد، لم ترسل إليَّ شيئًا منذ الليلة الماضية، عندما سألتها عن الموعد الثاني.

أتصل بها عبر الفيس تايم، مبتسمًا عندما تظهر: «أنا حر».

تقول وعيناها تتسع: «ماذ... أوه صحيح، عيد ميلاد سعيد! لا يمكنني أن أصدق أنني لم...».

أومئ بيدي أقاطعها، ليس بالأمر المهم: «أنت مشغولة؟ أتذهبين في جولة؟ بارب ليست في الأرجاء».

توجه الكاميرا إلى كومة من الكتب المدرسية موضوعة أمامها: «لا يمكنني الآن.. أنا أدرس».

يعتصر قلبي، حقًّا: «نعم، حسنًا.. اعتقدت فقط أنه يمكن...».

تسأل وقد أعادت الكاميرا لها: «ما رأيك في وقت لاحق؟».

أقول وأنا أهز كتفي في حزن: «أصدقائي سيزورونني لاحقًا، لا بأس، سنجد حلًّا».

أنظر إليها بخجل: «كنت فقط، تعرفين، مشتاقًا إليك».

تبتسم إليَّ، وعيناها دافئتان ووجهها مسرور.

«هذا كلُّ ما أردت رؤيته! هذه الابتسامة». أمرر أصابعي خلال شعري: «حسنًا، سوف أتركك لتعودي لكتبك».

أغلق المكالمة، وأتمدد على سريري وأرمي هاتفي على وسادتي.

بالكاد بعد ثانية بدأ يرن، ألتقطه، وأجيب حتى دون أن أنظر إلى الشاشة لأرى من المتصل: «عرفت أنكِ ستغيرين...».

يقول صوت على الجهة الأخرى: «مرحبًا ويل!».. إنه جاسون.

أقول: «جاسون! مرحبًا»، منزعجًا قليلًا أنها لم تكن ستيلا، لكنني أبقى مسرورًا لسماع صوته، لقد حدث ذلك مع ستيلا بسرعة، لم تتح لي الفرصة حقًّا لاستيعابه.

يقول وصوته قلق: «لقد طرأ شيء ما، أنا آسف يا رجل، لن نتمكن من المجيء اليوم».

جديًّا؟ أولًا ستيلا والآن هوب وجاسون؟ أعياد الميلاد شحيحة نوعًا ما بالنسبة إليَّ، لكنني أتجاوز الأمر: «أوه، نعم، حسنًا، فهمت ذلك تمامًا». يبدأ الاعتذار، لكنني أقاطعه: «جديًّا يا صاح، لا بأس، ليس هناك مشكلة».

أغلق الخط وأنا أتنهد بصوت عالٍ، وبينما أجلس، تقع عيناي على جهاز الرذاذ خاصتي، أتناول البوتيرول وأهز رأسي متذمرًا: «عيد ميلاد سعيد لي».

أستيقظ منزعجًا من قيلولة مسائية، عندما يرن هاتفي لوصول رسالة، وأجلس وعيناي تحدقان إلى الشاشة، وأمرر إلى اليمين لأقرأ رسالة من ستيلا.

الغميضة، إنه دورك، قُبلاتي.

أنهض من السرير، مرتبكًا لكنني أشعر بالفضول وأنا أنتعل حذائي وأفتح الباب، يكاد بالون أصفر لامع يصدم وجهي، وحبله الطويل مربوط إلى مقبض الباب، أحدِّق إليه، لأدرك أن هناك شيئًا ما في قاع البالون.

ملاحظة؟

أتحقق من أن الممر خالٍ قبل أن أفرقع البالون، طفل يعود لغرفته ومعه كيس من الشيبس، يقفز على ارتفاع ثلاثة أمتار من الصوت، وتتطاير قطع الشيبس من الكيس لتتناثر على الأرض، ألتقط بسرعة ملاحظة ملفوفة من داخله، وأفتحها لأرى رسالة مكتوبة بخط ستيلا المرتب.

ابدأ حيث التقينا أول مرة.

مركز العناية المركزة لحديثي الولادة! أتسلل عبر الممر، متجاوزًا الطفل الذي يلتقط قطع البطاطا بامتعاض، وأستقل المصعد إلى الطابق الخامس. أركض عبر الجسر إلى المبنى 2، وأنا أتفادى الممرضات والمرضى والأطباء، وأتجه عبر الأبواب المزدوجة للمدخل الشرقي لمركز العناية المركزة لحديثي الولادة. أنظر حولي، ويتطاير رأسي في كلِّ اتجاه باحثًا عن آخر...هناك! بالون أصفر لامع آخر مربوط بسرير خالٍ خلف الزجاج، أمشي على رؤوس أصابعي بحذر إلى الداخل، وأتحسس العقدة على الحبل لأحرر البالون.

يا إلهي! ستيلا، هل هي بحّارٌ لعين؟

تُحلُّ خيرًا، وأتسلل بالبالون إلى الممر، أنظر في كلا الاتجاهين... أفرقعه.

أفتح الملاحظة لأقرأ الدليل التالي.

الزهور حمراء، أم أنها؟

أقطب حاجبي، محدِّقًا إلى الرسالة. «أم أنها»... أوه! أتخيل وجهها ليلة أمس، والوردة البيضاء المدسوسة خلف أذنها بعناية. المزهرية. أتوجه

مباشرة إلى البهو، أعدو على سلالم الممر الرئيسي وأدخل الغرفة المغلقة بالزجاج، أفتح الأبواب، وأرى البالون الأصفر يسبح في الهواء، وحبله مربوط بإحكام إلى المزهرية.

ألوِّح إلى حارس الأمن، الذي يحدق إليَّ باشتباه وأنا أحرر البالون من المزهرية، أكافح لالتقاط أنفاسي، ورئتاي تحتجَّان على كل هذا الركض، أبتسم له، وأفرقع البالون عاليًا، وأهز كتفيَّ خَجِلًا في تفسير: «إنه عيد ميلادي».

ألتقط الرسالة من داخله، وأفتحها لأقرأ:

لو كان بإمكاني فقط حبس نفسي طول هذه...

بالكاد أنهي القراءة قبل أن أستدير إلى حوض الأسماك الاستوائية، والأسماك البرتقالية والصفراء اللامعة تقفز أمامي بينما تتفحص عيناي بشراسة الجزء الخارجي من الحوض بحثًا عن بالون.

هل فهمتها خطأً؟

أفكر مجددًا، المسبح.

أسرع بالخروج من الغرفة، متجهًا إلى الصالة الرياضية في المبنى 1، وأنا أمسك الملاحظة الأخيرة في يدي. أفتح الأبواب إلى الصالة الرياضية، أمشي متجاوزًا جميع معدات التمرين الخالية، وأرى الباب إلى المسبح مفتوحًا ومسنودًا بكرسيٍّ مبشرًا بخير، أخطو إلى الداخل، وأتنفس الصعداء بارتياح عندما أرى البالون الأصفر يطفو على سطح الماء، تفصله عن الحافة مسافة صغيرة.

أنظر جانبًا، فأرى عصا البلياردو من يوم الجمعة.

أمرر العصا تحت البالون، ألتقط الحبل وأسحب البالون من الماء، فألاحظ ثقلًا في نهايته كما لو كان هناك شيء في النهاية يشده إلى الأسفل.

أسحبه إلى الأعلى، أضحك، وأتبين عبوة الكال ستات من فيديو ستيلا.

أستخدم عصا البلياردو لفرقعة البالون، وأدقق في بقايا البالون لأحصل على الرسالة في الداخل.

بعد 48 ساعة بالضبط من موعدنا الأول...

أقلب الملاحظة، عابسًا، لكن هذا كل شيء، أتفقد ساعتي، 08:59. دقيقة أخرى واحدة حتى يمضي على موعدنا الأول 48 ساعة... يرن هاتفي.

أمرر لأرى صورة ستيلا، تبدو جميلة جدًّا في قبعة الطاهي وهي تحمل بالونًا أصفر، وترتسم على وجهها ابتسامة عريضة، وقد كتب في الرسالة:... موعدنا الثاني قد بدأ!

أركز في الصورة، وأقربها لأرى أين يمكن أن تكون، هذه الأبواب المعدنية موجودة في كلِّ مكان في هذا المستشفى. لكن لحظة! أنظر إلى الحافة اليمنى للصورة لأرى ركنَ آلة مخفوق الحليب في الكافيتيريا، أمشي بسرعة إلى المصعد، وأستقله إلى الطابق الخامس وإلى نهاية الممر وأقطع الجسر إلى المبنى 2. أستقل مصعدًا آخر وأعود للطابق الثالث حيثُ الكافيتيريا، ألتقط أنفاسي وأهذِّبُ شعري في انعكاس صورتي على الأبواب الفولاذية المصقولة، وعصا البلياردو لا تزال في يدي. أدور حول الزاوية بشكل عادي لأرى ستيلا تستند إلى باب الكافيتيريا، ونظرة من البهجة الخالصة تملأ وجهها عندما تراني، إنها تضع المكياج، وتسحب شعرها الطويل بعيدًا عن وجهها بعصبة رأس.

تبدو جميلة.

- اعتقدت أنك لن تجدني أبدًا.

أرفع عصا البلياردو، فتمسك بالنهاية الأخرى وهي تفتح الباب وتقودني عبر الكافيتيريا المظلمة.

- أعرف أن الوقت متأخر، لكن كان علينا أن ننتظر غلق الكافيتيريا.

أعبس وأنا أنظر حولي: «انتظرنا؟».

تنظر إليَّ من الخلف وهي تقف أمام أبواب من الزجاج البلوري، وتعبيرها على وجهها غير واضح وهي تدخل كودًا إلى لوحة المفاتيح، وبنقرة تفتح الأبواب، وتصيح مجموعة من الأصوات «مفاجأة!».

يسقط فكي، هوب وجاسون، وكذلك أصدقاء ستيلا، ميا وكاميليا، قد عادتا لتوِّهما من كابو، يجلسون على طاولة مرتبة بالكامل مغطاة بملاءات المستشفى، وشموع بيضاء موضوعة على طرفيها تضفي وهجًا دافئًا على سلة مملوءة بالفطائر الطازجة وسلطة مقطعة بشكل مثالي، توجد هناك حتى أكواب طبية فيها حبوب كريون حمراء وبيضاء موضوعة أمام ثلاثة كراسي على الطاولة.

أنا مذهول للغاية.

أنظر من على الطاولة إلى ستيلا، وأنكزها عاجزًا عن الكلام.

تقول وهي تنقر جانبي برفق بعصا البلياردو: «عيد ميلاد سعيد ويل».

تقول كاميليا (أم إنها ميا؟): «إنه لطيف!»، وتضحك بينما تهرع إليَّ هوب لتعانقني.

تقول: «قد شعرنا بغصة لنبذنا لك».

يعانقني جاسون أيضًا، مربتًا على ظهري: «لكن حبيبتك هنا تتبعتنا عبر صفحات الفيسبوك وأقنعتنا لنفاجئك».

تضرب كاميليا وميا كفَّيهما عاليًا لاختياره الكلمة، فترمقهما ستيلا بنظرة قبل أن تنظر إليَّ، تلتقي أعيننا، حبيبتك، لها وقعٌ لطيف جدًّا.

أقول وأنا أنظر إليهم جميعًا، بعظيم الامتنان: «هذه حتمًا مفاجأة».

يظهر بو، يرتدي قناع وجه وغطاء للرأس وقفازات، ويؤرجح زوجين من الملاقط في الهواء: «هيه! الطعام جاهز تقريبًا».

نجلس، تاركين مسافة آمنة بين جميع المصابين بالتليف الكيسي، ستيلا على جهة، وأنا على الأخرى، وبو في المنتصف بين هوب وجاسون، ميا وكاميليا تجلسان على الجهة المعاكسة على الطاولة، متكفلتين بالمسافة

بيني وبين ستيلا، أبتسم، أنظر حول الطاولة إلى كلِّ شخص بينما نغوص في السلطة والفطائر. بطني يشعر بالامتلاء، ذلك مقزز.

أنظر عبر الطاولة، مبتسمًا إلى ستيلا، وأنا أعبر بوجهي «شكرًا لك». تومئ برأسها خجلة وتنظر إلى الأرض.

حبيبتك

•••

لقد عمل بو على طبق المعكرونة بالروبيان الأجمل على الإطلاق، مزينًا بأوراق الريحان وجبن البارميزان الطازج وحتى الكمأ! الجميع حدَّق إليه في ذهول تام.

أسأله ومعدتي تتقلص بصوتٍ عالٍ: «من أين أتى كلُّ هذا؟».

يقول بو وهو يشير إلى المطبخ خلفه: «من هنا! كلُّ مستشفى به مطبخ لكبار الشخصيات حيث يحتفظون بالأشياء الجيدة للمشاهير والسياسيين».

يهز كتفيه: «كما تعرف، الشخصيات المهمة».

يلتقط كأسًا من على الطاولة ويرفعها: «الليلة، عيد ميلاد الفتى، إنه لأجلك! بصحتكم!».

يرفع الجميع كأسه: «بصحتكم!».

أنظر إلى ستيلا وأغمزها: «من المؤسف أن لديَّ حساسية من المحار بو».

يُذهل بو وينظر إليَّ بهدوء، أرسم ابتسامة على وجهي وأنا أهز رأسي: «أمزح، أمزح!».

يقول بو ضاحكًا: «كدتُ أن أرميك بالروبيان على وجهك».

يضحك الجميع معنا، ونغوص جميعًا فيه، لقد كان على الإطلاق أفضل طبق معكرونة أكلته، وقد زرتُ إيطاليا، أقول وأنا أرفع شوكة مملوءة: «بو! هذا مذهل!».

وتقول ستيلا في موافقة: «ستصبح يومًا ما أفضل طهاة العالم»، فيعطيها بو ابتسامة كبيرة وهو يرسل قبلة كبيرة في اتجاهها.

سرعان ما نبدأ بتبادل القصص، يحكي جاسون قصة حول كيفية إقناعنا لمدرستنا كاملة بعدم ارتداء شيء باستثناء الملابس الداخلية في اليوم السابق لعطلة الصيف منذ سنتين.

كان ذلك مثيرًا للإعجاب خاصة باعتبار أننا كنا نعاقب إذا كانت ربطات أعناقنا غير معدولة.

هذا الشيء الوحيد الذي لا أفتقده من المدرسة، الزي الرسمي.

تبدأ ستيلا الحديث عن جميع الضرر الذي تسببت به مع بو هنا في المستشفى، من محاولة سرقة مخفوق الحليب من الآلة في الكافيتيريا إلى تنظيم سباقات الكراسي المتحركة في جناح الأطفال.

يبدو أنني لست الشخص الوحيد الذي يرهق بارب على الدوام.

يقول بو وهو ينظر إلى ستيلا: «أوه، لديَّ واحدة لكم يا رفاق، في الهالوين في ذلك العام».

تبدأ بالضحك، وعيناها دافئتان وهي تهز رأسها في وجهه.

- كم كان عمرنا، في العاشرة ستيلا؟

تومئ برأسها وتتولى إكمال القصة: «حسنًا، لقد وضعنا الملاءات علينا و...»، يبدأ بو يصدر أصوات الأشباح.. ووووه، وهو يرفع ذراعيه ويحوم في الغرفة: «لقد تسللنا إلى جناح مرضى الخرف».

لا بُدَّ أنكِ تمزحين معي.

أبدأ بالسعال لأنني ضحكت بشدة، أنزلق بكرسيَّ إلى الوراء بعيدًا عن الطاولة، وأنا ألوح بيدي إليهم للمتابعة بينما ألتقط أنفاسي.

يقول جاسون: «لا، لا، لم تفعلوها».

يقول بو وهو يمسح دمعة: «أوه يا رجل، لقد كانت فوضى عارمة، لكنه كان عيد الهالوين الأفضل على الإطلاق، وقعنا في الكثير من المتاعب».

تبدأ ستيلا تقول: «لم تكن فكرتنا حتى! آبي...».

يغيب صوتها، وأراها تكافح لتكمل كلامها بينما أطبق بعض الكال ستات من عبوة السفر خاصتي. تتلاقى أعيننا، وأرى مدى صعوبة ذلك بالنسبة لها.

تقول كاميليا: «أفتقدها»، وتومئ ميا في موافقة وعيناها دامعتان.

يقول بو، وهو يومئ برأسه: «كانت آبي جامحة وحرة، كانت دائمًا تقول إنها ستفتح أبواب الحياة على مصراعيها لأن ستيلا لم تكن قادرة على ذلك».

تقول ستيلا: «وفعلت، إلى أن قتلتها».

يخيم الصمت على الغرفة بأكملها، أشاهد بينما تلتقي عيناها بعينَي بو، كلاهما حزين لكنه يبتسم وهو يتشارك اللحظة، ويتذكرها.

أتمنى لو كان بإمكاني مقابلتها.

يقول بو مبتسمًا: «لكنها عاشت الحياة بحق، أكثر بكثير مما نحن نفعل، كانت ستحب حفلة سرية كهذه».

تقول ستيلا أخيرًا: «نعم، كانت ستحبها حقًّا».

أرفع كأسي، وأقول: «من أجل آبي».

يرد الجميع بتناغم وهم يرفعون كؤوسهم: «من أجل آبي!». تنظر ستيلا إليَّ عبر الطاولة، بنظرة من عينيها العسليتين كانت على الإطلاق أجمل هدية عيد ميلاد حصلت عليها.

الفصل الحادي والعشرون

ستيلا

أستند إلى الطاولة، أبتسم إلى بو وهو يسحب فطيرة مخبوزة طازجة من الفرن، وهو في ملعبه تمامًا. ينظر إليَّ، ويرفع حاجبيه الكثيفين.

- أردت أن أشاهد الأستاذ وهو يعمل.

يغمزني وهو ينزع قفازيه، وأشاهده وهو يتناول بثقة سكين الطاهي، ويقطع الفطيرة ببراعة إلى ثماني قطع منتشيًا.

أصفق وهو يلتقط فراولة طازجة ويحدق إليها، ينكبُّ عليها، يقطِّع هنا ويشذب هناك، في تركيز تام وكامل، يرفعها عاليًا بيديه المغطاة بالقفاز بعد عدة ثوان فحسب، وابتسامة كبيرة تعلو وجهه، الفراولة قد تحولت بالكامل إلى وردة جميلة متشابكة، يضعها على الفطيرة جانبًا.

ينخفض فكي: «بو! هذا مذهل».

يهز كتفيه بعفوية، ويقول لي، وهو يعطيني نظرة بأن ذلك بالتأكيد ليس أمرًا مهمًّا: «لقد تدربت على ذلك من أجل الشهر المقبل عندما أزور أمي».

لذا -بالطبع- أصرخ في حماس، أخيرًا!

أكاد أن أعانقه لكنني أمسك نفسي قبل أتمكن من تقليص المسافة بيننا وفعل ذلك، أنظر إلى الطاولة، أتناول قفاز المطبخ وأرتديه لأتمكن من مدِّ يدي وأخذها بيده.

تملأ الدموع عينَيَّ، وأنا أشهق وأهز رأسي: «بو. أنا...».

ينزع قفاز المطبخ من يدي، ويصفع رأسي به والدموع تملأ عينيه: «يا إلهي! لا تأخذنَّك العاطفة ستيلا، تعرفين أنني لا أستطيع أن أدع فتاة تبكي وحدها».

أقول وكلانا واقف هناك يشهق: «دموع الفرح بو».

«أنا سعيد للغاية!». يأتي صوت ضحك من الغرفة الثانية، وهو يمسح عينيه.

- هيا! يفوتنا الكثير من المتعة.

يحمل بو بحذر فطيرته الجميلة وعليها بحر من الشموع ونبدأ جميعًا بالغناء، أشاهد ويل يبتسم في وهج ضوء الشموع، وهو ينظر إلينا جميعًا حول الطاولة.

- عيد ميلاد سعيد، عيد ميلاد سعيد، عيد ميلاد سعيد، ويل الغالي، عيد ميلاد سعيد.

وغيرها الكثير، رددتُ الكلمات من أجله وهي تحمل في طياتها المشاعر أكثر من أيِّ وقت مضى.

يقول بو وهو يبتسم إليه: «آسف، إنها فطيرة، أنا بارع، لكن خبز كيك في غضون ساعة يعد خارج اختصاصي».

يقول ويل وهو يبادله الابتسامة: «إنها رائعة بو، أشكرك للغاية». ثم ينظر إلى الشموع بقلق: «إذا أطفأتها، فلن تستطيعوا تذوقها يا رفاق».

تتنقل عيناه بيني وبين بو، فنومئ بجدية.

تنحني هوب، وتطفئ الشموع، وتعبثُ بشعر ويل وهي تبتسم إليه: «لقد تمنيت أمنية من أجلك».

يبتسم إليها، وهو يغمز: «آمل أن تنبثق فيها ستيلا من كعكة عيد ميلاد وهي ترتدي البكيني».

يضحك الجميع، وتسحب ميا هاتفها وعصا السيلفي، وترفع ذراعها لتلتقط صورة جماعية، نتجمع مع بعضنا، قدر الإمكان ونحن نحافظ على المسافة الآمنة بين مصابي التليف الكيسي، في اللحظة التي تنقر فيها الكاميرا... بووووم.

يُفتح الباب الزجاجي خلفنا، ونقفز جميعًا في صدمة ونستدير لنرى... بارب. يا للهول! تحدِّق إلينا، ونحدق إليها أيضًا، الجميع مذهول لقول أيِّ شيء.

يبتلع بو ريقه: «مرحبًا بارب، اعتقدنا أنك في إجازة اليوم، هل نعدُّ لك طبقًا؟ على وشك أن تبدأ ستيلا بفقرة الترفيه».

لا بُدَّ أن بارب قد أخذت مناوبة مزدوجة اليوم، أنا متأكدة أنها لم تكن مصادفة أنها تكتمت على ذلك، إنها تفهمني، وتعرف أن عيد ميلاد ويل الليلة. سحقًا.

تحدق إلينا عاجزة عن الكلام، والغضب يفيض من كلِّ ملامح وجهها، تشير إلينا ثلاثتنا، فيتوقف قلبي.

- إلى الأعلى.. حالًا.

نقف ببطء، ونمشي نحوها، وهي تهز رأسها، وتنظر حولنا والكلماتُ تخونُها.

تمشي خارجًا: «اتبعوني». تمر عبر الباب وتعود عبر الكافيتيريا.

نلوِّح بانخفاض بالوداع نحو هوب وجاسون وميا وكاميليا، قبل أن نتبعها إلى الخارج، هذا سيِّئ، لقد رأيت بارب غاضبة أو منزعجة في كثير من المرات، لكن ليس على هذا النحو، هذا نوع آخر من الرعب.

نتبعها عبر الممر، أصوب نظرة قلق إلى ويل، فيتمتم: «سيكون كلُّ شيء على ما يرام»، لكن ابتسامته لا تصل إلى عينيه.

تقول: «ستُحتجزون جميعًا في غرفكم إلى أن نجري الزرعات التنفسية»، تلتفت إلى ويل: «وأنت، ستُنقل في الصباح».

أقول: «لا!»، وعيناها تلتقي بعينيَّ: «لا بارب، لم يكن خطأ ويل...».

ترفع يدها، مقاطعة إياي: «قد تكونين على استعداد للمجازفة بحياتك، لكنني لست كذلك».

كان هناك صمت صاعق، لكن بعد ذلك يضحك بو، نرمقه بأعيننا جميعًا، فيهزُّ رأسه، غير مبالٍ إطلاقًا، ينظر في عينيَّ ويعطيني ابتسامة كبيرة: «تمامًا كما كان يحدث عندما كنا صغارًا...».

تصرخ فيه بارب، وتوقفه في منتصف جملته: «لم تعد طفلًا يا بو!».

يقول بصوت جديٍّ وهو يهز رأسه: «لقد كنا حذرين بارب، كنا آمنين، تمامًا كما علَّمتِنا أن نكون». يشير إلى المسافة التي نبقيها بيننا حتى الآن.

يسعل، بشكل قصير وسريع، ثم يضيف: «أنا آسف بارب، لكن ذلك كان ممتعًا».

تفتح فمها لتقول شيئًا ما، ثم تغلقه بسرعة، وتستدير لتقودنا بقية الطريق إلى طابقنا، لم يتفوه أحد بكلمة واحدة طوال المسير، أنظر إلى ويل، أريد أن أكون أقرب، لكن هذا بالضبط ما أوقعنا في المشكلات في المقام الأول.

ندخل جميعًا غرفنا الخاصة، يغمزني بو وويل قبل أن يدخلا غرفتيهما، ترمقني بارب بنظرة خيبة أخيرة قبل أن ينغلق بابي.

بينما تدق الساعة أقرب فأقرب إلى منتصف الليل، أشاهد ويل، يستغرق في النوم سريعًا على الجهة الأخرى من شاشة حاسوبي المحمول، وجهه هادئ ومسالم، أفرك عينيَّ، نعسة من نهار طويل من التخطيط لحفلته والوقوع في يد بارب. لم ننهِ المكالمة لأننا نعلم أنه عما قريب سيكون بعيدًا في معزل، لا مزيد من التنزه في منتصف الليل، لا مزيد من صالة التمارين، لا مزيد من الرسائل المنزلقة تحت الأبواب، لا شيء.

أغمض جفنَيَّ ببطء بينما يدق جرس إنذار عبر المكبرات، ليوقظني منزعجة.

- حالة طوارئ، استدعاء إلى جميع العاملين المتاحين...

أقفز، وأهرع إلى الباب لأتمكن من سماع الكلمات المشوشة للإعلان، يا إلهي! حالة طوارئ. أحدهم قد توقف قلبه عن العمل، وليس هناك الكثير منا على هذا الطابق في الوقت الحالي.

وأنا أفتح الباب، يتردد الإعلان مجددًا، أوضح الآن مما كان عليه في الممر.

- حالة طوارئ، استدعاء إلى جميع العاملين المتاحين إلى الغرفة 310، حالة طوارئ.

الغرفة 310.

بو، رجاء أخبرني أنه لم يضع جهاز المراقبة على اليمين مجددًا.

أقبض يدي على الحائط، الغرفة تدور بينما فريق الاستجابة السريعة يدفع عربة الإنعاش بالقرب مني. أرى جولي تتبعهم إلى غرفة بو، فقد بدأت للتوِّ مناوبتها، صوت بارب يصيح من مكان بعيد: «إنه لا يتنفس! لا يوجد نبض، علينا أن نسرع».

لا يمكن لهذا أن يحدث.

أبدأ الركض، أتعثر في طريقي إلى غرفته، أرى ساقيه ممدودتين على الأرض، وقدميه منخفضتين في اتجاهين مختلفين. لا. لا، لا، لا.

تغطي بارب جسده، وتدفع الهواء إلى رئتيه بجهاز الإنعاش اليدوي، إنه لا يتنفس، بو لا يتنفس.

تصرخ: «هيا يا صغيري، لا تفعل هذا بي»، بينما يصيح آخر: «ضعي جهاز الصدمة الكهربائية».

ينحني أحدهم فوقه، يشق قميص كرة القدم الكولومبي المفضل لديه، والذي أرسلته أمه له في عيد ميلاده، ويضع وسادتين على صدره، أرى أخيرًا وجهه؛ عيناه ترجعان إلى الوراء، وجلده أزرق.

تتخدر ذراعاي وساقاي.

أصرخ: «بو!»، أريد الوصول إليه، أريده أن يكون بخير.

تقابل عيناي عينَي بارب فتصرخ: «لا، فليبعدها أحد من هنا».

يصيح صوت: «استرواح حاد في الصدر، رئتاه تنهاران، نحتاج إلى علبة تنبيب». أحدِّق إلى صدره غير المتحرك، أحاول أن أجبره أن يرتفع.

تنفس.. عليه أن يتنفس.

الأجساد تحيط بي وأنا أحاول أن أمر عبرها، أحتاج إلى أن أصل إليه، أحتاج إلى أن أصل إلى بو، أكافح بين الأذرع والأكتاف، محاولة أن أدفعها بعيدًا.

تقول بارب: «أغلقوا الباب» بينما تسحبني الأيدي خارجًا إلى الممر، أسمع صوتها أكثر من مرة، تتحدث إلى بو: «حارب صغيري، حارب، بالله عليك».

أرى جولي، وعيناها كئيبتان.

ثم يُغلق الباب في وجهي.

أتعثر مرة أخرى، وأستدير لأرى ويل يقف خلفي، وجهه شاحبٌ كما كان وجه بو، يمد يده إليَّ، ثم يغلق يديه في قبضات، والإحباط يملأ عينيه، أشعر كما لو أنني أصاب بالغثيان، أصل إلى الحائط، أنزلق منه إلى الأرض، ويصبح تنفسي في لهثات قصيرة، يجلس ويل مستندًا إلى الحائط، على بُعد خمس خطوات. ألفُّ ذراعيَّ المهتزَّتين حول ساقيَّ، وأسند رأسي إلى ركبتيَّ وأغمض عينيَّ بشدة، كلُّ ما أراه بو متمدِّدًا هناك.

الجوارب المخططة.

قميص الفريق الأصفر.

لا يمكن لهذا أن يكون حقيقيًّا.

سيأتي، عليه أن يأتي، سوف يقف ويلقي نكتة عن تناول الكثير من المعكرونة، ويسألني إذا كنت أريد الذهاب لتناول مخفوق الحليب معه في وقت متأخر من الليل، مخفوق الحليب الذي تناولناه معًا لعشر سنوات.

مخفوق الحليب ذاته الذي نحتاج إلى تناوله معًا عقدًا آخر.

أسمع وقع خطوات وأرفع رأسي لأرى الطبيبة حاميد تهرول عبر الممر.

أبدأ وصوتي ينتحب: «دكتورة حاميد...».

تقول بحزم، وهي تفتح الباب: «ليس الآن ستيلا». يفتح الباب بشكل واسع فأراه، وجهه يتجه نحوي، وعيناه مغلقتان.

ما زال لا يتحرك.

لكن الأسوأ من ذلك كانت بارب، بارب تضع رأسها بين يديها، لقد توقفت عن المحاولة، لا.

لقد نزعوا كلَّ شيء عنه. الأسلاك، أنابيب التنبيب.

أسمع صوتي يصرخ: «لا!»، ويصرخ كامل جسدي معه: «لا، لا، لا، لا!».

أنهض، لأساعد نفسي على الوقوف، وأبدأ الركض عائدة لغرفتي، لقد رحل.

بو رحل.

أتعثر خلال الممر، أرى عينيه في اليوم الذي تقابلنا فيه لأول مرة، أرى ابتسامته إليَّ عند باب غرفته، أرى يده مستريحة في يدي بينهما قفاز المطبخ قبل عدة ساعات فحسب، تجد يداي مقبض باب غرفتي وأندفع عبره، كلُّ شيء ضبابي بينما تفيض الدموع على وجهي.

أستدير لأرى ويل يتبعني، آخذ خطوة أقرب والنحيبُ يجهد جسدي، جاعلًا قفصي الصدري يوجعني، ما يجعل من المستحيل التنفس: «لقد رحل. ويل، لقد رحل! والداه، يا إلهي». أهز رأسي، وأقبضُ على جانبيَّ: «ويل! لقد كان على وشك أن... لن يتمكنوا من رؤيته مجددًا».

الإدراك يصفعُني: «لن أراه مجددًا أبدًا».

أكوِّرُ يديَّ في قبضة وأنا أخطو: «لم أعانقه حتى قطُّ، قطُّ، لا تلمس! لا تقف قريبًا جدًّا، لا تفعل، لا تفعل، لا تفعل». أصرخ بشكل هستيري، أسعل، وأشعر بالدوار: «لقد كان صديقي المفضل ولم أعانقه قطُّ».

ولن أفعل أبدًا، الشعور مألوف بشكل فظيع، لا يمكنني تحمل ذلك، أشهق: «أنا أفقد الجميع، آبي، بو، الجميع يرحل».

يقول ويل، بصوت رقيق لكنه حازم: «لن تفقديني». يمشي نحوي، يمد يديه، ويوشك أن يلفها حولي.

أدفعه بعيدًا: «لا»، أتراجع، أبعد فأبعد، أتجاوز الخطوات الخمس، أضغط بظهري على الحائط البعيد للغرفة: «ما الذي تفعله؟!».

الإدراك يملأ عينيه، ويعود للباب، ويبدو مذعورًا: «أوه، سحقًا، ستيلا، لم أكن أفكر، كنت فحسب...».

أقول: «ارحل»، لكنه أصلًا في الممر، وقد هرول إلى غرفته بالفعل. أغلق الباب بشدة، ورأسي يدقُّه الغضب والخوف. أنظر في أرجاء الغرفة، وكلُّ ما أراه هو الفقدان في كلِّ مكان، ما يجعل الجدران تضيق بي، أكثر فأكثر، إنها ليست غرفة نوم.

أركض إلى الجدار، تلتف أصابعي حول حواف ملصق، يسقط ممزقًا من على حائط المستشفى.

أنزع ملاءة السرير، وأرمي الوسائد عبر الغرفة، ألتقط باتشز، وأرميه على الباب، أدفع جميع الكتب والأوراق وقائمة مهامي من على المكتب، كلُّ شيء يتبعثر بصوت عالٍ على الأرض، أمسك بطاولة سريري عشوائيًّا، وألتقط أول شيء تقع عليه يدي وأضربه في الحائط.

يتحطم البرطمان الزجاجي، فيتناثر بحر من حبات الكمأ الشتوي الأسود على الأرضية.

أتسمر في مكاني، وأنا أشاهدها تتدحرج في كل اتجاه.

كمأُ بو.

يسود الصمت كلَّ شيء باستثناء صدري الذي يتنهد صعودًا ونزولًا، صعودًا ونزولًا. أجثو على ركبتي، والنحيب يوجع كلَّ جسدي وأنا أحاول

يائسة التقاط حبات الكمأ، واحدة واحدة، أنظر إلى باتشز، مُلقًى على جانبه، رثًّا وباليًا، كلٌّ حبة على حدة عدا حبة واحدة، تستند إلى ساقه المهترئ.

عيناه البنيتان الحزينتان تحدقان إليَّ، أمد يدي وألتقطه، أضمه إلى صدري، تسافر عيناي إلى رسمة آبي ثم إلى الصورة التي تجمعنا معًا.

أقف بخجل وأنطرح في فراشي، ألتفُّ في كرة صغيرة على فرشة الفينيل الخالية، والدموع تتدفق على وجهي وأنا ممددة هناك، وحيدة.

يأتي النوم ويذهب، وتنهيدي يوقظني مرارًا وتكرارًا على حقيقة من الموجع تصديقها، أتقلَّب، تختلطُ رؤاي بصور بو وآبي، تتحول الابتسامات إلى تكشيرات من الألم عندما يتلاشون في الفراغ، تأتي بارب وجولي معًا، لكنني أبقي عينيَّ مغمضتين إلى أن تغادرا مجددًا.

سرعان ما يجافيني النوم، أحدِّق إلى السقف بينما ينتقل الضوء عبر غرفتي، كلٌّ شيء يفسح المجال للخدر عندما يتحول الصباح إلى وقت الظهيرة.

يهتز هاتفي بضجة على الأرض، لكنني أتجاهله، لا أريد التحدث مع أحد، ويل، والدي، كاميليا وميا. ما الفائدة؟ سأموت أنا أو هم، وهذه الحلقة من موت الناس وحزنهم ستستمر فحسب.

إذا كانت هذه السنة قد علمتني شيئًا، فهو أن الحزن بإمكانه تدمير أيٍّ أحدٍ، لقد دمر والديَّ، وسوف يدمر والدي بو.

وأنا.

طوال سنواتٍ، كنت متصالحة مع الموت. لطالما عرفت أنه سيحدث، لقد كان ذلك الشيء الحتمي الذي عشت معه ذاك الإدراك بأنني سأموت قبل وقت طويل من آبي ووالديَّ.

لم أكن مستعدة قطُّ للحزن.

أسمع الأصوات في الممر وأنا أدفع جسدي إلى الأعلى، وأخوض عبر الركام إلى باب غرفتي، ألتقط في طريقي هاتفي من على الأرض، وأشعر أنه

يهتز في راحة يدي. أنجرف عبر الممر، متجهة إلى غرفة بو، عندما أحدق إلى الداخل، يتوقع جزء مني أن أرى بو يجلس هناك، ينظر إليَّ وأنا أمر، أشعر أن ذلك كله كان حلمًا مروعًا.

يمكنني سماعه يناديني، ستيلا. الطريقة التي يقولها بها، مع النظرة الدافئة تلك في عينيه، وتلك الابتسامة التي ترسمها شفاهه.

بدلًا من ذلك، أرى غرفة مستشفى فارغة، ولوح تزلج وحيدًا يستند إلى السرير، أحد الآثار القليلة التي كان قد ملأها بو، صديقي المفضل العظيم، بو. ملصق جوردون رامزي، القمصان الرياضية، رف التوابل.

لا يمكنني الخروج من الحفرة العميقة في داخلي، لذا أغمضُ عيني بشدة، وأسحب رأسي بعيدًا، وأواصل المشي.

وأنا أمر، أجر أطراف أصابعي على طول باب غرفة ويل، النور مضاء، يشعُّ من أسفل الباب، يتحداني لأدق عليه.. لأذهب إليه.

بالرغم من ذلك، أواصل الاندفاع، تأخذني قدماي لأصعد على الدرج وعبر الممرات وخلال الأبواب إلى أن أنظر فأرى لافتة غرفة ألعاب الأطفال، تنقبض أنفاسي في حنجرتي وأنا أحدِّق إلى الحروف الملونة. هنا حيث بدأ كلُّ شيء، حيث لعبت مع بو وآبي، لم يكن لدى أي واحد من ثلاثتنا أيُّ فكرة أنه ستكون أمامنا هذه الحياة القصيرة.

معظم هذه الحياة هنا داخل هذا المستشفى.

أقبضُ على قبة قميصي، لأول مرة طوال سنواتي في سانت جريس أشعر أن الجدران المطلية بالأبيض تطبقُ عليَّ، وصدري يضيق.

أحتاج إلى استنشاق الهواء.

أطير عبر الممر، أتجه إلى المبنى 1، أضرب زر المصعد حتى تفتح الأبواب الفولاذية، ويقلني المصعد مجددًا إلى طابقي. أفتح باب غرفتي، أدير رأسي لأنظر بقلق إلى عربة أدويتي المنظمة بشكل مهووس، كلُّ ما فعلته لمدة طويلة هو أخذ أدويتي والخوض في قائمة مهامي الغبية، محاولة أن أبقى على قيد الحياة أطول ما يمكن.

لكن لماذا؟

لقد توقفت عن العيش في اليوم الذي ماتت فيه أبي، فما الفائدة؟

لقد دفع بو كلَّ شخصٍ بعيدًا لكي لا يؤذيه، لكنه لم يحدث فرقًا، إذا متُّ الآن أو بعد عشر سنوات، سيُقضى على والديَّ. وكلُّ ما سأكون قد فعلته هو جعل نفسي بائسة أركز على بضعة أنفاس إضافية.

أفتح باب خزانتي لألتقط معطفًا ووشاحًا وقفازات، أريد أن أنأى بنفسي عن كلِّ هذا، ألقي بمكثف الأكسجين المحمول في حقيبة ظهر وأتجه إلى الباب.

أحدق إلى الممر، فأرى قسم الممرضات خاليًا.

أمسك بحزام حقيبة ظهري، وأستدير نحو السلالم في نهاية الممر، أمشي بسرعة، وأفتح الباب قبل أن يراني أحد، أصل إلى المجموعة الأولى من السلالم، وأصعدها واحدة تلو الأخرى، كلُّ درجة تجعلني أقرب إلى الحرية، كلُّ شهقة من الهواء تمثل تحديًا للكون، أركض والنشوةُ تبعدُ كلَّ شيء آخر في ذهني.

سرعان ما يصبح ضوء الخروج الأحمر أمامي، أخرج ورقة الدولار المطوية لويل، والتي لا تزال في جيب معطفي بعد كلِّ هذا الوقت، أستخدمها للضغط على زر الإنذار، أفتح الباب وأستخدم حجرًا مسندًا إلى الحائط لإبقائه مفتوحًا.

أخطو على السطح وأتوجه نحو الحافة لأرى العالم في الأسفل، آخذ نفسًا عميقًا من الهواء القارس وأخرج صرخة طويلة، أصرخ حتى يفسح صوتي المجال لأسعل، لكنه يشعرني بالارتياح، أنظر إلى الأسفل، ورئتاي تتنهدان، أرى ويل في غرفته في الأسفل. يشد حقيبة قماشية كبيرة على كتفيه، متجهًا إلى الباب.

إنه يغادر.

ويل سيغادر.

أنظر إلى أضواء العطلة في الأفق، تلمع كالنجوم، تناديني.

هذه المرة أستجيب.

الفصل الثاني والعشرون

ويل

أجلس على الكرسي، أنتظر بارب لتأتي وتأخذني إلى معزلي كما أستحق، يتحول الصباح إلى وقت الظهيرة، والظهيرة إلى المساء، والمساء إلى الليل، ولا أسمع أيَّ شيء منها، التهديد الذي وجهته لي البارحة قد دُفن تحت ما قد حدث.

تسافر عيناي إلى الساعة على طاولتي بينما تمر دقيقة أخرى، كلُّ تغيُّر في الأرقام الحمراء يضع أمس أبعد في الماضي.

يضع بو في الماضي.

لقد مات بو في يوم عيد ميلادي.

أهز رأسي بحزن، متذكرًا ضحكاته على العشاء، لقد كان بخير ثم بهذه البساطة...

ألوم نفسي، الصدمة والرعب اللذان ملآ وجه ستيلا وهي تنظر إليَّ، الغضب وهي تدفعني بعيدًا، يطاردني للمرة المليون اليوم.

لماذا فعلت ذلك؟ ما الذي كنت أفكر به؟

لم أكن أفكر، هذه هي المشكلة، ستيلا تفكر في كلِّ القواعد، ولا أستطيع اتباعها فحسب. ما مشكلتي؟ إنها مسألة وقت فحسب قبل أن أفعل شيئًا غبيًّا حقًّا، شيئًا يودي بكلينا إلى التهلكة.

سأرحل من هنا.

أنهض من على الكرسي، ألتقط حقيبتي القماشية من تحت سريري، أفتح الأدراج وأحشر ثيابي داخلها، أفرغ كلَّ ما فيها بأسرع ما يمكن، أطلب تاكسي، أحزم مستلزماتي الفنية ودفاتر رسمي في حقيبة ظهري، وأحشر جميع الأقلام والأوراق بفوضوية داخلها وبعض الأشياء المهمة، أضع إطار الرسم الكاريكاتوري الذي أعطتني إياه أمي برفق أعلى الكومة في محفظتي القماشية، وألفه في قميص، قبل أن أغلق الحقيبة وأضع علامة على الخريطة للسائق لمقابلتي عند المدخل الشرقي.

أرتدي معطفي وأخرج من الغرفة، وأزرره في الممر إلى الأبواب المزدوجة وأنزل بالمصعد إلى الممر الكبير الشرقي، أضع قبعتي، وأفتح الباب بجانبي، متجهًا داخل أبواب الممر الكبير للانتظار.

أنقر بقدمي بفارغ الصبر، أتفقد سيارتي، محدقًا عندما أرى حركة على الجهة الأخرى من الأبواب، الضباب يكسو الزجاج عندما أرى يدًا تمتد وترسم قلبًا.

ستيلا.

بإمكاني رؤيتها الآن، في الظلام.

نحدق إلى بعضنا بعضًا، والزجاج يفصل بيننا، ترتدي معطفًا أخضر سميكًا، وتلف وشاحًا بإحكام حول عنقها، وعلى يديها الصغيرتين زوجان من القفازات، ومحفظتها تتدلى على كتفيها.

أمد يدي، وأضغط بكفي على الزجاج، داخل القلب الذي رسمته.

تحني إصبعها، تخبرني أن أخرج إليها.

يقفز قلبي، ما الذي تفعله؟ يجب أن تعود للداخل؛ الجو متجمد، يجب أن أذهب إلى إحضارها.

أندفع عبر الباب بحذر، والهواء البارد يضربني مباشرة في وجهي، أشد قبعتي إلى الأسفل فوق أذني، أمشي إليها، وقدماي تنغرزان بصوت عالٍ وأنا أمشي عبر غطاء كامل من البياض.

تقول وأنا أقف إلى جانبها، وعصا البلياردو الخفية بيننا: «دعنا نذهب لنرى الأضواء». إنها متحمسة. مهووسة تقريبًا.

أنظر في اتجاه أضواء العطلة، وأنا أعرف كم تبعد عنا: «ستيلا، يمكن أن يكون هذا على بعد ميلين. لنعد للداخل...».

تقاطعني: «أنا ذاهبة». وعيناها مصممتان وممتلئتان بشيء لم أره فيهما من قبل، شيء ما جامح، سوف تذهب معي أو من دوني.. «تعال معي».

أنا كُلِّي مع أن نكون متمردين، لكن هذا يبدو كالرغبة في الموت. شابان مع رئتين بالكاد تعملان، يمشيان مسافة ميلين في اتجاه واحد للذهاب إلى رؤية الأضواء؟ «ستيلا. إنه ليس الوقت المناسب لتكوني متمردة، هل يتعلق هذا ببو؟ هذا يتعلق ببو، أليس كذلك؟».

تستدير لتقابل وجهي: «إنه يتعلق ببو، يتعلق بآبي، يتعلق بي وبك ويل، وبكل شيء لن نستطيع أبدًا فعله معًا».

أبقى صامتًا، أشاهدها، كلماتها وكأنها تخرج مباشرةً من فمي، لكن عندما سمعتها منها، لم تبدُ ذاتها.

تقول: «إذا كان هذا كل ما سنحصل عليه، إذن فلنفعلها، أريد أن أكون جريئة وحرة». تعطيني نظرة تتحداني بها: «إنها حياة فانية ويل، ستنقضي قبل أن ندرك ذلك».

نمشي على رصيف خالٍ، وأضواء الشارع فوق رؤوسنا تجعل البقع الثلجية تلمع، أحاول أن أبقى على بعد ست خطوات عنها ونحن نمشي، تتباطأ خطواتنا بينما نحاول بحذر ألّا ننزلق.

أحدق إلى الطريق في الأفق ثم مجددًا إلى ستيلا، أفكر في سيارة التاكسي التي على الطريق أصلًا: «لنستقل سيارة، على الأقل».

تدوِّر عينيها، تقول وهي تميل وتأخذ يدي بيدها: «أريد أن أمشي وأستمتع بالليل».

أنتفضُ إلى الوراء، لكنها تمسك بها بشدة، وأصابعها تتداخل في أصابعي. «قفازات! نحن بخير».

أبدأ بالقول وهي تبتعد عني: «لكن يُفترض بنا أن نكون على بُعد ست...». «ما زلت أرغب في رؤية قصر سيستين». تمدُّ ذراعينا لكنها ترفض أن تفلتها.

ترد حازمة: «خمس خطوات، أحافظ على هذا».

أراقبها للحظة، وأنا ألقي نظرة على وجهها، وأدع جميع الخوف والقلق يتلاشى، أنا أخيرًا خارج المستشفى، سأشاهد شيئًا ما على الواقع بدلًا من النظر إليه من على سطح أو عبر نافذة.

وستيلا مباشرة إلى جانبي، تمسكُ بيدي، وحتى لو أنني أعرف أن هذا خطأ، لا يمكنني أن أرى كيف يمكن أن يكون.

ألغي طلب السيارة.

نتقدم عبر الثلج، وأضواء الشارع تلوح لنا في الأفق، الحديقة على الحافة تصبح أقرب شيئًا فشيئًا.

تقول بينما نمشي، ووقع قدميها ثابت وهي تمشي عبر الثلج.

أقول وأنا أهز كتفيَّ: «سيكون هذا رائعًا»، إنه ليس في أعلى قائمة مهامي، لكن إذا كانت هي هناك، أريد أن أذهب أيضًا.

تسألني: «إلى أين تريد أن تذهب؟».

أجيب: «تقريبًا إلى كلِّ مكان»، وأنا أفكر في جميع الأماكن التي كنت فيها لكنني ضيعتها: «البرازيل، كوبنهاجن، فيجي، فرنسا، أريد أن أذهب في رحلة حول العالم أذهب خلالها فحسب إلى جميع الأماكن التي كنت فيها في

مستشفى لكنني لم أستكشفها قطُّ. قال جاسون إنه إذا أمكنني فعلها، فإنه يود أن يذهب معي».

تضغط على يدي، وتومئ برأسها متفهمة، يعلق الثلج على أيدينا وأذرعنا ومعطفيْنا، أسألها: «هل تحبين الطقس الدافئ أم البارد؟».

تعض على شفتها وهي تفكر: «أحب الثلج، لكن بعيدًا عن ذلك، أعتقد أنني أفضِّل الطقس الدافئ». تنظر إلي بفضول: «وأنت؟».

أجيبها، وأنا أعدِّل قبعتي وأبتسم إليها: «أنا أحب البرد، برغم ذلك، لست من المعجبين الكبار بالمشي عبره». أنحني، أغرف بعض الثلج وأجمعه معًا: «لكنني معجب كبير بكرات الثلج».

ترفع يديها، وهي تهز رأسها وتقهقه وهي تبتعد عني: «ويل.. لا».

ثم تغرف كرة ثلج وتصيبني بسرعة البرق مباشرةً في صدري، أحدِّق إليها مندهشًا، وأنزل بشدة إلى ركبتيَّ.

- لقد أُصبت!

تلحقني بأخرى ردًّا على ذلك، تضربني في ذراعي بهدف مثل قناص، أركض خلفها، كلانا يضحك ويرمي الثلج في اتجاه الآخر بينما نتجه نحو الأضواء.

سريعًا جدًّا، يبدأ كلانا يلهث ليتنفس.

أمسك بيدها في هدنة ونحن نلهث صعودًا إلى التلة، ونستدير لننظر خلفنا إلى كل شيء عندما نصل أخيرًا إلى القمة.

تزفر ستيلا، والبخار يتصاعد من فمها بينما ننظر إلى الثلج والمستشفى، بعيدًا خلفنا: «بالتأكيد تبدو أفضل من خلفنا».

أعطيها نظرة، وأنا أشاهد الثلج يتساقط برفق على شعرها ووجهها: «هل كان ذلك على قائمة مهامك؟ الخروج مع ويل؟».

تضحك، وصوتها سعيد وحقيقي رغم كلِّ شيء: «لا، لكن قائمة مهامي قد تغيَّرت».

تمد ذراعيها بشكل واسع، وتستلقي على ظهرها على التلة، ينهار الثلج حولها، تنفخ بهدوء وهي ممددة عليه، أشاهدها وهي تصنع ملاك الثلج، وتضحك بينما تتحرك ذراعاها وساقاها إلى الأمام والخلف، ذهابًا وإيابًا، دون قائمة مهام، دون مستشفى خانق، دون نظام مهووس، دون أيِّ أحد آخر للقلق بشأنه.

إنها ستيلا فحسب.

أمد يديَّ وأرتمي إلى جانبها، والثلج يتقولب حولي وأنا ممدد، أضحك وأنا أصنع ملاك ثلج أيضًا، جسدي بكامله بارد من الثلج، لكنه دافئ من اللحظة.

نتوقف وننظر إلى السماء، تبدو النجومُ على بُعد ذراع عنا، لامعة بما يكفي وقريبة بما يكفي لنمد يدنا ونلتقطها، أنظر إليها، وأعبس عندما ألاحظ نتوءًا في مقدمة معطفها، على صدرها.

ليس ذلك أنني كنت أنظر، لكن ثدييها ليسا قريبين من هذا الحجم.

أسألها وأنا أنخز النتوء: «ماذا يكون هذا؟».

تفتح معطفها لتكشف عن دب باندا محشو، ممدد بشكل هزيل على صدرها، أبتسم وأنظر لأقابل عينيها: «لا يمكنني الانتظار حتى أسمع عن هذا».

تسحب الباندا خارج معطفها، وترفعه: «لقد أعطتني آبي هذا في رحلة المستشفى الأولى لي، أحمله معي على الدوام منذ ذلك الحين».

أستطيع رؤيتها، طفلة صغيرة وخائفة، تأتي إلى سانت جريس للمرة الأولى، تمسك بدب الباندا الرث ذاك، أضحك وأنا أبتلع ريقي: «حسنًا، هذا جيد، لأنني كنت أرغب في إخبارك أن الثدي الثالث سيتسبب بانفصالنا».

تحملق فيَّ، لكنها تستدير بسرعة، تدسُّ الباندا إلى الداخل مجددًا، وتجلس لتغلق معطفها.

أقول وأنا أقف: «هيا لنذهب إلى رؤية أضوائك»، تحاول الوقوف لكنها تنجذب إلى الأرض، وهي جاثية، أرى حزام مكثف الأكسجين الخاص بها متدليًا من الأسفل، أمدُّ يدي، أمسك الحزام وأرفعه لتتمكن من الوقوف مرة

أخرى، أمسك به فتسحبه، يتأرجح جسدها صعودًا، تجعلها الحركة على بعد عدة سنتيمترات فحسب عني.

أنظر في عينيها، يخرج الهواء من أفواهنا ليتمازج في المسافة القصيرة بيننا، ويفعل ما أعرف أن أجسادنا لا تتمكن من فعله، أرى خلفها ملاكَي الثلج، بينهما خمس خطوات مثالية، أفلت يدي، وأتراجع بسرعة قبل أن تغمرني الرغبة الشديدة في تقبيلها مرة أخرى.

نواصل المشي، نصل أخيرًا إلى الحديقة وإلى البحيرة العظيمة، تبعد الأضواء عنا قليلًا فحسب، أشاهد، بينما يسطع ضوء القمر على السطح الجليدي، داكنًا وجميلًا، أنظر إلى الخلف، فأرى ستيلا تتنفس بشدة، تعاني لتلتقط أنفاسها.

أسألها وقد أخذت خطوة نحوها: «هل أنت بخير؟».

تومئ برأسها وتنظر خلفي وتشير: «لنأخذ استراحة».

أنظر خلفي لأرى جسر مشاة حجريًا، وأستدير لأبتسم لتلاعب ستيلا اللفظي، نمشي ببطء نحو الجسر الصغير، نتقدم بحذر على طول حافة الجسر.

تتوقف ستيلا قليلًا، وتمدُّ قدمها ببطء لتلمس الجليد، وتضع شيئًا فشيئًا ثقلًا عليه لتختبره تحت حذائها.

أقول: «ستيلا، لا». أتخيلها تسقط تحت المياه المتجمدة.

تعطيني نظرة: «إنها صلبة متجمدة.. تعال!».

النظرة ذاتها التي رأيتها طوال هذه الليلة: شجاعة، عابثة، متحدية.

يتبادر الطيش إلى ذهني أيضًا، لكنني أدفعه بعيدًا، *إذا كان هذا كل ما سنحصل عليه، فلنفعلها.*

لذا آخذ نفسًا عميقًا، وأقبل تحديها، وأمسك بيدها ونحن نتزلج على الجليد معًا.

الفصل الثالث والعشرون

ستيلا

للمرة الأولى منذ زمن، لا أشعر أنني مريضة.

أتشبث بيدي ويل ونحن نتزلج على سطح الجليد، ونضحك بينما نكافح لنحافظ على توازننا، أصرخ عندما أفقد توازني، مفلتةً ذراعيه لكيلا أجره معي إلى الأسفل، وأسقط بشدة على مؤخرتي.

يسألني وهو يضحك بشدة: «هل أنت بخير؟».

أومئ فرحة، أكثر من جيدة، أشاهده وهو ينطلق في جولة، ويصيح عندما ينزلق عبر الجليد على ركبتيه، أشاهده وهو يجعل الأذى بشأن بو أقل حدة، وهو يملأ قلبي إلى آخره، على الرغم من أنه لا يزال محطمًا.

يرن هاتفي في جيبي، وأتجاهله كما كنت أفعل طوال اليوم، أحدق إلى ويل في الأفق بينما يتزلج على طول البحيرة، يتوقف الهاتف فجأة، فأقف ببطء، لكنه يبدأ بالرنين بصخب، والرسائل تأتي واحدة تلو الأخرى.

أخرج هاتفي منزعجة، وأنظر لأرى شاشته مملوءة برسائل من أمي وأبي وبارب.

أتوقع أن أرى رسائل أكثر بشأن بو، لكن كلمات مختلفة تظهر أمامي.

رئتان، ثلاث ساعات على وصولها، أين أنت؟

ستيلا، أرجوك أجيبي! الرئتان في طريقهما إلى هنا.

أُذهل، يعلق الهواء الخارج لتوه من رئتي الحاليتين الرديئتين، أنظر إلى ويل عبر البحيرة، وأشاهده وهو يدور ويدور ويدور، هذا ما أردته، ما أرادته آبي؛ رئتين جديدتين.

لكنني أنظر عبر البحيرة إلى ويل مجددًا، الفتى الذي أحب، والمصاب ببكتيريا البيركهولدرية البصلية والذي لن يحصل أبدًا على الفرصة التي أمامي.

أحدق إلى هاتفي، ورأسي يطنُّ.

رئتان جديدتان تعني مستشفى وأدوية ونقاهة، إنها تعني علاجًا، واحتمال الإصابة بعدوى، وألمًا هائلًا. لكن الأهم من ذلك، تعني ابتعادي عن ويل أكثر من أي وقت مضى، بل حتى، الانعزال عنه، لإبقاء بكتيريا البيركهولدرية البصلية بعيدة عني.

عليَّ أن أختار الآن.

رئتان جديدتان؟

أم ويل؟

أنظر إليه فيبتسم إليَّ ابتسامة عريضة فلا يبقى من الصراع شيء.

أطفئ هاتفي وأرمي نفسي عبر الجليد، أتزلج وأنزلق في طريقي إليه، قبل أن أصطدم بقوة به، يتمسك بي، وبالكاد يتمكن من الوقوف ويمنعنا من السقوط على الجليد.

لا أحتاج إلى رئتين جديدتين لأبقى على قيد الحياة، أشعر بأني حية الآن، لقد قال والدي إنهما يريدان أن أكون سعيدة، عليَّ أن أثق بأنني أعرف ما يعني هذا، سيخسرانني في نهاية المطاف، ولن أستطيع التحكم في ذلك.

كان ويل على حق، هل أريد أن أقضي كلَّ وقتي أسبح عكس التيار؟

أدفعه وأحاول الاستدارة، ألقي ذراعيَّ بعيدًا، ويلتفت وجهي نحو السماء الملأى بالنجوم، أدور وأدور على الجليد الزلق، فأسمع صوته.

- يا إلهي! أنا أحبك.

الطريقة التي يقولها بها رقيقة للغاية وحقيقية وأروع شيء على الإطلاق.

تنخفض ذراعاي وأتوقف عن الدوران، وأستدير لأواجهه، يصبح تنفسي في لهثاتٍ صغيرة، يمعن النظر فيَّ، وأشعر بالجذب ذاته الذي لطالما شعرت به نحوه، جاذبية لا يمكن نكرانها تتحداني لكي أقلص المسافة بيننا، لأخطو عبر كل سنتيمتر من الخطوات الخمس.

لذا هذه المرة، أفعل.

أركض نحو ويل، تتصادمُ أجسامنا، تفسح أقدامنا المجال بينما نسقط على الجليد، نضحك ونحن على الأرض معًا، أسحب ذراعيه حولي، وأسند رأسي إلى صدره والثلج يتساقط حولنا، قلبي يخفق عاليًا، وأنا على يقين من أنه يتمكن من سماعه، أنظر إليه بينما ينحني نحوي، كلُّ نَفَسٍ جذَّاب يأخذه يشدني أقرب إليه.

يهمس: «تعرفين أنني أريد أن...»، وأكاد أشعر بها، تقابل شفتاه الباردتان شفتيَّ، باردة من الثلج والجليد، لكنها في كمالٍ مُطلق: «لكنني لا أستطيع».

أنظر بعيدًا وأسند رأسي إلى معطفه، وأنا أشاهد الثلج يتساقط، لا أستطيع، لا أستطيع، أبتلع الشعور المألوف الذي يجثم على صدري.

يصمت مجددًا، وأشعر برئتيه ترتفعان وتنخفضان تحت رأسي، وتنهيدٌ يفلتُ من شفتيه: «أنتِ تخيفينني ستيلا».

أرفع نظري إليه عابسة: «ماذا؟ لماذا؟».

ينظر في عينيَّ وصوته جاد: «تجعلينني أرغب في حياة لا يمكنني الحصول عليها». أعرف بالضبط ما يعنيه.

يهز رأسه ووجهه كئيب: «هذا الشيء الأكثر رعبًا الذي شعرت به على الإطلاق».

أعود بذاكرتي لأول مرة التقينا، عندما كان يتأرجح على حافة السطح.

يمدَّ يده، وتلمس يده المغطاة بالقفاز وجهي برفق، وعيناه الزرقاوان كئيبتان جديتان: «ربما باستثناء هذا».

بقينا صامتين، ننظر فقط إلى بعضنا على ضوء القمر.

يقول وهو يبتسم إليَّ بطرف شفته: «هذا رومانسي بشكل فظيع».

أقول: «أعرف.. أحب ذلك».

ثم نسمع صوت الجليد يئنُّ من تحتنا، نقفز ضاحكين، نتدافع معًا، يدًا بيد، إلى الأرض الصلبة.

الفصل الرابع والعشرون

ويل

أسألها ونحن نمشي ببطء إلى الخلف باتجاه جسر المشاة: «ما المكان الذي تحلمين بالعيش فيه؟»، ويدها المغطاة في القفاز مستريحة في يدي.

نبعد الثلج المتساقط على سور الجسر ونعتليه، وسوقُنا تتأرجح مع بعضها في الوقت ذاته.

تقول: «ماليبو، أو سانتا باربارا»، وهي تضع مكثف الأكسجين المحمول إلى جانبها ونحن نحدق إلى البحيرة.

كانت ستختار كاليفورنيا.

أنظر إليها «كاليفورنيا؟ حقًّا؟ لماذا ليست كولورادو؟».

تقول وهي تضحك: «ويل! كولورادو؟ مع رئتينا هذه؟».

أبتسم، وأهز كتفي وأنا أتخيل المناظر الخلابة لكولورادو: «ماذا عساي أن أقول؟ الجبال رائعة!».

تقول وهي تتنهد بصوت عالٍ متضايقة: «أوه لا، أنا أحب الشاطئ وأنت تحب الجبال، نحن محكوم علينا بالفشل».

يرن هاتفي، فأمدُّ يدي إلى جيبي لأرى مَن، تمسك بيدي، في محاولة لإيقافي.

أقول مستهجنًا: «علينا على الأقل أن نطمئنهم علينا».

ترد عليَّ: «من الواضح أنك متمرد»، وتحاول أن تختطف هاتفي من يدي، أضحك، وأُذهل عندما أرى شاشة هاتفي مملوءة برسائل من أمي.

في هذا الوقت المتأخر من الليل؟

أبعد يد ستيلا لأرى أن كل الرسائل متماثلة: **هناك رئتان من أجل ستيلا، عودا حالًا.**

كنت أؤرجح ساقي، ثم قفزتُ والحماس يملؤني من رأسي حتى قدمي: «يا إلهي! ستيلا، علينا أن نذهب حالًا». ألتقط يدها، محاولًا أن أسحبها من على السور: «رئتان... لديهم رئتان لك».

لا تتزحزح، علينا أن نعود بأسرع ما يمكن، لماذا لا تتحرك؟ ألا تفهم؟

أشاهد وجهها وهي تحدق إلى الأضواء، غير مبالية كليًّا بما قلته للتوِّ: «لم أرَ الأضواء بعد».

ما هذا الهراء؟

أسألها: «هل تعرفين؟»، والصدمة تضربني كشاحنة عملاقة: «ما الذي نفعله هنا ستيلا؟ هاتان الرئتان هما فرصتك لحياة حقيقية».

«رئتان جديدتان؟ لخمس سنوات ويل، هذا عمرها الافتراضي». تتذمر، وتحملق بي: «ما الذي سيحدث عندما تبدأ الرئتان بالفشل؟ سوف أعود للمربع الأول».

هذا كله خَطَئِي، ستيلا قبل أسبوعين لم تكن بهذا السخف، لكن الآن، وكلُّ الفضل لي، إنها على وشك أن ترمي كلَّ شيء بعيدًا.

أصرخ، محاولًا أن أجعلها تستفيق: «خمس سنوات تُعد مدى الحياة بالنسبة إلى مَن هُم مثلنا ستيلا، قبل إصابتي ببكتيريا البيركهولدرية البصلية،

كان يمكن أن أقتل من أجل رئتين جديدتين، لا تكوني سخيفة». أخرج هاتفي، أريد أن أتصل: «سأتصل بالمستشفى».

تصرخ وهي تتحرك لتوقفني: «ويل».

أشاهد مذعورًا أنبوب قُنيتها الأنفية يعلق مجددًا في فجوة الجسر الحجري، يهتز رأسها إلى الوراء وهي تفقد توازنها، تحاول الإمساك بالحافة الحديدية الزلقة، لكن يدها تنزلق على الفور وتسقط للأسفل.

أحاول أن أتشبث بها، لكنها ترتطم بالجليد، واقعة على ظهرها، ومكثف الأكسجين يطنُّ إلى جانبها.

أصرخ: «ستيلا، سحقًا! هل أنت بخير؟»، وأكاد أرمي نفسي إلى جانب جسدها غير المتحرك.

ثم تبدأ في الضحك، إنها ليست مصابة، أوه، شكرًا لله، إنها ليست مصابة، أهز رأسي، والارتياح يملأ صدري.

- كان هذا بعض...

هناك صوت تحطم عالٍ، أراها تمشي بصعوبة، لكن ليس هناك وقت.

أنادي «ستيلا!» والجليد يتحطم تحتها، يسحبها للداخل، وتبتلعها المياه الداكنة بأكملها.

الفصل الخامس والعشرون

ستيلا

أتخبط، والمياه الجليدية حولي وأنا أحاول السباحة إلى السطح.

معطفي ثقيل للغاية، والمياه تغمره، فيدفعني أسفل وأسفل في العمق، أفتح معطفي بثوران، وأبدأ بالانزلاق منه عندما أرى باتشز، يطفو بعيدًا، تحرقني رئتاي وأنا أنظر إلى الضوء عبر الفتحة التي وقعت من خلالها، الحبل الرفيع من مكثف الأكسجين يرشد إلى السطح.

لكن لاحقًا أنظر إلى باتشز.

جسدي يغرق أعمق وأعمق، والبرد يدفع الهواء خارج رئتي، والفقاعات تتدفق مني وتصعد إلى السطح.

أذهب إلى الباندا، وأمد يدي للوصول إليه، تلمس أطراف أصابعي فروه، أسعل الأكسجين المتبقي في جسدي، ورأسي يدق، والمياه تملأ رئتي.

تتشوش رؤيتي وتتحول إلى العتمة، تتغير المياه أمام عينَيَّ، وتتحول ببطء إلى سماء سوداء، ونقاط صغيرة من الضوء تظهر.

النجوم.

النجوم من رسمة آبي، تسبح نحوي، تحيط بي وتدور حولي، أطفو بينها، وأشاهدها وهي تومض.

انتظر.

هذا غير صحيح.

بطرفة عين، أنا في الماء مجددًا، والقوة تملأ جسدي وأنا أسحب بكل ما فيَّ للعودة للأعلى، تمتد يدٌ إليَّ، تلتف أطراف أصابعي بشدة حولها وأنا أتنفس بكلِّ سهولة خارج الماء.

أتمدد هناك، ألهث، وأجلس ثم أنظر حولي.

أين ويل؟

أمد يدي، أتحسس شعري، جاف، ألمس قميصي وبنطالي، جافة، أريح راحة يدي على الجليد، أتوقع أن أشعر بالبرد. لكن... لا شيء. شيء ما خطأ.

يقول صوت من جانبي: «أعرف أنك اشتقت إليَّ، لكن هذا مبالغٌ فيه كثيرًا». أنظر، فأرى الشعر البني المجعد والعينين العسليتين المطابقة، والابتسامة المألوفة.

آبي.

إنها آبي.

أنا لا أفهم، ألقي ذراعيَّ حولها، وأعانقها لأتأكد أنها حقيقية، إنها فعلًا هناك، إنها...انتظر.

أتراجع وأنظر حولي، إلى البحيرة المتجمدة، إلى جسر المشاة الحجري: «آبي، هل أنا... ميتة؟».

تهز رأسها، وتحدق: «ها... ليس تمامًا».

ليس تمامًا؟ أنا سعيدة جدًّا لرؤيتها، لكن الارتياح في كلماتها يغمرني، لا أريد أن أموت بعد.

أريد أن أعيش حياتي حقًّا.

يسمع كلانا صوت ضجة من مكان ما بعيد، أستدير، وأنظر إلى مصدر الصوت، لكنني لا أرى شيئًا. ما كانت تلك الضجة؟

أضغط على أذنيَّ عندما أسمع الصوت، كما لو كان صدى، من مكان ما بعيد.

صوته.

إنه صوت ويل، خشن، يأتي في أنفاس حادة وسطحية: «تماسكي، ستيلا».

أنظر إلى آبي، أعرف أنها تسمعه أيضًا، ننظر إلى صدري إذ يبدأ شيئًا فشيئًا يتمدد وينخفض، يتمدد وينخفض، مرارًا وتكرارًا.

كما لو أنني أحصل على التنفس الصناعي.

صوته يقول، أوضح الآن: «ليس... الآن. هيا...، ليس الآن. تنفَّسي».

أسألها: «ما الذي يحدث؟»، وأنا أشاهد بينما تبدأ الصورة أمامي تتغير، ويل، يبدأ خياله بالتشكل، قريبًا بما يكفي للمسه.

إنه يميل على جسد.

جسدي.

أشاهده وهو يرتجف ويسعل، جسده يتأرجح وهو يبدأ في الانهيار، كلُّ نَفَسٍ هو كفاح، أراه وهو يلهث بحثًا عن الهواء، يحاول جاهدًا أن يملأ رئتيه.

وكلُّ نفس يأخذه، يعطيني إياه.

تقول آبي وصدري يتمدد مجددًا: «إنه يتنفس من أجلك».

مع كلِّ نفس ينفخه في رئتي، تزداد الصورة أمامي وضوحًا شيئًا فشيئًا. أستطيع رؤية وجهه يتحول إلى اللون الأزرق، كلُّ نفس مؤلم.

أهمس «ويل»، وأنا أشاهده يكافح لينفث الهواء في جسدي.

تقول آبي وهي تشاهد: «إنه يحبك حقًّا، ستيل». وكلما اتضح المشهد، تلاشت هي.

أستدير إليها، مسعورة، أشعر مجددًا بالفقد الذي يبقيني يقظة في الليل، السؤال الذي دون إجابة.

تبتسم آبي إليَّ وهي تهز رأسها، وقد ابتعدت عني كثيرًا: «لم أتألم، لم أكن خائفة».

آخذ نفسًا عميقًا، وأخرج تنهيدة مريحة كنت قد حبستها لما يزيد على عام مضى، صدري يتنهد فجأة، وأبدأ بالسعال، والمياه تتدفق من فمي.

أشاهد بينما جسدي، على بُعد عدة خطوات فقط، يفعل الشيء نفسه.

تبتسم آبي الآن أكثر: «أريدك أن تعيشي، حسنًا؟ عيشي ستيلا.. من أجلي».

تبدأ بالتلاشي، فأصاب بالذعر، أقول وأنا أتشبث بها: «لا! لا تذهبي!».

تمسكني بشدة، تحضنني أقرب إليها، أستطيع استشعار رائحة عطرها الدافئة المنمقة، تهمس في أذني: «لن أذهب بعيدًا، سأكون دائمًا هنا، على بُعد شبر واحد فقط. أعدك».

الفصل السادس والعشرون

ويل

حلقي يشتعل.

رئتاي قد انتهتا.

مرة *أخرى.. من أجل ستيلا .*

أتوسل إليها: «ليس...الآن. هيا...، ليس الآن، تنفسي»، يدق البرد جسمي وأنا أمسك وجهها بين يدي، وأدفع كلَّ الهواء الذي لديَّ في رئتيها.

إنه يؤلم بشدة، بالكاد أستطيع تحمله.

تبدأ رؤيتي تتشوش، يطفُّ السواد من الحواف، ويتجاوز شيئًا فشيئًا كل شيء حتى يصبح كلُّ ما أراه وجه ستيلا محاطًا ببحر من السواد.

لم يتبق لديَّ شيء لأعطيه، لم يتبق لديَّ شيء...لا.

أعتدل، وأسحب جاهدًا مرة واحدة أكثر من نفس قصير، وأنا أعرف في أعماق صدري أنه سيكون النفس الأخير الذي سأتنفسه على الإطلاق.

أعطيه لها، أعطيها كلَّ شيء لديَّ، الفتاة التي أحب.. إنها تستحق ذلك.

أدفع كلَّ ما في جسدي من هواء في رئتيها، أنهار عليها، وليست لديَّ أيُّ فكرة إذا كان ذلك كافيًا، أسمع صوت سيارة الإسعاف التي اتصلت بها من بعيد، وقطرات الماء تسقط فوق رأسي بينما تجد يدي يدها، وأدع الظلام يبتلعني أخيرًا.

الفصل السابع والعشرون

ستيلا

أشعر بشيء ينغرز في ذراعي.

أفتح عينَيَّ، يدور رأسي بينما تعود لي رؤيتي شيئًا فشيئًا، وأضواء تسطع فوق رأسي، لكنها ليست أضواء العطلة، تلتف بشكل جميل حول الأشجار في الحديقة، إنها أضواء المستشفى.

ثم تحجبها الوجوه.

أمي.

أبي.

أقفز مندفعة من تحت الأغطية، وأنظر لأرى بارب، تقف إلى جانب ممرضة الطوارئ، التي تسحب دمًا من ذراعي.

أحاول دفع أيدي الممرضة بعيدًا عني، أحاول أن أنهض، لكنني ضعيفة جدًّا.

ويل.

أين ويل؟

يقول صوت الطبيبة حاميد التي تميل في اتجاهي: «ستيلا، هدِّئي من روعك، الرئتان الجديدتان...».

أنزع قناع الأكسجين، وأنا أبحث عنه. تحاول الطبيبة حاميد إعادته لوجهي، لكنني أراوغ بعيدًا عنها: «لا، لا أريدها».

يلف أبي ذراعيه حولي، محاولًا أن يجعلني أهدأ: «ستيلا، اهدئي الآن».

تقول أمي وهي تمسك بيدي: «صغيرتي، رجاء».

أبكي: «أين ويل؟»، لكنني لا أستطيع رؤيته في أي مكان، تبحث عيناي بشكل جنوني، لكن جسدي يستسلم، ويسقط بضعف مجددًا على النقالة.

كلُّ ما أستطيع رؤيته هو جسده منكبًّا على جسدي، يعطيني كلُّ ما لديه من هواء.

أسمع صوتًا ضعيفًا يقول: «ستيلا، أنا هنا».

ويل.

إنه حيٌّ.

أدير رأسي نحو الصوت، فتلاحق عيناي عينيه.

لم يكن بيننا ما يتجاوز العشر خطوات، لكنها بدت أبعد من أي وقت مضى، أردت أن أمدَّ يدي، أن ألمسه.. أن أتأكد أنه بخير.

يهمس: «خذي الرئتين»، وهو ينظر إليَّ كما لو كنت الشخص الوحيد هنا.

لا.. لا أستطيع، إذا أخذت الرئتين، فسأعيش أكثر منه لما يقارب العقد، إذا أخذت الرئتين، فسيكون خطرًا عليَّ أكثر من أيِّ وقت مضى، لن يدعونا نتشارك الرقم البريدي نفسه، فما بالك بغرفة، وإذا أصبت ببكتيريا البيركهولدرية البصلية بعد أن أحصل على الرئتين السليمتين التي يرغب بهما جميع المصابين بالتليف الكيسي؟ سيكون تصرفًا خاطئًا.. سيكون مدمرًا.

تقول أمي إلى جانبي، ويدها تقبض بشدة على ذراعي: «ستأخذين الرئتين ستيلا».

أنظر إلى أبي، وهو يمسك يده بشدة: «هل تعرف كم من الأشياء أخسرها أمام التليف الكيسي؟ الأشياء التي قد خسرتها بالفعل؟ لن تغير الرئتان شيئًا».

أنا متعبة، أنا متعبة من محارَبة نفسي.

يهدأ الجميع.

أقول وأنا أعني ذلك: «لا أريد أن أخسر ويل كذلك، أنا أحبه يا أبي».

أنقل نظري بين أمي وأبي، ثم إلى بارب والطبيبة حاميد، أريدهم أن يفهموا.

يقول ويل: «خذيها رجاء»، وهو يكافح ليخرج من تحت بطانية الطوارئ، وجلد صدره ومعدته وبطنه بلون الأزرق الشاحب، ذراعاه ترتفعان، بينما تدفعه جولي وامرأة أخرى لينخفض.

أقول وأنا أعرف أن الرئتين الجديدتين لن تخلصانِي من التليف الكيسي: «لكنني إذا فعلت، لن يغير ذلك شيئًا من أجلنا ويل، سيجعل الأمور أسوأ».

يقول وقد علَّق عيناه بعينَيَّ: «خطوة واحدة في الزمن، إنها فرصتك، وهذا ما يريده كلانا، لا تفكري بما فقدتِه، فكري بما يجب أن تحصلي عليه، عيشي، ستيلا».

أتمكن من الشعور بذراعي آبي تلتف حولي مجددًا عند البحيرة، تمسك بي على نحو قريب، بإمكاني سماع صوتها في أذني، تقول الكلمات ذاتها التي يقولها ويل الآن.

عيشي، ستيلا.

آخذ نفسًا عميقًا وأشعر بالكفاح المألوف من أجل الهواء الذي أمارسه كلَّ يوم، عندما كنت مع آبي، قلت إنني أريد أن أعيش، سيكون عليَّ أن أقلق بشأن ما بعد ذلك. أقول: «حسنًا» وأنا أومئ للدكتورة حاميد، وقد اتخذت القرار.

يملأ الارتياح عينَي ويل فيتمدد، وهو يضع يده على عربة الأدوية التي بين نقالتينا، أمدُّ يدَيَّ، وأضعها على الجهة الأخرى، بيننا الفولاذ المصقول، لكن ذلك لا يهم.

تبقى يده على عربة الدواء بينما أبدأ ببطء في التدحرج، إلى رئتين جديدتين، إلى بداية جديدة.

لكن بعيدًا عنه.

أسمع وقع خطوات والدي من خلفي، وبارب، والطبيبة حاميد، لكنني أنظر إلى الخلف إلى ويل، مرة أخرى، تلتقي عيناه بعينَيَّ، وفي تلك النظرة أراه عندما التقينا لأول مرة في الممر، يمرر أصابعه عبر شعره، أراه يمسك بالجهة الأخرى من عصا البلياردو بينما نتجول في المستشفى، يخبرني أن أبقى بجانبه إلى السنة القادمة. أراه يقطع المياه في المسبح، والأضواء تتراقص على عينيه، أراه على الجهة الأخرى من الطاولة في حفل عيد ميلاده، يضحك حتى تتدفق الدموع على وجهه.

أرى الطريقة التي ينظر بها إليَّ عندما يقول إنه يحبني، منذ ساعات فحسب، على البحيرة الجليدية.

أراه وهو يريد تقبيلي.

والآن يبتسم تلك الابتسامة المائلة من اليوم الذي التقينا فيه، وتلك الأضواء المألوفة تملأ عينيه إلى أن يتوارى عن الأنظار، لكنني أستمر في سماع صوته.. في سماع صوت أبي.

عيشي، ستيلا.

الفصل الثامن والعشرون

ويل

أعود بضعف لنقالتي، وجسدي يؤلمني بكامله، ستحصل على رئتين جديدتين، *ستيلا ستحصل على رئتين جديدتين،* برغم الألم، يخفق قلبي بسعادة، تلتف يد أمي برفق حول ذراعي بينما تضع جولي قناع الأكسجين على وجهي.

ثم أتذكر.

لا..

أجلس معتدلًا، وصدري يحترق وأنا أصرخ عبر الممر: «دكتورة حاميد!».

من مكان بعيد، تستدير لتنظر إليَّ، عابسة، وتومئ لبارب بأن تتبعها بينما تواصل الممرضة المرافقة دفع ستيلا إلى عمليتها الجراحية، أنظر إلى كلتيهما قبل أن أنظر إلى يديَّ.

- لقد أجريت لها تنفسًا اصطناعيًّا.

يخيم على الغرفة سكون تام بينما يستوعب كل شخص ما يعني ذلك، قد تكون أصيبت ببكتيريا البيركهولدرية البصلية.. وهذا كله خطئي.

أقول وأنا أبتلع ريقي: «لم تكن تتنفس، كان عليَّ ذلك، أنا آسف جدًّا».

أنظر إلى عينَي بارب، ثم إلى الطبيبة حاميد، تقول وهي تومئ إلي برأسها تطمئنني: «لقد أبليت حسنًا ويل، لقد أنقذت حياتها، حسنًا؟ وإذا كانت قد أصيبت ببكتيريا البيركهولدرية البصلية، فسنتعامل مع ذلك».

تنظر إلى باب، ثم إلى جولي، ثم تعود لي: «لكن إن لم نستخدم هاتين الرئتين، فستتلفان، سنجري العملية».

يغادرون، وأغرق مجددًا ببطء في نقالتي، وثقل كلِّ شيء يجثم على جسمي بأكمله، الإعياء يملأ كلَّ شبر مني، أرتعش، قفصي الصدري يؤلمني من البرد، تلتقي عيناي بعينَي أمي، بينما تضع جولي قناع الأكسجين مجددًا على فمي، وأشاهد أمي بينما تمد يدها لتمسح شعري بلطف كما كانت تفعل عندما كنت أصغر سنًّا.

أغلق عينَيَّ، وأتنفس صعودًا ونزولًا، وأدع الألم والبرد يفسح المجال للنوم.

أنظر إلى ساعتي، أربع ساعات، لقد مرت أربع ساعات منذ أن أخذوها.

أهز ساقي بعصبية، أجلس في غرفة الانتظار، أحدق بقلق خارج النافذة إلى الثلج، أرتعش رغمًا عني، وأعود بذاكرتي للصدمة الجليدية في الماء منذ عدة ساعات فقط، تواصل أمي محاولة أخذي إلى غرفتي، وهي تضع أغطية أكثر، لكنني أريد أن أبقى هنا. أحتاج إلى أن أكون هنا، قريبًا قدر الإمكان من ستيلا.

أبعد عيني عن النافذة، وأنا أسمع وقع خطوات تقترب أكثر فأكثر، أنظر فأرى والدة ستيلا تجلس على الكرسي الثاني إلى جانبي، وهي تمسك كوبًا من القهوة في يدها.

تقول أخيرًا، وعيناها تقابل عينَيَّ: «شكرًا لك.. لإنقاذ حياتها».

أومئ برأسي وأنا أعدل قنيتي الأنفية، والأكسجين يصدر صوتًا وهو يخرج: «لم تكن تتنفس، أيُّ شخص كان سوف...».

تقول، وعيناها تسافر إلى النافذة: «أعني الرئتين، والدها وأنا، لم نستطع أن...». يتلاشى صوتها لكنني أعرف ماذا تقول، تهز يدها وهي تنظر إلى الساعة التي تدق فوق أبواب غرفة العمليات: «عدة ساعات أخرى فقط».

أبتسم إليها: «لا تقلقي، ستخرج خلال وقت قصير لتعدَّ «خطة للتعافي من عملية زرع الرئة في 38 خطوة»».

تضحك، ويخيم صمت مريح على كلينا إلى أن تذهب لتناول الغداء.

أجلس وحيدًا، أبقى متوترًا، أحادث عبر الرسائل جاسون، وهوب، وأحدِّق إلى الجدار، صور ستيلا تحوم حول رأسي، ولحظات متفرقة من الأسابيع القليلة الماضية تمر أمامي.

أريد أن أرسم ذلك كله.

أول يوم التقينا به، ستيلا وهي ترتدي الرداء الواقي المؤقت، العشاء في حفل عيد الميلاد، كلُّ ذكرى أثمن من الأخرى.

تنفتح أبواب المصعد، وتظهر بارب -وكما لو أنها سمعت أفكاري- تحمل كومة من مستلزماتي الفنية.

تقول وهي تسلمني كلَّ شيء: «التحديق إلى الجدار قد يصبح مملًّا أكثر بعد حين».

أضحك.. ليست هذه الحقيقة.

أسألها: «هل هناك أي أخبار؟»، ملحًّا لأعرف كيف تسير العملية، والأكثر أهمية، نتائج الزرع، أحتاج إلى أن أعرف أنني لم أنقل إليها بكتيريا البيركهولدرية البصلية، أن هاتين الرئتين ستعطيانها الوقت الذي تريده.

تهز بارب رأسها، وتنظر إلى باب غرفة العمليات، وهي تأخذ نفسًا عميقًا: «ليس بعد، سأخبرك في الثانية التي أسمع فيها شيئًا ما».

أفتح أول صفحة خالية من دفتر رسوماتي وأبدأ الرسم، تدب الحياة في الذكريات مجددًا أمام عينَيَّ. بمرور الوقت، يحين وقت الظهيرة، يفتح الباب وقد عاد والدا ستيلا، وكاميليا وميا في إثرهما، وأوعية طعام الكافيتيريا مكدسة عاليًا في أيديهما.

تقول ميا «ويل» وهي تركض نحوي لتعطيني عناقًا بيد واحدة، بحذر لئلا تسقط طعامها، أحاول ألا أرمش، فجسدي ما زال ضعيفًا من ليلة أمس.

تقول كاميليا بينما يجلس الجميع على المقاعد إلى جانبي: «لم نعرف ما الذي تفضله، لذا أحضرنا لك الساندويتش، تفتح والدة ستيلا كيسها وتخرج منه ساندويشًا مغلفًا بالبلاستيك».

أبتسم بامتنان، وتصدر معدتي أصواتها تقديرًا منها: «شكرًا لك».

أرفع نظري من رسمتي لأنظر إليهم، وأشاهدهم جميعًا وهم يأكلون، يتحدثون عما ستفعله ستيلا الآن، وكلماتهم تفيض بالحب لها، إنها الغِراء الذي يجمعهم معًا، والداها، كاميليا وميا، كلٌّ واحد منهم يحتاج إليها.

أصرف نظري عنهم وأرسم، كلُّ صفحة مملوءة بصورة أخرى لقصتنا.

ساعات سباحتنا معًا -تغادر كاميليا وميا، وبارب وجولي في ذهاب وإياب- لكنني أواصل الرسم، أريد أن يكون كلُّ تفصيل صغير مذكورًا إلى الأبد، أنظر إلى والديها، سرعان ما تغفو والدتها على صدر والدها، وتلتف ذراعاه حولها بشكل وقائي بينما تغمض عيناه ببطء.

أبتسم في نفسي، يبدو أن ستيلا ليست الوحيدة التي تحظى بفرصة ثانية اليوم.

تفتح أبواب غرفة العمليات، تخرج الطبيبة حاميد ومعها مرافقتها من الجراحين.

تتسع عيناي، فأمد يدي لأومئ لوالدي ستيلا بأن يستيقظا، نقف جميعًا، نتفرس وجوههم بلهفة، هل نجح الأمر؟ هل هي بخير؟

تنزع الطبيبة حاميد قناعها الجراحي مبتسمة، فيتنهَّد ثلاثتنا بارتياح.

يقول أحد الجراحين: «تبدو رائعة».

تشد والدة ستيلا والدها وتمنحه عناقًا كبيرًا: «أوه، الشكر لله!». أضحك معهم، جميعنا مبتهج، لقد فعلتها ستيلا.. لقد حصلت ستيلا على رئتين جديدتين.

•••

أرتمي على سريري، مرهقًا بالطبع لكنني سعيد أكثر من أيِّ وقت آخر، أنظر إلى الأعلى، فأقابل نظرات أمي وهي تجلس إلى كرسي بجواري.

تسألني للمرة المليون منذ أن عادت للمستشفى: «هل أنت دافئ بما فيه الكفاية؟». أنظر إلى طبقتَي البناطيل والطبقات الثلاث من القمصان التي أرتديها لأسترضيها، فتزحف ابتسامة إلى وجهي.

أشد قبة قلنسوتي: «أنا أتعرق فعليًّا عند هذه النقطة».

يُطرق على بابي، فتطل بارب من الباب، وتقابل عينَيَّ وهي تحمل ورقة مملوءة بنتائج الاختبار. أصابُ بالشلل؛ عيناها لا تفصح بأيِّ شيء عما أنا على وشك سماعه.

تتوقف، تميل إلى الباب وتتفحص الورقة: «ستستغرق مزرعة البكتيريا عدة أيام لتنمو، ولا يزال هناك احتمال أن تنمو في بلغمها، لكن بالنسبة إلى الوقت الحالي...». تبتسم إليَّ وهي تهز رأسها: «إنها سليمة، لم تلتقط العدوى، لا أعرف كيف ذلك بحق الجحيم، لكنها لم تلتقطها».

يا إلهي!

بالنسبة إلى الوقت الحالي، هي سليمة من بكتيريا البيركهولدرية البصلية، بالنسبة إلى الوقت الحالي، هذا كافٍ.

تسأل أمي من خلفي: «ماذا عن ويل؟. السيفافلومالين؟».

تلتقي عيناي بعينَي بارب، ونظرة تفهم تمر بيننا، تبتلع ريقها، وتنزل نظرها إلى الأوراق في يدها. ونتائج الاختبار أعرف جوابها مسبقًا.

أسأل: «إنه لا يجدي نفعًا معي، أليس كذلك؟».

تخرج تنهيدة طويلة وهزت رأسها: «لا، لا يجدي نفعًا».

أوه، سحقًا!

أحاول ألّا أنظر إلى أمي، لكنني أستطيع أن أشعر بالضيق على وجهها، الحزن، أمدُّ يَدَيَّ وأمسك بيدها وأنا أضغط عليها برفق، للمرة الأولى، أعتقد أن كلينا لديه خيبة الأمل نفسها.

أنظر إلى بارب بندم: «أنا آسف جدًّا على كلٍّ هذا».

تهز رأسها وتتنهد: «لا، عزيزي...»، ينخفض صوتها وهي تهز كتفيها وتبتسم إليَّ بضعف: «الحب هو الحب».

تغادر بارب وأمسك يد أمي وهي تبكي، وأنا أعرف أنها قد فعلت كلَّ ما بوسعها، إنه ليس ذنب أحد.

تستغرق أخيرًا في النوم، وأجلس أنا على كرسي إلى جانب النافذة، أراقب الشمس تغرب ببطء في الأفق، والأضواء التي لم تذهب ستيلا إلى رؤيتها أبدًا تُشغَّل بينما ينتهي يوم آخر.

أستفيق في منتصف الليل، قلقًا، أنتعل حذائي، وأتسلل من غرفتي، متجهًا إلى الطابق الأول، إلى غرفة الإنعاش حيث ترقد ستيلا. أشاهدها من خلال الباب المفتوح، وجسدها الصغير مربوط إلى آلات كبيرة تقوم بالتنفس من أجلها.

لقد فعلتها.

أتنهد، وأدع الهواء يملأ رئتَيَّ بأفضل ما يمكن، والقلق جاثم على صدري، لكن أشعر كذلك بالارتياح.

أشعر بالارتياح لأن ستيلا ستنهض بعد عدة ساعات من الآن ولديها على الأقل خمس سنوات جميلة إضافية، مملوءة بكل ما تتضمنه قائمة مهامها، وربما، إذا كانت تشعر بالشجاعة، ليس على قائمتها بعض الأشياء، كأن تذهب إلى مشاهدة أضواء العطلة في الساعة الواحدة ليلًا.

مع ذلك، أشعر وأنا أتنهد بشيء آخر.. أن أجعل جميع هذه السنوات آمنة.

أطبق على فكي، وعلى الرغم من أنَّ كلَّ شيءٍ فيَّ يريد أن يحاربه، أعرف بالضبط ما عليَّ فعله.

أنظر في أنحاء الغرفة إلى الجيش الصغير الذي حشدته. بارب، جولي، جاسون، هوب، ميا، كاميليا، والدا ستيلا، إنه الطاقم الأكثر ضعفًا الذي رأيته في حياتي، يقف هناك، يحدِّق إلى الصناديق الموضوعة على السرير، كلٌّ

منهم لديه دور منفصل لكنه مهم، أرفع رسمتي، لأريهم خطتي المتشابكة التي قضيت معظم الصباح أعمل عليها، كلٌّ تفصيل أُخذ تمامًا في الحسبان وتزامن مع شخص ومهمة مختلفين.

سوف تكون ستيلا فخورة بذلك.

أسمع صوت أمي من الممر، عاليًا وحازمًا وهي تنهي بعض الأشياء وتؤدي دورها.

أرتجف، وأنا أفكر عندما تستخدم تلك اللهجة معي.

أقول وأنا أنظر إليهم جميعًا: «إذن، علينا أن نفعل هذا معًا».

تقع عيناي على هوب، التي تمسح دمعة انهمرت وجاسون يحضنها، أنظر بعيدًا إلى جولي، إلى كاميليا وميا، إلى والدي ستيلا.

- هل الجميع موافقون؟

تومئ جولي بحماس، ويكون هناك اتفاق جماعي، ثم ينظر الجميع إلى بارب، التي لم تتفوه بكلمة.

تقول وهي تبتسم: «أوه، نعم! موافقة.. بالطبع موافقة»، ونحن الاثنان على الصفحة نفسها لأول مرة على الأرجح.

أسألها: «كم من الوقت ستبقى ستيلا تحت تأثير المخدر؟».

تلقي نظرة خاطفة على ساعتها: «ربما عدة ساعات أخرى». تتفحَّص عيناها جميع الصناديق، وقائمة مهام كلٍّ واحد منا: «سيكون لدينا متسع من الوقت».

ممتاز.

أبدأ بتسليم الصناديق، لكلٍّ شخص مع مهمته، أقول: «حسنًا، كاميليا وميا»، وأنا أعطيهما قائمتي مهامهما وصندوقهما المشترك: «ستعمل كلتاكما مع هوب وجاسون على...».

تنهي أمي مكالمتها، وتطل برأسها على الغرفة: «لقد نجح الأمر.. لقد قالوا نعم».

نعم! عرفت أنها ستستطيع فعل ذلك، أهز رأسي: «أنت حقًّا مخيفة في بعض الأحيان، أتعرفين ذلك؟».

تبتسم إليَّ: «لقد اكتسبت بعض الممارسة الجيدة».

أسلم بقية الصناديق، ويتجه الجميع إلى الممر ليبدأ بتجهيز كلِّ شيء، تبقى أمي في الخلف، وتطل برأسها داخل المدخل: «هل تحتاج إلى شيء؟».

أهز رأسي: «سأكون هنا قريبًا، يوجد فحسب شيء واحد آخر عليَّ فعله أولًا».

يغلق الباب، فأتجه إلى مكتبي، وأسحب زوجين من القفازات المطاطية وأتناول أقلامي الملونة، أبقى عالقًا في الرسمة ذاتها، رسمة لستيلا، تدور على البحيرة الجليدية، بلحظات قبل أن أخبرها أنني أحبها.

أحاول جاهدًا أن أضع كلَّ تفصيل صغير بشكل صحيح، ضوء القمر يضيء على وجهها، شعرها يتطاير خلفها وهي تدور، والبهجة الخالصة تملأ كلَّ صورة.

تملأ الدموع عينَيَّ وأنا أحدِّق إلى الرسمة، فأمسحها بذراعي، بمعرفة أنني للمرة الأولى، أفعل تمامًا الأمر الصواب.

أقف مجددًا عند مدخل غرفة ستيلا، أشاهد الارتفاع والانخفاض الثابت لصدرها المغطّى بالضماد، ورئتاها الجديدتان تعملان بشكل مثالي، الباندا الجاف (الآن) قد دُسَّ تحت ذراعها بأمان، ووجهها مسالم وهي نائمة.

أنا أحبها.

لطالما اعتدت على البحث عن شيء ما، البحث في كلِّ مرة من على السطح عن شيء ما من شأنه أن يهبني هدفًا.. والآن قد وجدته.

يقول والدها وستيلا قد بدأت تتحرك: «إنها تستيقظ».

أنظر بينما تعبر والدتها الغرفة، وقد بدأت عيناها تفيض بالدموع وهي تنظر إليَّ: «شكرًا لك ويل».

أومئ برأسي وأنا أمد يدي المغطاة بقفَّاز إلى حقيبتي وأسحب علبة ملفوفة: «هل لك أن تعطيها إيَّاها عندما تستيقظ؟».

تأخذها أمها وتعطيني ابتسامة حزينة صغيرة.

أعود لأنظر إلى ستيلا مرةً أخرى وقد بدأ جفناها يرفرفان، أريد البقاء، أريد أن أبقى عند مدخل غرفتها، وتمامًا إلى جانبها، حتى ولو كان ذلك دائمًا على بعد خمس خطوات.

على بُعد ستٍّ حتى.

لكن لهذا السبب تحديدًا، أتنهد، ومع كلِّ شيء فيَّ، أستدير وأرحل.

مكتبة ياسمين
telegram @
yasmeenbook

الفصل التاسع والعشرون

ستيلا

أفتح عينيَّ.

أحدِّق إلى السقف، كلُّ شيء يؤول إلى الوضوح، الألم إثر الجراحة ينتشر عبر جسدي بأكمله.

ويل.

أحاول أن أنظر حولي، لكنني ضعيفة جدًّا، هناك أشخاص هنا، لكنني لا أراه، أحاول الكلام لكنني لا أستطيع بسبب جهاز التنفس الاصطناعي.

تقع عيناي على وجه أمي وهي تحمل علبة، تهمس أمي وهي تعطيني إياها: «حلوتي؟ هذه لك».

هدية؟ هذا غريب.

أعاني لأفتح الغلاف، لكن جسدي ضعيف، تميل أمي نحوي وتساعدني للكشف عن دفتر رسم أسود بداخلها، وعلى غلافه مكتوب «**على بُعد خمس خطوات**».

إنه من ويل.

أقلِّب الصفحات، أشاهد الرسمة تلو الرسمة من قصتنا، الألوان تقفز أمامي، أنا وأحمل دب الباندا، كلانا يقف إلى طرفي عصا البلياردو، نحن ونطفو على الماء، الطاولة المملوءة في حفل ميلاده، أنا وأدور على البحيرة الجليدية.

ثم في الصفحة الأخيرة، كلانا، أحمل في يدي الكرتونية الصغيرة بالونًا، يفرقع جزؤه العلوي، فتتدفق مئات النجوم منه، وتعبر الصفحة إلى ويل.

يمسك بريشة وورقة، مكتوبٌ عليها: «قائمة ويل الرئيسية».

وتحتها بندٌ وحيد.

«1#: حبُّ ستيلا إلى الأبد».

أبتسم وأنظر إلى جميع الوجوه في الغرفة.. إذن لماذا ليس هنا؟

تأخذ جولي خطوة إلى الأمام، وتسند جهاز آيباد في حضني، وأعبس حائرة.

تضغط على زر التشغيل.

يقول ويل: «حبيبتي ستيلا الجميلة المتسلطة»، يظهر وجهه على الشاشة، وشعره في فوضويته الساحرة المعتادة، وابتسامته مائلة كما كانت دائمًا.

«أعتقد أنه من الصحيح ما يقول كتابك: الروح لا تعرف وقتًا، هذه الأسابيع القليلة الماضية ستدوم إلى الأبد بالنسبة إليَّ». يأخذ نفسًا عميقًا، ويبتسم بعينيه الزرقاوين تلك: «ندمي الوحيد أنك لن تذهبي أبدًا إلى رؤية الأضواء».

أنظر متفاجئة إذ ينقطع النور فجأة في غرفتي، أرى جولي تقف إلى جانب الأزرار.

فجأة تشغل الأضواء في الفسحة خارج غرفة إنعاشي، المكان بأكمله مملوء بأضواء العطلة المتلألئة من الحديقة، ملفوفة حول أعمدة الإنارة والأشجار، أشهق عندما يلقون وهجًا في غرفتي، تفتح بارب وجولي السرير، ويدحرجونه تمامًا إلى أمام النافذة بحيث أتمكن من الرؤية.

وهناك، على الجهة الأخرى من الزجاج، يقف تحت قبة من هذه الأضواء الجميلة، إنه ويل.

تتسع عيناي وأنا أدرك ما يحدث.

إنه يغادر، ويل يغادر، أقبض على الملاءة بينما أشعر بألم من نوع آخر.

يبتسم إليَّ، ينظر إلى الأسفل ويسحب هاتفه، من خلفي، يبدأ هاتفي في الرنين، تحضره جولي لي، وتضعه على السماعة الخارجية، أفتح فمي لأتكلم، لأقول شيئًا ما، لأخبره أن يبقى، لكن لا يخرج شيءٌ.

يطن أنبوب التنفس الاصطناعي.

أحاول أن أخبره شيئًا ما من خلال نظرتي بألَّا يغادر.. بأنني أحتاج إليه.

يعطيني ابتسامة باهتة، وأرى الدموع في عينيه الزرقاوين، يقول وصوته يخرج من الهاتف: «أخيرًا، جعلتك عاجزة عن الكلام».

يرفع يده، ويضعها على زجاج النافذة، أرفع يدي بضعف، وأريحها فوق يده، الزجاج هو آخر ما يفصل بيننا.

أريد أن أصرخ.

ابقَ.

«يقول الناس في الأفلام دائمًا: «عليك أن تحب شخصًا بما يكفي للسماح له بالرحيل»». يهز رأسه، ويبتلع ريقه، يكافح للكلام: «لطالما اعتقدت أن ذلك محض هراء، لكن رؤيتك على وشك الموت...»».

يتلاشى صوته، وتلتف أصابعي على الزجاج البارد، أرغب في تحطيمه، لكنني بالكاد أتمكن من طرقه: «في تلك اللحظة لم يعد يهمني أي شيء آخر، لا شيء، باستثناء حياتك».

يضغط أشد، وصوته يرتعش وهو يتابع: «الشيء الوحيد الذي أريده أن أكون معك، لكنني أحتاج إلى أن تكوني بأمان، في مأمنٍ مني».

يكافح ليستمر في الكلام، والدموع تنهمر على وجهه: «لا أريد أن أتركك، لكنني أحبك جدًّا أن تبقي». يضحك وسط دموعه، وهو يهز رأسه: «يا إلهي، كانت الأفلام اللعينة على حق».

يميل رأسه إلى النافذة، حيث تستند يدي، أستطيع الشعور به، على الرغم من الزجاج، أستطيع الشعور به.

يقول وهو يرفع نظره فتتقابل وجوهنا: «سأحبك إلى الأبد». يصمت كلانا وهو يرى الألم ذاته في عينَي الآخر، يتصدع قلبي ببطء إثر الندبة الجديدة.

يتشكَّل ضباب تنفسي على الزجاج، ومرة أخرى أرفع إصبعًا مهتزًّا وأرسم قلبًا.

يطلب وصوته متحطم: «هل لك أن تغمضي عينيك رجاءً؟ لن أستطيع الذهاب بعيدًا عنك وأنت تنظرين إليَّ».

لكنني أرفض، ينظر فيرى التحدي على وجهي، لكن الثقة في وجهه تفاجئني.

يقول وهو يبتسم خلال البكاء: «لا تقلقي بشأني، إذا توقف تنفسي في الغد، اعلمي أنني لن أغير شيئًا».

أنا أحبه، وهو على وشك مغادرة حياتي وإلى الأبد لتكون لديَّ حياة لأعيشها.

يتوسل إليَّ وهو يطبق على فكه: «أرجوك أغمضي عينيك.. دعيني أذهب».

آخذ لحظة لأحفظ وجهه، كلُّ سنتيمتر منه، وأجبر عينَيَّ أخيرًا على الإغلاق والنحيب يحطم جسدي، أكافح مع جهاز التنفس الاصطناعي.

إنه يغادر.

ويل يغادر.

عندما أفتح عينَيَّ، سيكون قد رحل.

تتدفق الدموع على وجهي وأنا أشعر به يرحل، أبعد بكثير من الخطوات الخمس التي اتفقنا عليها. والتي لطالما فصلت بيننا.

أفتح عيني ببطء، وجزء مني ما زال يأمل أن يكون على الجانب الآخر من الزجاج، لكن كلَّ ما أراه الأضواء المتلألئة في الفسحة وسيارة فارهة في الأفق، تختفي في عتم الليل.

تمتد أطراف أصابعي مرتعشة، وأنا ألمس بصمة شفاهه على النافذة، قبلة وداعه الأخيرة.

بعد ثمانية أشهر

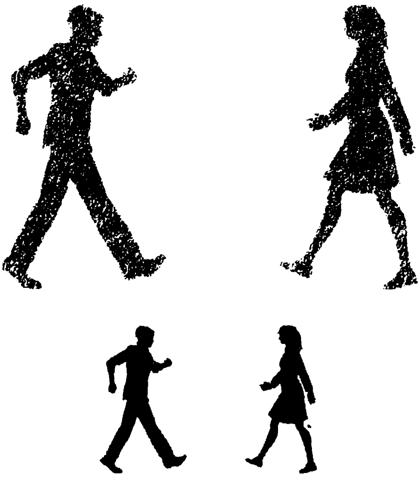

الفصل الثلاثون

ويل

يخرج المتحدث في مبنى المطار عن صمته، يخترق صوت خافتٌ ثرثرة الصباح وطرق عجلات الحقائب على بلاط الأرضية، أنزع إحدى سماعتيَّ لأسمع الصوت، قلقًا بشأن تغيير البوابات، وأن أضطر إلى جوبِ المطار برئتين رديئتين. «الانتباه رجاءً، المسافرون على خطوط الآيسلندية رحلة رقم 606 إلى ستوكهولم...».

أعود لوضع السماعة مجددًا، ليست رحلتي، لن أصل السويد قبل ديسمبر.

أعود للأريكة، أفتح اليوتيوب للمرة المليون، متجهًا كالعادة إلى فيديو ستيلا الأخير، لو كان يوتيوب يتعقب المشاهدات الفردية، كان سيرسل حتمًا الشرطة إلى منزلي الآن، وسأبدو مثل فارٍّ، لكن لا يهم، لأن هذا الفيديو عنًّا، وعندما أضغط زرَّ التشغيل، تحكي قصتنا.

تقول، وصوتها عالٍ وواضح: «اللمسة الإنسانية.. النموذج الأول للتواصل لدينا». تأخذ نفسًا عميقًا، رئتاها الجديدتان تعملان بشكل رائع.

ذاك النفس هو الجزء المفضل لديَّ من كلِّ الفيديو، لا معاناة، لا أزيز، مثاليٌّ وسَلس دون جهد.

تقول: «السكينة والأمان والراحة، كلها في المداعبة اللطيفة للإصبع، أو في لمسة الشفاه على خدٍّ ناعم». أنظر من جهاز الآيباد إلى المطار المزدحم حولي، تأتي الناس وتذهب، والحقائب الثقيلة محمَّلة، لكن على الرغم من ذلك، هي على حقٍّ. من الأحضان الطويلة عند الوصول، إلى تربيت الأيدي على الأكتاف لبث الاطمئنان عند الخط الأمني، وحتى الثنائيات الشابة، أذرعهم تحيط ببعضهم ينتظرون عند البوابة، اللمسة في كلِّ مكان.

- نحن نحتاج إلى لمسة مَن نحب، تقريبًا مثلما نحتاج إلى الهواء لنتنفس، لم أفهم مطلقًا أهمية اللمسة، لمسته... إلى أن لم أَحْظَ بها.

بإمكاني رؤيتها، على بعد خمس خطوات عني، في تلك الليلة في المسبح، تمشي لرؤية الأضواء، على الجهة الأخرى من الزجاج في تلك الليلة، لطالما كان لدينا ذاك التوق لتقليص المسافة بيننا.

أوقف الفيديو لأدركها.

تبدو... أفضل بكثير مما رأيتها شخصيًّا، من دون أكسجين محمول، من دون هالات سوداء تحت عينيها.

لطالما بدت جميلة بالنسبة إليَّ، لكنها الآن حرة، إنها حيَّة.

في كلِّ يوم أجد نفسي متمنيًا أن لو لم أغادر، أستحضر اللحظة التي غادرت بها، ساقاي كطوب أسمنتي، تُسحب كمغناطيس إلى نافذتها. أعتقد أنك ذاك الجذب، وذاك الألم، سيكون حاضرًا على الدوام، لكن كلُّ ما يسعني فعله هو رؤيتها هكذا لأعرف أنها تستحق العناء مليون مرة.

يظهر إشعار تطبيقها على شاشتي، يخبرني بتناول أدوية منتصف النهار، أبتسم إلى علبة الدواء المتراقصة، كما لو أنها ستيلا التي دائمًا ما أحملها معي، تنظر من فوق كتفي، لتذكرني بتلقِّي علاجي. تذكرني بأهمية المزيد من الوقت.

يقول جاسون: «هل أنت جاهز للانطلاق يا رجل؟». وهو يدفعني وهم يفتحون الباب للبدء بتحميل الطائرة المتجهة إلى البرازيل، أعطيه ابتسامة عريضة، وأبتلع أدويتي جافة، وأعيد علبة الدواء إلى حقيبة ظهري وأغلقها.

- خُلقتُ مستعدًا.

سأذهب أخيرًا إلى رؤية الأماكن التي حلمت بها.

أجري فحصًا طبيًّا في كلِّ مدينة، والذي كان أحد شروط أمي الثلاثة التي وضعتها قبل أن تدعني أذهب، الشرطان الآخران كانا بسيطين، عليَّ أن أرسل إليها أكبر عدد ممكن من الصور، وأحادثها عبر سكايب كلَّ اثنين مساءً، مهما كان الوضع. بعيدًا عن ذلك، يمكنني أخيرًا عيش حياتي بالطريقة التي أريدها، ولأول مرة، يتضمن ذلك القتال إلى جانبها تمامًا.

لقد وجدنا أخيرًا أرضية مشتركة.

أقف، آخذ نفسًا عميقًا وأنا أسحب حزام الأكسجين المحمول على كتفي النحيل، لكن النفس يعلق في حنجرتي بمجرد استنشاقه تقريبًا، لأنه وبالرغم من كلِّ الثرثرة والفوضى في المطار، وفوق حشرجة البلغم في رئتي، أسمع صوتي المفضل في العالم.

ضحكتها، ترن كالأجراس، أخرج هاتفي على الفور، لا بُدَّ وأنني قد تركت الفيديو مشغلًا في جيبي، لكن الشاشة سوداء، والصوت ليس ضئيلًا أو بعيدًا.

إنه فقط على بُعد خمس خطوات.

تعرف ساقاي أن عليَّ الذهاب فحسب، والركوب في رحلتي، والمضي قدمًا، لكن عينَيَّ تبحثان بالفعل. عليَّ أن أعرف.

يستغرق الأمر مني ست ثوانٍ لأراها، ولا أندهش حتى عندما أفعل ذلك، فعيناها تلاقي عينَيَّ مباشرة.

لطالما كانت ستيلا هي التي تجدني أولًا.

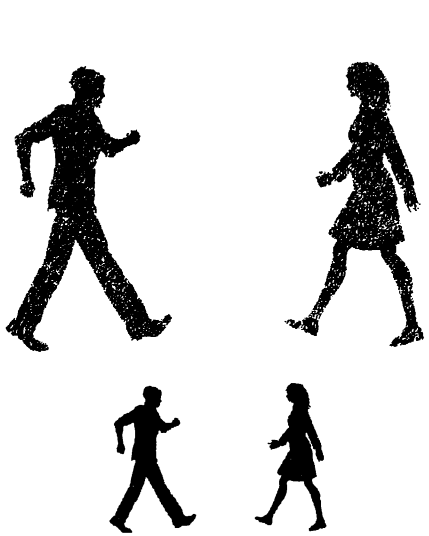

الفصل الحادي والثلاثون

ستيلا

تقول ميا، وهي تدفعني بمرح: «ما الذي حدث لتنغمسي بذلك ستيلا؟ افعليها على «طريقة آبي»».

أرفع نظري من مخطط رحلتي، وأضحك وأنا أطويه بعناية وأدسُّه في جيبي الخلفي: «لم تُبنَ روما بيوم واحد». أبتسم إلى ميا وكاميليا وأنا فخورة بنكتة مدينة الفاتيكان: «هل تفهمان؟ روما؟».

تضحك كاميليا وهي تدور عينيها: «رئتان جديدتان، لكن بحس الفكاهة ذاته».

آخذ نفسًا عميقًا عند سماع كلماتها، رئتان تتمدَّدان وتتقلصان دون عناء، لا يزال الأمر رائعًا، بالكاد يمكنني تصديق ذلك، مرَّت الشهور الثمانية الفائتة بحلوها ومُرِّها، على أقل تقدير. رئتاي الجديدتان مذهلتان، الألم الجسدي إثر الجراحة يفسح المجال شيئًا فشيئًا إلى حياة جديدة كاملة، عاد والداي معًا، وأخيرًا بدأنا جميعًا بالالتئام معًا أيضًا، وكرئتي الجديدتين، لم يُصلح كلٌّ شيء قد تحطم، خسارة آبي وبو آلام لا أعتقد أنني سأتخطاها تمامًا، مثلما أعرف أنه بغض النظر عن أيِّ شيء، هناك جزء مني لن يتجاوز ويل أبدًا، ولا بأس.

يذكرني الألم أنهم كانوا هنا، يذكرني بأنني حية.

يعود الفضل لويل بأن حظيت بالكثير من الحياة لأعيشها، بالكثير من الوقت. بعيدًا عن حبِّه، كانت أعظم هدية أتلقاها في حياتي، ولا أصدق الآن أنني كنت على وشك التخلي عنها.

أنظر في أنحاء المطار إلى السقوف العالية والنوافذ الواسعة، والحماس يجوبُ شراييني ونحن نمشي إلى البوابة 17 من أجل رحلتنا إلى روما، الرحلة التي أستطيع أخيرًا القيام بها، إلى مدينة الفاتيكان وقصر سيستين وأولى الأشياء العديدة التي أريد القيام بها ورؤيتها، لم تكن مع آبي، وأنا متأكدة أن هذا العنصر ليس مشطوبًا على قائمة أمنيات ويل، لكن مجرد قيامي بها سيجعلني أشعر أنني أقرب إليهم.

أدرك ونحن نمشي أنني أحدد سرعة الرحلة، كاميليا وميا مباشرة خلفي، كان من الممكن أن أقضي نحبي إثر كلِّ هذا المشي قبل عدة أشهر، لكن ذلك يبدو الآن كما لو يمكنني الاستمرار.

تقول ميا عندما نجد البوابة: «فليقترب الجميع لالتقاط صورة». ترفع هاتفها بينما نقترب من بعضنا، ونبتسم ابتسامة عريضة للكاميرا.

نتفرق بعد ضوء الفلاش وألقي نظرة على هاتفي لأرى صورة من أمي لأبي وهو يتناول فطوره، البيض مع اللحم المقدد في شكل وجه حزين مع تعليق: «نفتقدك بالفعل ستيل، أرسلي صورًا».

أضحك، وأدفع ميا: «هيه، تأكدي أن ترسليها إلى والديَّ؛ إنهما يسألان دون توقف عن صور...».

يتلاشى صوتي عندما أرى فمها قد فُتح في صدمة، وهي تحدِّق إلى كاميليا.

تسأل كاميليا وهي تتنهد بصوت عال: «ماذا؟ هل فعلت ذلك مجددًا في وجهي؟ لا أعرف لماذا أبتسم هكذا باستمرار...».

ترفع ميا يدها تقاطعها، وعيناها تتحركان بسرعة إلى مجموعة كبيرة من الناس ينتظرون الصعود على متن طائرتهم، وتركز أخيرًا على شيءٍ خلفيٍّ، تشهق كاميليا بِحِدَّة.

أستدير وأنا أتابع نظرها، والشعر على عنقي من الخلف يقف بينما تسافر عيناي إلى الرتل الطويل من الناس.

يبدأ قلبي يخفق بشدة عندما تقع عيناي على جاسون.

ثم أعرف، أعرف أنه هناك حتى قبل أن أراه.

ويل.

أقف متسمرة في مكاني، وهو يرفع نظره لتتعلق أعيننا، الأزرق المعهود الذي حلمت به منذ فترة طويلة يكاد أن يهيم بي على وجهي. لا يزال مريضًا، الأكسجين المحمول معلق على كتفه، وجهه نحيلٌ ومتعب، إنه عذاب جسدي أن أراه بهذه الحال، أن أشعر برئتي تمتلئان من جديد ورئتاه لا تستطيعان.

لكن بعد ذلك، يتحوَّل وجهه إلى تلك الابتسامة المائلة فيتلاشى العالم بعيدًا، إنه ويل، إنه هو حقًّا، إنه مريض، لكنه على قيد الحياة، كلانا كذلك.

آخذ نفسًا سَلِسًا عميقًا وأمشي نحوه، أقف بالضبط على بُعد ست خطوات عنه، عيناه دافئتان وهو يحفُّني بنظره، من دون أكسجين محمول، من دون صعوبة تنفس، من دون قنية أنفية.

أنا فعليًّا ستيلا أخرى.

باستثناء شيء واحد فقط.

أبتسم إليه، وآخذ فحسب تلك الخطوة الأخرى المسروقة، إلى أن نصبح على بعد خمس خطوات.

النهاية

مكتبة ياسمين

telegram @
yasmeenbook

ملاحظة الكاتب

دواء السيفافلومالين الذي يشارك ويل في تجربته هو نسج خيال، نأمل أن يُكتشف يومًا ما مثل هذا العلاج.

telegram @yasmeenbook